أسرار العبادات

من تأليفات

البحر الزاخر والدر الفاخر فخر الأفاخر والأعاظم

السيد كاظم الحسيني الحائري الرشتي

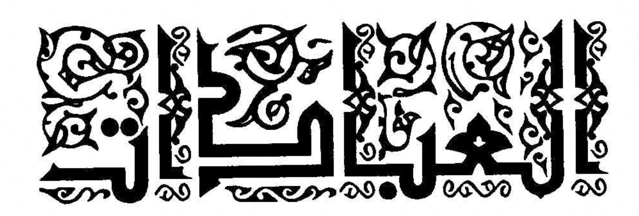
أعلى الله مقامه المتوفى ١٢٥٩ هـ

لجنة النشر والتوزيع

جامع الإمام الصادق

عليه السلام





من تأليفات

البحر الزاخر والدر الفاخر فخر الأفاخم والأعاظم

السيد كاظم الحسيني الحائري الرشتي

أعلى الله مقامه - المتوفى (١٢٥٩ هـ)

لجنة النشر والتوزيع

جامع الإمام الصادق

عليه السلام

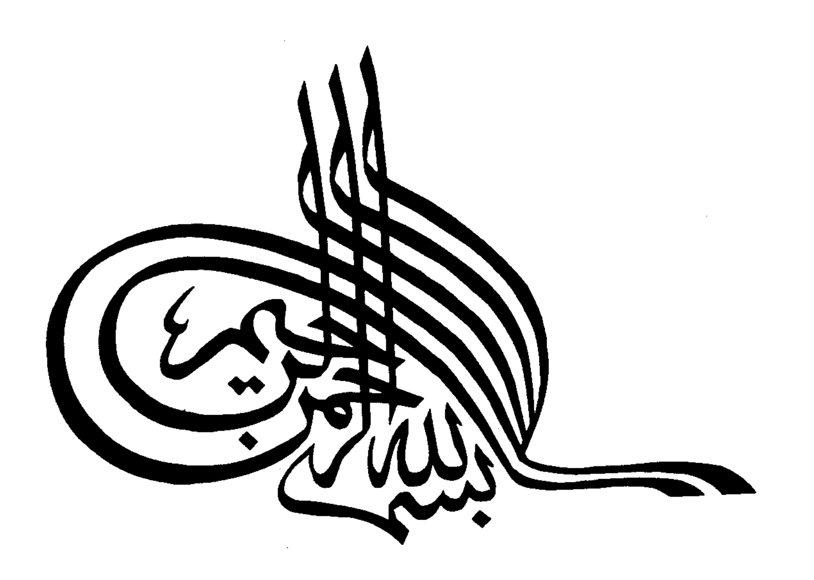


اسم الكتاب : أسرار العبادات

المؤلف : السيد كاظم الحسيني الحائري الرشتي

سنة الطبع : ١٤٢٢٠ هـ - ١٩٩٩م

الطبعة : الأولى _ الكويت


بسم الله الرحمن الرحيم

قال علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام : أنتم معاشر الشيعة العلماء بعلمنا مقرونون بنا وبملائكة الله المقربين ، شهداء لله بتوحيده وعدله وكرمه وجوده ، قاطعين لمعاذير المعاندين من إمائه وعبيده فنعم الرأي لأنفسكم رأيتم ، ونعم الحظ الجزيل اخترتم ، وبأشرف السعادة سعدتم حين بمحمد وآله الطيبين الطاهرين قرنتم ، وعدول الله في أرضه شاهرين بتوحيده وتمجيده جعلتم ، وهنيئا لكم وأن محمدا لسيد الأولين والآخرين وأن أصحاب محمد الموالين أولياء محمد وعلي صلى الله عليهما وآلهما والمتبرئين من أعدائهما أفضل أمم المرسلين ، وأن الله لا يقبل من أحد عملا إلا بهذا الاعتقاد ، ولا يغفر له ذنبا ، ولا يقبل له حسنة ، ولا يرفع له درجة إلا به .(بحار الأنوار ١ | ١٨٠ ح ٦٨) .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق أجمعين باعث الأنبياء والمرسلين ، والصلاة والسلام على خيرة الله من خلقه أجمعين سيد الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين وطبيب قلوب المؤمنين أبي القاسم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله ، ثم الصلاة والسلام على صلاة المؤمنين والنور الحق المبين وصي رسول رب العالمين وأولى الناس بالمؤمنين سيد الوصيين وقائد الغر المحجلين أبي الحسن والحسين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، والصلاة والسلام على مجمع البحرين وملتقى النورين ومن هي لرسول الله قرة عين الصديقة الكبرى الطاهرة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين سلام الله عليها وعلى أبنائها الطيبين الطاهرين ، لا سيما على ناصر الدين وخاذل الكافرين والمنافقين وناشر أعلام الدين الوصي المرضي ابن الأوصياء المرضيين ، صاحب

الغرة الحميدة والطلعة الرشيدة الحجة بن الحسن المهدي المنتظر أرواحنا فداه وعجل الله تعالى فرجه ، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين آمين يا رب العالمين .

وبعد ، فإن من نعم الله تعالى ومننه وآلائه أن جعل في هذه الفرقة الناجية المحقة الإمامية أعلى الله كلمتها علماء متدبرين متفكرين متبحرين يخرجون الأسرار المكنونة المخزونة من آيات القرآن المجيد وروايات أهل بيت النبوة والعصمة صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن أبرز من لمع نجمه في هذا المجال هو البحر الزاخر والدر الفاخر فخر الأفاخم والأعاظم مولانا السيد كاظم الحسيني الحائري الرشتي أعلى الله مقامه ونشر في الدارين أعلامه ، فلعمري لقد نطق روح القدس على لسانه فيما كتب في هذه الرسالة وفي كل رسائله وكتاباته ومؤلفاته التي خطها بيمينه المباركة رضوان الله عليه ، فهذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ الكريم هو كنز كان مكنونا ومدفونا وهو نموذج من فيضه ونقطة من بحر فضله ، فقد رسم في هذا الكتاب منهجا لكل من أراد أن يكشف له الحجاب ويرى الصواب ويميز الماء من السراب ويرى حقيقة الأشياء ويسير في سلك العلماء الفضلاء ويحشر مع الأتقياء .

فقد أبان فيه كيفية اتصال العبد بخدمة مولاه حتى يستفيد من كل حركة يتحركها في حياته وكل جزء من أجزاء عباداته ، من طهارته

ووضوئه إلى صلاته وصيامه وزكاته وخمسه وحجه ، وهذا الأمر ليس بغريب على هذا العالم النحرير الذي كرس حياته في خدمة مواليه الكرام عليهم وعلى شيعتهم ومحبيهم السلام ، جعلنا الله وإياكم من السالكين هذا المسلك الكريم بحق محمد وآله الطاهرين .

وفي ختام هذه المقدمة فإنه من باب الواجب ذكره هو أن الفضل كل الفضل في نشر هذه الكتب المباركة لأجل الوحدة بين شيعة أهل البيت عليهم السلام وارتفاع بعض الظنون والخلافات يرجع إلى توجيهات المرجع الديني الكبير مولانا الإمام المصلح العبد الصالح الحاج ميرزا حسن الحائري الإحقاقي وإلى إرشادات وتوجيهات نجله المبارك علم التقى منقذ الشيعة ومحيي الشريعة المولى آية الله المعظم الحاج ميرزا عبدالرسول الحائري الإحقاقي دامت بركاته فإنه لم يدخر جهدا في السعي في نشر هذه المعارف المباركة التي تحيي القلوب وتنير الدروب ، فنسأل الله له طول العمر ودوام الصحة العافية وأن يجعلنا معهم في الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب الدعاء ، وصلى الله على ساداتنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

لجنة النشر والتوزيع بجامع الإمام الصادق عليه السلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على خير خلقه محمد وآله أجمعين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين .

أما بعد ، فيقول العبد الجاني والأسير الفاني كاظم بن قاسم الحسيني أن بعض الديانين الذين ميزوا الماء من السراب ، وفرقوا بين القشور واللباب ، وطلبوا لذلك الحق والصواب ، على ما عند الأئمة الأطياب عليهم سلام الله من كل باب ، من الذي خصوا به شيعتهم المخلصين من أولي الأفئدة والألباب ، سلمه الله وأبقاه وسلك به مسلك رضاه ، قد عرض عليّ مسائل أغلبها من غموض المسائل ، قد انحطت عندها عقول الحكماء ، وعجزت عن حلها أفهام العلماء ، وأراد جوابها على الاستعجال ، وأنا في غاية اشتغال البال ، لعروض الأمراض المانعة من استقامة الحال ، وحمل أعباء

السفر ومؤونة الحل والارتحال ، فلم أتمكن من تعجيل الجواب إلى أن مضت برهة من الزمان ، تقرب من ستة أشهر حتى وفقني الله تعالى لزيارة ثامن الأئمة روحي له الفداء وعليه السلام ، وبعد المراجعة من ذلك السفر المقرون بالسعادة والظفر ، وعزمي للعود إلى وطني المعروف ومسكني المألوف مشهد مولانا وسيدنا الحسين روحي فداه ، خطر ببالي أن أملي جواب تلك المسائل في أثناء السفر من النقض والإبرام ، وأت بما هو الميسور لأنه لا يسقط بالمعسور ، وإلى الله ترجع الأمور ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقد جعلت كلامه سلمه الله تعالى متنا وجوابي كالشرح له كما هو عادتي في أجوبة المسائل .

إثبات النبوة والإمامة بالدليل العقلي .

قال سلمه الله تعالى : المسألة الأولى : أن تبين لنا إثبات النبوة الخاصة المطلقة المحمدية ، والولاية الخاصة العلوية والذرية الطيبة ، بالدليل القطعي العقلي ، الغير المشوب بشيء من الدليل النقلي وسائر الأمور الخارجية من خوارق العادات وظهور المعجزات وسائر الفوائد والكلمات التي عند المتكلمين فإنها لعمري ما ترفع الشبهات ، ولا توصل إلى مقام القطع البات ، ولئن دفعت به الشبهات لا تطمئن النفس ولا تصل إلى مقام الاطمئنان ، لأنه

وإن كان تحقيقا لكنه نوع تقليد ، فأوضح لنا هذا السبيل بإقامة الدليل .

أقول : هذه المسألة قد استصعبت على العلماء حتى أحالها بعض منهم بأن الجزئي ليس بكاسب ولا مكتسب ، والعقل شأنه إدراك الكليات ، وإثبات الخصوصية لا دخل للعقل فيها ، نعم للعقل إثبات النبوة العامة الكلية ، وأما الخصوصية فإنما تعرف بالخارج من تحقق المعجزة الخارقة للعادة ، الممتازة من السحر وسائر أنواع الشعبذة .

وهذا القول أي القول باستحالة إقامة البرهان العقلي على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وولاية علي والأئمة من ذريته عليهم السلام باطل فاسد عند أهل المعرفة البصيرة ، لأنه قد ثبت بالأدلة القطعية من العقلية والنقلية أن الله خلق العقول من شعاع العقل الكلي الذي هو عقل محمد وأهل بيته الطاهرين سلام الله عليهم ، بل عقول الخلق من شعاع أجسامهم ، وقد قال الشاعر ونعم ما قال وقد أجاد في المقال :

ستعرف أن العقل والنقل واحد وذلك معلوم بحكم الضرورة
برهان أن العقل نور نبينا وذلك كلي بأصل الحقيقة

وأن عقول الأنبياء وحزبهم وأشياعهم من شمسه كالأشعة

فلا شك أن الشعاع شبح المنير وظل الكينونة ، وهو مرآة يرى المنير فيها على ما هو عليه ، فالشعاع إذاً صفة المنير واسمه وحقيقة رسمه ، فتكون عقول الخلائق أظلة كينونة محمد وآله عليهم السلام ، ورسوم تبنى على تلك الديار على ما هي عليه ، وأسماء دالة عليهم ، فلا تدل العقول إلا على الأربعة عشر قبضة الياقوت وحجاب الملك والملكوت ووجه الحي الذي لا يموت ، ألا ترى الأشعة الواقعة على المرايا هل تجد فيها غير الشمس ووجهتها وصفتها واسمها ، وكذلك في العقول والأحلام والأفهام لا يوجد شيء إلا ذكر محمد وآله عليهم السلام ، لأن العكس لا يدل إلا على العاكس والصورة إلا على المقابل والشعاع إلا على المنير ، وذلك واضح لأن المرايا منها ما هي معوجة يظهر النور فيها على جهة الاعوجاج ، ومنها ما هي مصبوغة ملونة يظهر فيها على وفق ذلك الصبغ فينظر المنير والمقابل متلونا أو معوجا ، ومنها ما هي متحركة غير مستقرة فلا يستقر ظهور النور المتجلي من الخارج فيها فلا تحكي حينئذ المقابل على ما هو عليه ، ومنها ما هي صافية

مستقيمة نورانية مشرقة ثابتة تحكي المقابل الخارجي على ما هو عليه .

والناظر أيضا ينظر مرة إلى نفس المرآة من حيث هي هي مع قطع النظر عن الخارجي المقابل ، وهذه نظرة إلى الأسفل والاختلاف ونسيان المقابل والذهول عن الأصل والالتفات إلى الفرع ، نظره نظر الاجتثاث ، وإدراكه وعلومه ﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إلى جاءه لم يجده شيئا ووجد اللّه عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ (١).

ومرة ينظر إلى تجلي المقابل في المرآة فله نظرة الكثرة والحجاب ، إلا أن حجابه رقيق والكثرة مضمحلة لكنها قد تمنع عن الصواب ، ودائما تمنع عن اللقاء فلا يعرف المقابل كما ينبغي حين النظر إلى المرآة .

ومرة ينظر إلى المقابل من حيث هو هو في المرآة ينظر إليه فيها من غيرها ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ (١) ، فإذا نظره هكذا في المرآة الصافية المستقيمة الثابتة فلا يجد إلا المقابل ، ولا يقع

---

(١) النور ٣٩ (٢) القصص ١٥

على الخطأ أبدا .

فإذا عرفت هذا المثال الذي ضرب الله سبحانه لك علمت معنى كون العقول كلها شعاع نور محمد وعلي وآلهما عليهم السلام مع ذهولها عنهم وإعراضها عن تصديقهم ومشاهدتهم عليهم السلام في سر هويتهم ، وذلك لإقبال الخلق إلى الدنيا ونسيانهم الله والاشتغال بالشهوات ، وذلك اقتضى اختلاف الميولات وصار الناس كما ترى .

ولكل رأيت منهم مقاما ذكره في الكتاب مما يطول

فظهر لك مما ذكرنا أن المنقطعين إلى الله سبحانه والمخلصين في ولاية أولياء الله يبقون على الفطرة الأولية التي خلق الله سبحانه الخلق عليها ، فيقرءون في حقيقة ذواتهم وألواح صدورهم جميع صفات الولي المطلق والنبي المطلق عليهما السلام على ما هما عليه ، في هيئاتهما الذاتية والعرضية والعلوية والسفلية ، وقراناتهم من الزوجات والأماكن والأزمان والأعداد وغير ذلك من سائر الحالات والعلامات ، بل لا يجد في العالم سوى ذكرهم ولا يرى غير نورهم وظهورهم صلى الله عليهم ، أما سمعت الأخبار الواردة في أن أسماء آل محمد مكتوبة على ساق العرش والكرسي والسموات

والأرض والكواكب ورؤوس الجبال وكل شيء خلقه اللـه ، وليس هذا الاسم هو الاسم اللفظي وإن كان هو أيضا وإنما إثبات الرسم والبيان والحال المقرون بالبيان المقال ، كنقش اسمك في مرآتك حرفا بحرف ولا أحب تطويل المقال في هذه الأحوال مع هذا المقابل الثابت بالعقل والنقل كما بينا في كثير من مباحثاتنا وأجوبتنا للمسائل .

محل القول بأن إثبات النبوة الخاصة للنبي الخاص والولاية الخاصة للولي الخاص محال ، والجزئي ليس بكاسب ولا مكتسب ، وأين الجزئي من مقام آل محمد صلوات اللّه عليهم ، بل المخلوق الأول والمقصود لذاته هم عليهم السلام ، وما عداهم أشعة عكوسات أنوارهم ، وإشراقات ظهورات آثارهم ، والشعاع والأثر يدلان على المنير والمؤثر بالإن ، كما يدل المنير والمؤثر عليهما باللّم .

ثم إنا نقول أن آل محمد صلى اللّه عليهم لما خضعوا لله بسر حقيقتهم وحقيقة ذاتهم وهويتهم ألبسهم اللّه تعالى لباس عظمته وكبريائه ، وغشاهم بنوره وعزته ، وأقامهم في جميع العوالم مقام نفسه وعز قدسه ، فكان حكم اللّه حكمهم ، وأمرهم أمر اللّه ، وطاعتهم طاعة اللّه ، ومعصيتهم معصية اللّه ، فدليلهم هو وجه دليل اللّه ونهج الاستدلال في المقامين واحد ، فكما أن اللّه

يستدل عليه بالعقل بالأن ، ويستدل على الخلق بالله سبحانه بالفؤاد باللم ، كذلك آل محمد صلى الله عليهم يستدل عليهم بالعقل بجميع أحوالهم الظاهرة في المخلوقين بما نقش الله في حقائق العالم من صفة كينونتهم ، ويستدل على الرعية وسائر المخلوقين بهم بالفؤاد بما سبقوا الخلائق في سر حقائقهم فكانوا أقرب إلى الخلق منهم ، فيرون قبلهم ويعرفون دونهم ثم يعرفون بهم قالوا عليهم السلام ((نزلونا عن الربوبية وقلوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا)) وهذا الذي ذكرنا نوع تنزيلهم عن الربوبية .

وإذا أردت بيانا أوضح مما ذكرنا لأهل العلوم وأصحاب الرسوم فاعلم أن الله تعالى لما وجب أن تكون نعمته شاملة وحكمته بالغة وفعله يجري على أحسن الوجوه وأتم النظام وخلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه ، وكانت معرفته لا تعرف إلا ببيانه وتوصيفه إذ الخلق جاهلون ما هو عليه في عز قدسه وما لا يليق بجنابه من أنحاء التوجهات ، وجب في الحكمة أن يعرفهم نفسه وما يريد منهم من طرق العبادات والطاعات الموصلة إلى قربه ورضاه ، ولما وجب أن يكون لتلك أدلاء يوصلون الخلق إليها لجهل الخلق بالسبيل والدليل ، وجب أن يعرفهم الدليل الموصل إلى ذلك السبيل ، ولما كان تعريف الله سبحانه وجب أن يكون ظاهرا جليا بحيث لا يكون أجلى

وأظهر وأوضح منه ، وإلا لم تكن الحجة بالغة والسبيل واضحة والطريق مهيعا ، وكان البيان والتعريف على قسمين ، بيان حالي وبيان مقالي ، والبيان الحالي أجلى وقرانه بالبيان المقالي أكمل وجب أن يجمع الأمرين لترتفع الحجة من البين ولئلا يكون للناس على الله حجة ، ولما كان الوصف كلما كان أقرب إلى من وصف له كان أقرب لإتمام الحجة وإكمال النعمة ، وليس شيء أقرب إلى الشيء من نفسه جعل أنفس الخلائق ذلك الوصف وتلك الكتابة والنقش ، وجعل في ذات كل أحد ما يطلب ويريد منه من صفة توحيده في الذات والصفات والأفعال والعبادة ، ويلزم هذا الوصف توصيف صفة معرفة الأنبياء والأوصياء والأولياء والنبي المطلق والولي المطلق بأعيانهم وهيئاتهم وأشخاصهم وأسمائهم وصفاتهم وسائر الأحوال الظاهرة بها في العالم ، ونحن بعون الله تعالى قد شرحنا ذلك كله في أجوبة مسائل بعض فضلاء رشت حين سأل عما سألت عنه بعينه ، وذكرت هناك بالدليل العقلي لزوم كون الخلق الأول أربعة عشر وأن واحدا منهم القطب المجمل للمجموع والآخر حاملا جامعا حاويا للمجموع ، ويستلزم كون امرأة أنثى واثنا عشر منهم الأصول وعليهم تدور الفصول ، وأن واحدا من الاثني عشر هو الأصل والشجرة والباقي فروعه وأغصانه ، ولزوم كون القطب هو

النبي المطلق والولي المطلق في مقام الإجمال ، وأن الأصل في الاثني عشر هو الولي المطلق في مقام التفصيل وفي مقام إعطاء كل ذي حق حقه والسوق إلى كل مرزوق رزقه ، ولزوم كون الأنبياء بالعدد المعلوم ، ولزوم سبق الأربعة عشر في الخلق الأول وتأخرهم في عالم الصعود ، ولزوم ظهور الأنبياء قبلهم ، وكون الطبقة الإنسانية في بدو الظهور الصعودي واحد ، ولزوم كون اسمه آدم ، ووجوب خلق زوجته من ضلعه الأيسر ووجوب كون اسمها حواء ، ولزوم كون الشرائع ستة في هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، ووجوب نسخ خمسة منها وبقاء الشريعة السادسة ، ووجوب عدم نسخها إلى انقراض العالم .

وذكرنا زمان وجوب الشريعة السادسة وتعيين امتداد الوقت من بدو ظهور الشريعة الأولى إلى السادسة ، ووجوب كون حامل الشريعة السادسة هو القطب في الأربعة عشر ، ووجوب كون اسمين له اسم في السماء وهو أحمد والآخر في الأرض وهو محمد ، وأسرار الحروف المقتضية بعد تركيب هذين الاسمين الشريفين ، ووجوب كون البعثة يوم النيروز بعد مضي أربعين سنة من عمره الشريف ، ووجوب كونه يتيما بلا أب ولا أم ، وأن يكون يومه الجمعة ، وكوكبه الزهرة وشكله المربع وكنيته أبو القاسم ،

ووجوب الوزير له وكونه الولي المطلق ، وكون اسمه عليا وأبيه أبي طالب وكون اسم أب النبي عبدالله وأمه آمنة بنت وهب ، ووجوب بقاء البنت للنبي صلى الله عليه وآله ، ووجوب كون اسمها فاطمة ، ووجوب تزويجها من علي عليه السلام لا سواه ، ووجوب أن يكون له منها ولدين ذكرين ، ووجوب كون اسم الأكبر منها الحسن والأصغر منهما الحسين عليهما السلام ، وأن يكون الأكبر ظاهرا بالصمت والكف عن القتال ، والأصغر بالعكس ، وأن يكون نصيبه الشهادة الكبرى والرزية العظمى التي تندك منها الجبال وتقطع لها الأوصال ، وأن تكون الذرية الطيبة عليهم السلام من نسله عليه السلام ، وهكذا سائر الأحوال والأوضاع مما جرت عليهم كل ذلك بالدليل القطعي الغير المشوب بشيء من النقل وسائر الأمور الخارجية من الإجماع والتواتر والمعجزات وخوارق العادات وسائر ما هو عن العلماء على طور أنيق وطور رشيق لم يسمح به فكر أحد قبلي ، فإذا أردت حقيقة ما ذكرنا فارجع إلى تلك الرسالة فإن فيها ما يشفي العليل ويبرد الغليل ، وليس الآن لي إقبال ذكر كلها في هذا المقال لما بي من الكسل والملل وأعباء السفر .

أسرار العبادات

قال سلمه الله تعالى : المسألة الثانية : أن تبين لنا أسرار الصلاة والزكاة والحج والخمس على جهة التوضيح والتبيين ، سيما مقامات الصلاة ومراتبها من أول الشرائط والمقدمات إلى آخر التسليم وسائر الفرائض والوجبات ، وتفسير سورة الحمد والتوحيد التفسير الباطن على ما هو المروي من أهل البيت عليهم السلام .

أقول : أما أسرار العبادة فهي عظيمة جليلة كثيرة ، في كل عالم ظهرت كانت سر ذلك العالم ، لأنها سر بدأ عن ظهور الألوهية وما ترى في كل ذرات الكائنات والمكونات والحوادث الغير المتناهية فهي جزء حقيقة العبد وأصل قابليته ، ووعاء فيضان النور الإلهي من مبدأ المبادئ وهو قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (١) لأنه عز وجل خلقهم لإيصالهم إلى الغاية القصوى من نور الفيض والكرم والجود والعطية ، فلهم السؤال والطلب الاستعداد والقابلية ولله العطية والفيض ، فما يسألون يعطيهم وبذلك ينالون نصيبهم من الكتاب ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه

---

(١) الذاريات ٥٦

ويكشف السوء ﴾ (١) فخلقهم سبحانه ليخضعوا له بالسؤال ويقفوا على باب الكرم ، ويقرعوا الباب بأنامل الفقر والفاقة ، ويطلبوا الاستغناء لغاية فقرهم وشدة فاقتهم وذلك حقيقة العبادة وسرها ، وهي في كل عالم بحسبها ، وهي الأرض الطيبة والبلد الطيب ، وجداول لجريان الماء الذي به حياة كل شيء لوصوله إلى كل الذرات ، فالعبادة لصفة الألوهية والله هو المعبود المطلق لا سواه ، والعبادة جزء حقيقة العبد وأصل نفسه وحقيقة سره ، وهي أصل العبد والعبد على الحقيقة هو الحائز لجميع مقامات العبادة ومراتبها ، لأنه سر لها وهو أصلها والمراتب فروعها ، فالحائز للأصل يلزمه حيازة الفرع .

ولما كان بينات العبد هو زبر محمد صلى الله عليه وآله لكونه مشتقا من الحمد الذي هو ظهور البسملة التي هي سر الاسم الأعظم الجامعة لكل ما في القرآن الذي لا رطب ولا يابس إلا وقد جمع الله سبحانه فيه وكون كمالاته كلها إنما هي فرع نشأ من العبودية التي هي الأصل شرح أن الله سبحانه ليس بينه وبين خلقه نسب وقرابة ، وما نال أحد مقاما ولا مرتبة إلا بذلة الخضوع

---

(١) النمل ٦٢

للمعبود بسر العبودية ، ولذا كان العبد أشرف ألقابه وأعظم مفاخره ، فوجب أن يكون ذلك اسما لأبيه في كل عالم بحسبه ، ولما كانت البينات صفة الزبر وفرعه ، وبينات العبد هو زبر محمد صلى الله عليه وآله وهو حامل العبادة ، فكان بذلك حامل جميع أسرار الربوبية وهو قوله تعالى ((لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن)) (١) وهو صلى الله عليه وآله العبد المؤمن حقيقة لا سواه قال عز وجل ﴿ الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم ﴾ (٢) ، وسائر الخلائق إما نفسه كالأئمة عليهم السلام ، أو حكاية رسمه وحقيقة اسمه كسائر الخلائق ، فإن إطلاق العبد عليهم لكونهم حاكين نور تلك الحقيقة المقدسة المنورة فافهم ، فالعبادة أصلها وحقيقتها عنهم عليهم السلام ، أي حدود ذواتهم وهيئات هياكلهم الشريفة المقدسة ، وما في سائر الخلائق أشعة أنوار تلك الحدود وأظلة آثار تلك القيود .

أسرار الصلاة

وسر العبادة وأصلها وينبوعها وقلبها ووجهها من مبدئها وحامل وجودها وتأصلها هي الصلاة التي هي خير موضوع ، وهي

---

(١) البحار ٥٥ / ٣٩ ح ٦١ (٢) الأعراف ١٥٧

التي عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها ، وهي كالقلب وباقي العبادات كلها لها بمنزلة الرأس والدماغ والصدر والكبد والعروق والأعضاء والشراسيف والعضلات والأوردة وسائر الأعضاء والجوارح والمتممات والمكملات ، وها أنا
أصف لك مجمل أسرار حقيقتها من بدو ذاتها ونزولها من عالمها إلى هذا العالم ، وعودها وتشعبها إلى هذه الحدود العينية والأركان المختصة ، ولزوم هذه المقدمات لها وضرر حكم المنافيات على جهة الاختصار والاعتماد على أقل ما يحصل به المطلوب ولو بالإشارة والتلويح .

الصلاة نور مكنون مخزون

فأقول ، اعلم أن الصلاة كانت نورا مكنونا مخزونا تحت حجاب الواحدية في بحر القدر، وهو الشمس المضيئة تحت ذلك البحر ، وهو أول من لبى لداعي الحق بالعبودية وسر الخضوع والخشية ، ولكن لقربها من عالم الوحدة واضمحلال الكثرة واحتراقها ، كانت نورا شعشعانيا في غاية البساطة والإجمال وحاملة لاسم الله الحي المتعال ، ومعلنة بالثناء على الله عز وجل بالغدو والآصال ، على المعاني كلها في كل الأحوال ، فلما اقتضت القدرة

الإلهية إظهار متعلقات اسم الله لإظهار كمال قدرته العامة وحكمته البالغة ونعمته السابغة أظهر ذلك الأمر الوحداني الحامل لذلك الاسم الأعظم الواحد على أربعة عشر هيكلا ، أو قل جعل تلك الشجرة على أربعة عشر غصنا وهي الشجرة الزيتونة التي ليست شرقية ولا غربية ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ (١) ، وهي تلك الشجرة ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ﴾ (٢) كما أن الزيت منها فافهم الإشارة .

وسميت تلك الشجرة صلاة ، فالصاد تنبئ عن الشجرة ، لأنها مقام الإجمال واندراج الكثرة في كينونة الوحدة ، لأنها هي الصاد في كهيعص ، فالأصل هو الهاء فلما تكررت أربع مرات نطقت الكاف ، ولما تكررت مرة واحدة نطقت الياء ، ولما ظهرت الهاء في الياء نطقت النون ، والكاف والنون إذا اجتمعت ونطقتا ظهرت العين ، فالعين علة الوجود وكلمة المعبود ، وبها سكنت السواكن وتحركت المتحركات ، فالكاف مقام الإجمال والنون مقام التفصيل ، ولما كان أول المتعلقات الكلمة التي هي الفعل والمشية

---

(١) النور ٣٥ (٢) يس ٨٠

يجب أن يكون في غاية الإجمال والسعة والإحاطة والبساطة لبطلان الطفرة ، وجب أن يكون أول المتعلق حكاية الكاف لكونها الأشرف ومقامها مقام الإجمال أكثر من النون التي هي مقام الكثرة والتفصيل ، فزيد عدد الكاف على عدد العين الذي هو عدد المجموع فنطقت الصاد فكانت على شكل المربع ، فكانت الصاد هي على شكل المربع فالصاد أو متعلق المشية ، وهو بحر تحت العرش قال الله عز وجل ليلة المعراج ((ادن يا محمد من صاد وتوضأ لصلاة الظهر)) ، وهذه الصاد الثانية التي هي الأولى في عالم الوجود المقيد على طبق الأولى في عالم الوجود المطلق ، فإن العالم الأسفل صفة وحكاية عن العالم الأعلى ، قال مولانا الرضا عليه السلام ما معناه (قد علم أولوا الألباب أن ما هنالك لا يعلم إلا بما ههنا) فافهم .

فظهر لك أن الصاد هي حقيقة الشجرة المتطورة بأطوار الغصون والأفنان والفروع ، قد ظهرت في المبدأ إذا لوحظ معها غيرها ، كالواحد الذي بعده الثاني والثالث وهكذا ، مع أن الواحد أصل الأعداد وينبوعها وذلك في مقام الإجمال ، وإذا عد معه غيره كلما كان في عالم التفصيل .

واللام تنبئ عن أصل الشجرة المفصلة بالأغصان لأن اللام مقام التفصيل ، ولذا كان القمر الذي عليه العدد والحساب ومعرفة تفاصيل الأمور وهو أصل البرودة والرطوبة ، ومنه الصور والهيئات والحدود وبه التمايز ، واسم الله المربي له المبين ، لا تتم دورته ولا يظهر تمام أثره إلا بعد ثلاثين يوما ، فاللام مقامها القمر ، كما أن الصاد مقامها الشمس ، وأصل الشجرة يستمد عن الشجرة ، كما أن القمر يستمد من الشمس ، والشمس هي مقام النبوة والقمر رتبة الولاية ، والنبي صاحب مقام الإجمال والولي صاحب مقام التفصيل .

ولما كانت المقامات ثلاثة ، أحدها مقام النبوة ، وثانيها مقام الولاية الإجمالية البسيطة ، وثالثها مقام الولاية التفصيلية ، وكل منها أحد أضلاع المثلث ، ولما كان النبي جامعا للمقامين والولي الثالث كان له أحد أضلاع المثلث ، ولما كانت الصاد تنبئ وتحكي عنه صلى الله عليه وآله فوجب أن تكون اللام تحكي عن الوزير الولي صلوات الله عليه ، لأن اللام ثلث الصاد وأحد أضلاعها ، والواو تنبئ عن الأغصان الاثني عشر بالتكرير والتشبيه ، وذلك تمام الأربعة عشر المتشعبة من الأصل الواحد الحامل للاسم الأعظم .

والهاء سر الكل وأصله ، وأصل الاسم الأعظم ، فإن الله إذا حذفت منه الألف تبقى ﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ (١) وإذا حذفت منه اللام الثانية تبقى الهاء ، فإذا أشبعت كانت هو ، فالهاء هي أصل التوحيد الحق وميادينه الخمسة الحقة ، وحقيقة الاسم الأعظم .

فدل لفظ الصلاة على حقيقة الحامل والمحمول والداعي واسم المدعو به مع جميع أحوالها وصفاتها الذاتية والعرضية والحقيقية والمجازية ، وقد أشرنا إلى بعضها ولو تصدينا بشرح الجميع لطال بنا الكلام ، ولأدى إلى ذكر ما لا ينبغي ذكره ، وقد أراد الله سبحانه بهذا الترتيب كشف ستر آخر لأولي المعرفة والبصيرة ، وهي أن الكل من الأربعة عشر المدلول عليهم بالصاد واللام والواو خمسة مقامات ، مقام الإمام ، ومقام الأبواب ، ومقام المعاني ، ومقام الأسماء ، ومقام التوحيد ، ومقام أنا الذي لا يقع عليّ اسم ولا صفة ، فإذا لوحظ الأربعة عشر في الخمسة استنطقت كلمة كن التي انزجر لها العمق الأكبر ، فهم عليهم السلام تلك الكلمة وهم حاملها ومظهرها وأمرها ، ولذا كانوا يد الله ، فإن اليد أربعة

---

(١) النساء ١٧٠

عشر فإذا ضربت بالخمسة الأصابع كانت سبعين وهو تمام كلمة كن ، وهو قوله تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ تنزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ (٢) ، ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ (٣) .

ولذا قلنا أن حقيقة الصلاة إنما كانت مخزونة تحت حجاب الواحدية ، و أن الهاء والواو إشارة إلى الأحد عشر الذرية الطيبة من الولي صلوات الله عليه ، وتمام الكلمة أشارت إلى الصديقة الطاهرة عليها السلام عليها السلام لأنها الحاملة ، فظهورات الجميع ومقامها في الكلمة العليا والكلمة التامة تمام الكلمة المؤلفة ، كما أن مقام بينتها عليها السلام الحروف العاليات المقطعات ، ومقام بعلها عليه السلام مقام الألف المبسوطة ، ومقام أبيها مقام النقطة ، وقد شرحنا تفاصيل هذه المجملات في كثير من مباحثاتنا وأجوبتنا للمسائل .

---

(١) يس ٨٢ (٢) النحل ٢ (٣) الروم ٢٥

معنى الصلاة

فالصلاة إما من وصل إما من الوصل ، فهم الذين وصلوا إلى مقام قربه ورضاه بما لا يمكن لأحد من المخلوقين سواهم ، واتصلوا به تعالى إلى أن صار قولهم قوله وحكمهم حكمه وأمرهم أمره وطاعتهم طاعته ومعصيتهم معصيته ومحبتهم محبته وبغضهم بغضه ، قال مولانا الصادق عليه السلام ((لنا مع الله حالات هو فيها نحن ، ونحن فيها هو ، إلا أنه هو هو ونحن نحن)) .

وإما من الصلة فهم عطاء الله سبحانه وفيضه وكرمه وجوده وإحسانه إلى كل مخلوقاته من أنفسهم ومن غيرهم ، وهم النعم التي أنعم الله عز وجل ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (١) وقال عز وجل ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ (٢) فالنعم الظاهرة هو الإمام الظاهر المشهور ، والباطنة الإمام الغائب المستور عجل الله فرجه .

وإما من الاتصال وهم عليهم السلام الذين يتبعون الحق عز وجل بحيث لا يذكر إلا ويذكرون معه ، فعلى ساق العرش مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين ولي الله ،

---

(١) إبراهيم ٣٤ (٢) لقمان ٢٠

وعلى الكرسي مكتوب كذلك ، وعلى اللوح والقلم والسموات السبع والأرضين السبع وما بينهما من المتولدات من المعادن والنباتات والحيوانات والليل والنهار والبراري والقفار والبحار والأنهار وكل شيء خلقه الجبار القهار كذلك ، فلا يذكر اللّه إلا ويذكرون معه لأنهم مع اللّه سبحانه كما في قوله تعالى ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (١) قال الصادق عليه السلام ((والذين في السموات هم الملائكة ، والذين في الأرض هم الجن والإنس ، ونحن الذين عنده)) فإذا كانوا عنده على المعنى الحق ، فيكون ذكرهم تالي ذكر اللّه وهم أيضا وجه اللّه ، فلا يذكرون إلا ويذكر اللّه سبحانه حين ذكرهم معه .

حقيقة الصلاة

فالصلاة بكل معنى وبكل اشتقاق وبكل قاعدة لا تصدق إلا عليهم عليهم السلام ، ولذا قال أمير المؤمنين عليه صلوات الحق المبين ((أنا صلاة المؤمن أنا حي على الصلاة)) (٢) ، وقال مولانا الصادق عليه السلام في جواب داود بن كثير على ما رواه في تأويل

---

(١) الأنبياء ١٩ — ٢٠ (٢) الفضائل ٨٣

الآيات ((نحن الصلاة في كتاب الله عز وجل ونحن الزكاة)) (١) ، فهذه الألفاظ في الحقيقة إنما وضعت لهم عليهم السلام لا غير لما ثبت بالبرهان القطعي أن الله سبحانه هو الواضع للأسماء لمسمياتها ، وأن بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ذاتية ومرابطة حقيقية ، وأن الطفرة في الوجود باطلة ، وأن الله سبحانه لا يخل بالحكمة وقد شرحنا هذه المسألة بأكمل بيان في كثير من مباحثاتنا ورسائلنا ، فلما أنهم صلى الله عليهم تمت خلقتهم وكملت هياكلهم وخضعوا لله سبحانه بذل العبودية في سرهم وعلانيتهم سطع نورهم وتشعشع ظهورهم الحاكي لحدود هيئاتهم وهياكلهم ، فخلق الله سبحانه من ذلك النور وسطوع ذلك الظهور حقائق الأنبياء عليهم السلام ثم سائر حقائق شيعتهم ومواليهم ، ولما أن الشعاع يستحق اسم المنير من باب الحقيقة بعد الحقيقة ومن باب الوضع الخاص والموضوع له العام الذي اتفق علماء الأصول على بطلانه ، واستحقت تلك الحقائق والذوات ذلك الاسم بالطبيعة وذلك عند ظهورهم في التكوين ، ثم ظهر نورهم عليهم السلام بسر عبوديتهم في التشريع ظهر نورا ساطعا وبدرا لامعا حكى كينونتهم وأنبأ عن

---

(١) تأويل الآيات ٨٠١

حدود ذواتهم وهياكلهم التي هي نفس الخضوع والخشوع والذلة لله عز وجل فاستحق اسمهم وهو الصلاة ، وبقي مكنونا مخزونا تحت العرش الأعظم الأعلى قبل أن يخلق الله السموات والأرض والكواكب والبروج والعرش الثاني والكرسي وألواح المحو والإثبات ، وكانت نورا إجماليا وحدانيا يسبح الله سبحانه بسر ذاته وحقيقته ، فلما أراد الله سبحانه أن يمن على خلقه بها أنزلها من عالم إلى عالم آخر ليفصلها وليكمل أهل ذلك العالم بإشراق نورها وسطوع ظهورها ، ووكل على حفظها ونزولها ملكا اسمه لقيانيل وهو أعظم الملائكة قدرا وكبرا وعظمة ، وجعل تحته جنودا من الملائكة لا يحصي عددهم إلا الله تعالى وهؤلاء الملائكة أقرب الملائكة إلى الله تعالى وأخضعهم له وهم أعظم من حملة العرش والطائفين حوله ، وقد روي عن الصادق عليه السلام أن الله خلق العرش وجعل له ثلاثمائة وستين ألف ركن وخلق من كل ركن ثلاثمائة وستين ألف ملك أصغرهم لو أمر بأن يبلع السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهن كانت في فمه كالخردلة في فلاة وسيعة ، ثم أمرهم بأن يحملوا العرش ما قدروا عليه فخلق من كل ركن ضعف ما كان سابقا فلم يقدروا أيضا على حمل العرش فخلق عند كل ركن عشرة أضعاف ما كانوا هذا ملخص معنى الحديث ،

والملائكة الذين تحت الملك الموكل بالصلاة أكثرهم عددا وأجنحة وأقواهم قوة وأشدهم عبادة وأعظمهم من الله قربا ومكانة .

ولما نزلت الصلاة على مقتضى قوله تعالى ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ (١) نزلت إلى بلدة بسم الله الرحمن الرحيم وهي قبة دخلها النبي صلى الله عليه وآله ليلة المعراج ولها أربعة أركان يجري فيها أربعة أنهار الركن الأول يجري منه الماء الغير الآسن من الميم من ألف البسملة والركن الثاني يجري منه اللبن الذي لم يتغير طعمه من الهاء في البسملة والركن الثالث يجري منه الخمر من ميم الرحمن والركن الرابع يجري منه العسل المصفى من ميم الرحيم ، والملك الموكل بتلك البلدة اسمه وحدائيل ، فلما نزلت الصلاة إلى هذه البلدة الطيبة تلقوها الملائكة الموكلين بها وكانت نورا ذائبا فلما انجمدت وتفصلت على أربعة أركان فركن التكبير بإزاء الركن الرابع فمن أقام بحدوده وأقبل على الله بكله سقاه الله من العسل المصفى فيصفو ظاهره ويكون محبوبا لأولياء الله وشفاء لكل داء للناس ، وركن القيام بإزاء الركن الثالث فمن قام بحدوده وشرائطه سقاه الله من ذلك الشراب ، وركن الركوع

---

(١) الحجر ٢١

بإزاء الركن الثاني فمن قام بحدوده وشرائطه سقاه الله من ذلك اللبن بكل أحواله ومراتبه ومقاماته ودرجاته المترتبة المتنزلة ، وركن السجود بإزاء الركن الأول وهو بإزاء الركن الأبيض الذي منه البياض ومنه ضوء النهار ، والنية إنما هي روح مقرونة بذات الصلاة بل هي الأصل الواحد وهذه الأربعة تفاصيلها وظهوراتها ، فالنية للصلاة كالروح لإنسان فليس بشرط خارج ولا هي بجزء داخل ، والروح ليس داخلا في البدن كدخول شيء في شيء ولا خارج عنه كخروج شيء من شيء ، فليست النية في صقع الأركان الأربعة ولا في مرتبتها بل لها الرتبة العليا والمرتبة القصوى ، ولذا قلنا أنها بسيطة وليست بمركبة وهي العلة الموجبة الظاهرة بنورها وبذاتها وبصفاتها الذاتية في كل مراتب المعلول الاصطلاحي فافهم .

ولما كانت هذه الأركان هي الأصول الأولية والمقامات الذاتية التي لا تتم حقيقة الممكن إلا بها كانت تبطل الصلاة إذا خل بركن منها سهوا كان أو عمدا فإن الله سبحانه خلق كل شيء من زوجين وهذه هي الأربعة والهيئة التركيبية الخامسة ، وكذلك التوحيد الذي هو أصل سبب إيجاد الإمكان والأكوان إنما ظهرت في مقامات التفصيل في خمس مقامات بعدد قوى الهاء في هو ، وكل ركن من هذه الأركان الخمسة مظهر ظهور من ظهورات التوحيد ،

فإذا فقد مظهر من تلك المظاهر بطلت الصلاة لأنها مظهر الكل ، ولذا كانت عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها .

ثم أنزلها الله سبحانه من تلك البلدة المباركة إلى العرش الثاني ثم منه إلى الكرسي ففصلها هناك أي بباطن الكرسي في كتاب الأبرار في عليين إلى هذه الحدود المشخصة كما يأتي الإشارة إلى بيان سر تلك الخصوصيات إجمالا ، ولما أنها أمر عظيم وخطب جسيم وبها نجاة الخلائق وهي ظاهر صفات الخالق وباطنها ، علة الذوات والحقائق ، أراد الله سبحانه أن يبين للخلق عظيم منزلتها ورفيع شأنها ومرتبتها ، فأقام الخلائق في أرض الذر في البدء كما أنها أرض عالم المحشر في العود ، ثم عرضها على الخلائق على جهة التكليف ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإلى هذا المعنى ، أشار الحق سبحانه على أحد التفاسير بقوله عز من قائل﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ (١) فالأمانة هي الصلاة كما ورد عنهم عليهم السلام باطنا وظاهرا ، والإنسان

---

(١) الأحزاب

هم المؤمنون الذين أدوا حقها وراعوا حرمتها ، ويحتمل أن يكون المضيعين لحقها وحرمتها ، أما الأول فإن من عرف حقها وأحبها بقلبه وأتاها بجميع جوارحه وصافي طويته وخالص سريرته أشرق الله في قلبه نور اليقين وفي صدره نور العلم وفي فؤاده نور المحبة وأناره الله بالأنوار القدسية وأفاض عليه من العلوم الدينية ، فصار إليه سبحانه متوجها بكله وانغمس في بحر لاهوتيته بشهود لبه وقلت منه الظلمات وذهب عنه درن السيئات فصار نورا لامعا وبدرا ساطعا من الذين قال الله سبحانه في حقهم ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (١) والناس أهل الهوى وطلبة الدنيا في ظلمة دهماء وفي لجة عمياء يعمهون وفي غيهم وضلالتهم يترددون فلا يلتفتون إلى أولئك الأخيار ويسعون في إطفاء تلك الأنوار جهلا منهم بمقامهم ، ونسيانا لرتبتهم بسوء حظهم وقصور معرفتهم ، فأولئك المصلون الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون هم المظلومون المجهول قدرهم لأنهم أنوار قدسية إلهية بين ظهراني الخلق وهم عنهم غافلون وعن طريق رشدهم معرضون ، وهم رضوان الله عليهم على بصيرة من

---

(١) البقرة ٢٥٧

دينهم وهداية من ربهم قد ملئت قلوبهم نورا وأبصارهم نورا وحواسهم نورا فهم مع الله في شغل عن الناس .

وأما الثاني فإن الذين لم يراعوا حرمة الصلاة وضيعوها ولم يحافظوا على أوقاتها وأهملوها ولا اعتنوا بشأنها وعظيم قدرها عند الله فهم الظلوم الجهول أي الظالمون الجاهلون الذين ظلموا أنفسهم وتركوا ما به نجاتهم وسلكوا ما به هلاكهم ونسوا حظهم مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء .

فلما حمل الإنسان الأمانة وقبلها ، فمنهم من أضمر محافظتها ومنهم من أضمر ضياعها على ما فصلناه لك ، ثم أنزل الله سبحانه إياها إلى هذه الدنيا فكانت الصلاة بنورها تشرق على أهل السموات والأرضين ، إلى أن أهبط الله سبحانه آدم عليه السلام إلى الأرض من العليين ، فكانت به شامة سوداء عرضته للإدبار والنزول من قرنه إلى قدمه فطال حزنه وبكاؤه على ما ظهر به ، فأتاه جبرئيل عليه السلام فقال له ما يبكيك ، فقال : من هذه الشامة التي ظهرت بي ، قال : قم يا آدم فصل هذا وقت الصلاة الأولى فصلى فانحطت الشامة إلى عنقه ، فجاء في الصلاة الثانية فقال : قم وصل يا آدم فهذا وقت الصلاة الثانية فقام فصلى فانحطت الشامة إلى سرته ، فجاء في الصلاة الثالثة فقال : يا آدم قم فصل فهذا وقت الصلاة

الثالثة فقام فصلى فانحطت الشامة إلى ركبته ، فجاء في الصلاة الرابعة فقال : يا آدم قم فصل فهذا وقت الصلاة الرابعة فقام فصلى فانحطت الشامة إلى قدميه ، فجاء في الصلاة الخامسة فقال : يا آدم قم فصل فهذا وقت الصلاة الخامسة فقام فصلى فخرج منها فحمد الله وأثنى عليه ، فقال جبرئيل عليه السلام : يا آدم مثل ولدك في هذه الصلاة كمثلك في هذه الشامة من صلى من ولدك في كل يوم وليلة خمس صلوات خرج من ذنوبه كما خرجت من هذه الشامة .

ولما كانت الصلاة هي توجه الكينونة من الظاهر والباطن والسر والعلانية إلى الله سبحانه كان لها الفضل على كل الأعمال ، سيما إذا دخل فيها العبد بكمال الإقبال كما في الفقيه عن الصادق عليه السلام ((أحب الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة وهي آخر وصايا الأنبياء ، فما أحسن من الرجل أن يغتسل أو يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يتنحى حيث لا يراه أنيس فيشرف الله عز وجل عليه وهو راكع أو ساجد ، وإن العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس يا ويلاه أطاعوه وعصيت وسجدوا وأبيت)) (١) ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله ((مثل الصلاة

---

(١) الفقيه ١ / ٢١٠

مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء ، وإذا نكس العمود لم ينفع وتد ولا طنب ولا غشاء)) (١) ، وقال عليه السلام ((إنما مثل الصلاة فيكم كمثل السرى أي النهر على باب أحدكم يخرج إليه في اليوم والليلة يغتسل فيه خمس مرات فلم يبق الدرن على الغاسل خمس مرات ولم تبق الذنوب مع الصلاة خمس مرات)) (٢) ،وفيه عن الصادق عليه السلام أنه قال ((من قبل الله منه صلاة واحدة لم يعذبه ومن قبل الله له حسنة لم يعذبه)) (٣) ، وقال عليه السلام ((كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : من حبس نفسه على صلاة فريضة ينتظر وقتها فصلاها في أول وقتها فأتم ركوعها وسجودها وخشوعها ثم مجد الله عز وجل وعظمه وحمده حتى يدخل وقت صلاة أخرى لم يلغ بينهما كتب الله له كأجر الحاج والمعتمر وكان من أهل عليين)) (٤) .

فظهر لك مما لوحنا وأشرنا أن الصلاة على طبق الكينونة والحقائق والذوات فهي جامعة لجميع مقامات العبودية المطلقة وهي مقام أول الفرق في قوله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (٥) وهي أول ما يفرض على العاقل حين عرف نفسه عرف ربه ، ولا تتوقف

---

(١)،(٢)،(٣)،(٤) الفقيه ١ / ٣١١ (٥) الفاتحة ٤

على شيء سوى هذه المعرفة ولا ترتفع لحال من الأحوال بخلاف سائر العبادات كالحج يرتفع عند عدم الاستطاعة ويكتفى به مرة واحدة ، والزكاة عند عدم المال ، والصوم عند عدم الاقتدار ، والجهاد عند العمى والعرج والمرض وهكذا غيرها بخلاف الصلاة فإنها ثابتة مستقرة ما دامت النفس والمعرفة وإن كانت أوضاعها تتغير بحسب الموضوعات إلا أنها لا ترتفع أصلا ، وما قالوا في فاقد الطهورين كما هو أحد الأقوال في المسألة فالأقوى والأصح وجوب الصلاة عليه والإعادة إذا وجد الطهور .

وأما القول في الشرائط والأجزاء ، فاعلم أن شرائطها كثيرة وآدابها عظيمة أكثر من أن تحصى إلا أن الشارع عليه السلام أظهر للخلق أصول تلك الشرائط وأركانها تسهيلا عليهم ورعاية لما بهم من الضعف والفتور ، لعدم نضج الكينونات وعدم ظهور سر الصلوات الزاكيات المباركات الطيبات إلا ما قد ذكرنا أن الصلاة هي حدود الولاية وهيئاتها وصفاتها ، وجهة توجه الولي المطلق إلى الله سبحانه بكل جهاته واعتباراته وأحواله وهي لا تحصى ولا تتناهى ، وهي مقام اجتماع ظهور الربوبية المطلقة الظاهرة للمخلوقين لا التي هي الذات البحت فإنها متعالية عن الاجتماع والاقتران وحقيقة العبودية المطلقة كما هو مقتضى قوله (وأشهد

أن محمدا عبده ورسوله) فأثبت بالأولى حقيقة العبودية وبالثانية تمام ظهور الربوبية ، لأن الرسول لا يكون كذلك إلا أن يكون عنده آثار الربوبية الإلهية ليكون بها الواسطة والسفير وبها يهدي الخلائق إلى سواء الطريق وذلك هو الكتاب الذي يجعله عنده كما قال تعالى ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (١) ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) وقد ثبت أن الوحي التشريعي مطابق للوحي التكويني والكتابان متطابقان ، فكما أن الكتاب المنزل عليه صلى الله عليه وآله هو الأكبر الجامع للكل لقوله تعالى في الحديث القدسي ((لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن)) (٣) فالصلاة حيث كانت معراج المؤمن من الوصال كما يشهد عليه اسمها ، والركوع والسجود والقيام هي الخضوع والتذلل والابتهال فهي إذن واقفة بين التطنجين في البرزخ بين العالمين والناظر في المغربين والمشرقين وها أنا أشير إلى بعض شرائطها ومقدماتها بالإجمال .

---

(١) القدر ١ (٢) الشورى ٥٢ (٣) البحار ٥٥ / ٣٩ ح ٦١

المقدمة الأولى : الطهارة

أما الطهارة فاعلم أن العبد لما كان في حال الصلاة متوجها إلى جلال العزة ونور العظمة وجمال القدس والبهاء والنور والكبرياء وتلك الساحة طيبة طاهرة منزهة عن جميع شوائب النقصان ودرن القصور والإمكان فوجب أن يكون المصلي طاهرا حتى يقبل إليه الملأ الأعلى والكروبيين ، وتتوجه إليه الملائكة المقربين ، وإلا كان بعيدا عن حرم الكبرياء ومبغوضا ومنكرا عند الملأ الأعلى ، فلا تشمله الرحمة بل يستوجب النقمة ، ولأن النجاسة إنما حصلت من كثافة الإدبار الناشئ عن مشاهدة الأغيار ، فإذا صحب المصلي حين التوجه والمسير إليه كدورة الأغيار أصابته الرحمة الواسعة فرمق به إلى النار ألا ترى كيف يظهر نتن الجيفة وعطر الورد وسائر الأزهار عند مقابلة الشمس فالشمس إشراقها واحد وتربي القوابل السفلية على حسب ما فيها من الصفاء والكدورات فتربي السكر والحنظل بإشراق واحد فافهم ، ولأن المتوجه حين التوجه وجه المتوجه إليه فوجب الطهارة لبيان أنه سبحانه مطهر من كل الصفات الإمكانية واللوازم الخلقية فالطهارة إشارة إلى عصمة الولي عليه السلام كما قال عز وجل ﴿ إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

ويطهركم تطهيرا ﴾ (١) فهم الذين طهروا سرهم وحقيقتهم وسائر مراتبهم الظاهرية والباطنية عن لوث الأغيار وكثافة الأكدار وتوجهوا إلى الله سبحانه بكل كينونتهم بالعشي والإبكار فتطهير الكينونة شرط للتوجه لا جزء لأن الطهارة إزالة الأمراض والأوساخ الظاهرية والباطنية ، وتلك الأوساخ إنما هي بالعرض فإزالتها مقدمة لا ذاتية فافهم .

أسرار المطهرات

والمطهرات عشرة في مقابلة النجاسات لأن الله سبحانه خلق الخلق من عشر قبضات وهي قبضة القلب والصدر والعقل والعلم والوهم والوجود أي المادة والخيال والفكر والحياة والحس فكل قبضة حين التوجه إلى الله سبحانه والخضوع والانقياد لجلال عظمته مطهرة وطاهرة لأنه نور محض فإشراق جلال عظمته يطهر كل ما يقابله وينقيه فيظهر فيه مثاله كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ((وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله)) (٢) وكل قبضة حين الإعراض عنه تعالى نجاسة ومتنجسة إذ لا واسطة بين

---

(١) الأحزاب ٣٣ (٢) البحار ٤٠ / ١٦٥ ح ٥٤

الإقبال والإدبار والطهارة والنجاسة وهذا معلوم .

وكما أن المطهرات متفاوتة في الشدة والضعف فكذلك النجاسات ، وذلك باعتبار وقوف الخلق في مقام كل قبضة ، لأن الخلق في القوس الصعودي لهم وقوف في مقام من المقامات على حسب أعمالهم إما صاعدون أو نازلون ، فما جمع المقامات الصعودية كلها علما وعملا إلا الكامل المطلق ، كما أنه ما جمع المقامات النازلة السفلية كلها علما وعملا إلا الشقي المطلق أبو الدواهي أبو الشرور ، والمراد بجميع المقامات ظهورها ، وإلا فهي مجتمعة في كل شيء ، فمنهم من هو واقف في مقام القلب ، ومنهم من هو واقف في مقام الصدر ، ومنهم من هو واقف في مقام العقل ، ومنهم من هو واقف في مقام الوهم ، ومنهم من هو واقف في مقام المادة ، ومنهم من هو واقف في مقام الخيال ، ومنهم من هو واقف في مقام الفكر ، ومنهم من هو واقف في مقام الحياة ، ومنهم من هو واقف في مقام الجسد ، فطهارة كل مقام على حسب ما يقتضيه ذلك المقام من الشدة والضعف ، وقد أشار إلى نوع ما ذكرنا مولانا الصادق عليه السلام في قوله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم

ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾ (١) قال عليه السلام ما معناه (السابق بالخيرات هو الذي يحوم حول ربه ، والمقتصد هو الذي يحوم حول قلبه ، والظالم هو الذي يحوم حول نفسه) ، وهذه المقامات المذكورة من حيث الطهارة لما تنزلوا من الخزائن الغيبية إلى الهياكل الجسدية ظهرت على هذه المطهرات المعروفة في هذا العالم الجسماني .

أسرار المياه

فالماء الذي به حياة كل شيء هو من القلب الذي به حياة الجسد والروح كله وهو النافذ في كل الأعضاء والجوارح والعضلات ، فالماء الجاري وماء المطر وماء البئر آية الخصيصين من الشيعة ودليل لهم ، أي أخص الخواص وهم الأعلون على تفاوت مقاماتهم ، فالأوسط الأعلى منهم لأنه الفيض الأقدس من المبدأ الأعلى دار الورود والنزول عليهم حتى صاروا نفس ذلك الفيض النازل للمتعبدين والمتعلمين ، والأول الأوسط منهم لكونهم حملة علوم حقائق الأشياء حسب ما أراهم الله سبحانه في الآفاق

---

(١) فاطر ٣٢

والأنفس فإنها جارية تجري من تحت جبـل الأزل إلى مـا لا نهايـة مـن المبـدأ ، والفـرق بـين الأول والثـاني أن الأول عندهـــم مـــن أســـرار التوحيد والأسماء الصفات والآخرين عندهم أسرار حقائق الكائنـات من قول النبي صلى الله عليه وآله ((اللّهم أرني الأشـياء كمـا هـي عليه)) ، مع اشـتراك الفريقـين مـن الاسـتمداد والجريـان مـن المبـدأ فافهم ، والأخير الأسفل منهم لأنهم أصحاب العقل المرتفع تنبع لهـم العلـوم مـن القلـب بـإذن اللّـه سبحانه وتوفيقـه وهـؤلاء الذيـن لا يتنجسون بملاقاة نجاسة كيد الشيطان ومكره ، قال عـز وجـل ﴿ إن الذيـن اتقـوا إذا مسـهم طـائف مـن الشـيطان تذكـروا فـإذا هـم مبصرون ﴾ (١) ، وقال تعالى ﴿ إنما النجـوى مـن الشـيطان ليحـزن الذين آمنوا وليس بضـارهم شيئا إلا بـإذن اللّـه ﴾ (٢) ، وذلـك إذا اعتقد حقيقة مكر الشيطان فهنالك استولت النجاسة على الأوصاف الثلاثة أو واحد فيتنجس حينئذ ، ويحتمل أن تكون الميـاه الثلاثـة آيـة ودليلا للإمام عليه السلام بحسب مقاماته فهم الهاطل مـن سمـاء المجـد والعزة والعظمة ، وهم النهر الجاري من اللانهاية إلى اللانهاية ، وهم

---

(١) الأعراف ٢٠١ (٢) المجادلة ١٠

البئر المعطلة والقصر المشيد ، كما قال الشاعر :

بئر معطلة وقصر مشرف مثل لآل محمد مستطرف
فالفقر مجدهم الذي لا يرتقى والبئر علمهم الذي لا ينتزف

فحينئذ لا يجوز فرض استيلاء النجاسة على أحد أوصاف المياه الثلاثة على هذا التقدير إلا على ضرب من التأويل بملاحظة أيام التقية وظهور دولة الظلمة الفسقة ، وباقي المطهرات وجه من وجوههم عليهم السلام من الواقفين في مقام من مقامات وجودهم وتكوينهم ، وتفصيل الأمر في هذا المقام يفضي إلى التطويل .

وأما النجاسات أضداد المطهرات حرفا بحرف على ما ذكرت لك في كل مقام وكل مرتبة .

الكر

والكر هو آية الخواص من الشيعة وهم الذين قد نفذ الماء الطهور الذي هو العلم والمعرفة والإيمان في مقاماتهم الثلاثة المعبر عنها بالطول والعرض والعمق ، وهي عالم الجبروت أي العقول ، وعالم الملكوت أي النفوس ، وعالم الملك أي الأجسام ، ويعتبر في كل

من الأحوال الثلاثة ثلاثة أشبار كما هو المروي في صحيحة إسماعيل بن جابر وهي أقوى الروايات سندا واعتبارا ، وأما روايات النصف فمحمولة على الاستحباب لتحصل القدر الواجب على القدر المتيقن ، وإلا لزم طرح الروايات الصحيحة المعتبرة مع عدم داع إليه من عقل أو إجماع أو نص قاطع أو أمثال ذلك ، وليس هذا المقام مقام أمثال هذه الكلمات ، فالثلاثة الأشبار إشارة إلى المقامات الثلاثة التي في كل مقام وهي أبوة الأعلى والأوسط والأسفل في كل من هذه العوالم الثلاثة المذكورة ، فإذا استولى ماء الفيض الإلهي ونور المعرفة على كل هذه المراتب المجتمعة في الشخص الإنساني فقد بلغ حد الكرية فلا ينجس بملاقاة كيد الشيطان ومكره وخدعه وأمانيه وغروره إلا أن يستولي عليه الشيطان فينجسه كما قال تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ (١) نستجير بالله من ذلك ، وهذا الذي ذكرنا هو سر الكر وحقيقته بحسب المساحة .

وأما بحسب الوزن فهو ألف ومائتا رطل بالعراقي فإن الله

---

(١) الأعراف ١٧٥

سبحانه خلق الخلق من عشر قبضات كما تقدم فإذا لوحظت نسبة تلك القبضات بعضها مع بعض كانت مائة وهي قد ظهرت في ستة أطوار عالم الغيب وهو عالم الفؤاد والعقل العقل المرتفع والعقل المستوي والعقل المنخفض والروح والنفس في ستة أطوار ، وعالم الشهادة وهو الطبيعة والمادة والمثال والجسم والجسد والعرض والمجموع ألف ومائتان والرطل أربعة أمداد وهي العناصر والطبائع والأركان والقوى الأربعة النار والهواء والماء والتراب والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة والمرة الصفراء والدم والبلغم والمرة السوداء الجاذبة والهاضمة والدافعة والماسكة فإذا ظهر لك الذي هو نور المعرفة في هذه الحدود والمقادير واستقر فهو الكر الذي لا ينجسه شيء إلا عند الاستيلاء كما ذكرنا فافهم .

الماء القليل

والماء القليل هو مقام عموم الشيعة وضعفائهم فإنهم إذا أصابهم كيد من مكايد الشيطان هووا ولم يعرفوا وجه المخلص فتنجسوا ونجسوا ، وما قبل الإصابة فلا ، فهم على حكم الطهارة لأنهم على الحق وعلى صراط مستقيم ، وإن كان ماء معرفتهم قليلا .

الماء المضاف

وأما الماء المضاف فهم غير المخلصين وهم عصاة الشيعة فهم طاهرون ولكنهم غير مطهرين لما بهم من درن المعاصي والسيئات والشكوك والشبهات .

وأما المباشرة فهي العلوم التي تأتي إليك من غيرك فطهارتها ونجاستها تابعتان للحيوان الذي باشرها فإن كان من أهل الحق فحق وإلا فباطل كما قال مولانا الصادق عليه السلام ((من استمع إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدي عن الله فقد عبد الله وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان)) (١) فافهم .

ثم إن النجاسة إذا كانت في ظاهر الجسد والثوب وغيرها من الأمور المحسوسة بالبصر الظاهري واللمس الظاهري فهي الخبث ولا تحتاج إزالتها إلى النية لأن المطلوب الذي هو الإزالة ورفع النجاسة بالكلية يحصل بالغسل فلا يحتاج حينئذ إلى معين خارجي لتلاقي المعنيين عيانا وقوة الماء وعدم عينية النجاسة .

وإن كانت النجاسة في باطن الجسد وداخله الخارجة بالمساحات اللاحقة إلى الجسد أي ظاهرة فهي المسميات عند أهل الشرع

---

(١) الكافي ٦ / ٤٣٤ ح ٢٤

بالحدث فيحتاج إزالتها إلى الماء المطلق ليجريه على الجسد فيغسل داخله فيطهر كما طهر ظاهره ، ولما كانت المسامات البدنية ومنافذها مضيقة لا يصل الماء إلى الباطن إلا شيئا يسيرا قليلا ولذا يستحب في تلك الأعضاء أن يكثر النفوذ ، فلا يحصل الغسل المطلوب من إزالة العين ولذا جعل الشارع عليه السلام للماء معينا على الإزالة وهو نية التقرب إلى اللّه تعالى والإخلاص في عبادته وطاعته ، فإن هذا القصد إذا اقترن بالماء يقويه ويقوي تأثيره ، وإن كان قليلا يجب الكم والوزن فيكون حينئذ شأنه شأن الذي ينفذ قيراطه في قنطار من النحاس فيطهر فيجعله ذهبا صافيا خالصا ، كما أن الرجل إذا أخلص في محبة اللّه وطاعته يتقوى بحيث يهزم الصفوف ولو كانت بكثرة من الألوف لما به من القوة الإلهية ، فهذه الطهارة التي تحتاج إلى النية هي الطهارة عن الحدث وهي الطهارة إذا أطلقت عند الفقهاء والإطلاق حقيقة شرعية بل لغوية من باب التشكيك ، وجهل أهل اللغة من باب الجهل بالموضوع لا بأصل الوضع وإلا فالوضع واحد ، وليس المقام مقام استيفاء الكلام وقد ذكرنا مشروحا في أكثر مباحثاتنا .

أسرار النجاسات

ثم إن النجاسة كلما كان نضجها وطبخها أعظم وأشد وصفاتها أقوى كانت نجاستها أغلظ فتأثيرها أشد وأكثر ، وأصل النجاسات الجسمانية وحقيقتها ما أعرض عن المبدأ بإعراضه عنه ، فإن كان الإعراض قبل النضج والاعتدال لم يكن نجسا وسبيله حينئذ سبيل الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم أو الرشد بالتمييز إذا صدرت عنهم المعاصي وكلمات الكفر فإنه لا يحكم عليهم بالنجاسة والكفر ، وذلك كالرطوبات الفضيلية العرضية من المواد البلغمية كالقيح ، وإن كان من المواد الأخرى كالمذي والوذي والودي وأمثالها مما يخرج من الإنسان .

وإن كان الإعراض بعد النضج والاعتدال فإن كان في النضج الأول والهضم الأول كالغائط على الخلاف مع الأطباء في البول فإنه عندهم من الهضم الثاني فيحكم عليه بالنجاسة فعند الخروج والدفع يتلوث باطن الجسد كما يتلوث ظاهر الجسد بعد الخروج فلا بد من تطهيرهما ، ولما كان تأثيرها لم يكن قويا حتى يؤثر في كل الجسد أي باطنه لم يحتج إلى غسل كل الجسد ، والريح الخارج من السبيلين يؤثر في باطن الجسد بخلاف ظاهره لمكان اليبوسة ، وشرح حقيقة هذه الأحوال وذكر الشبهات والجواب عنها يحتاج

إلى بسط عظيم في المقال وليس لي الآن المجال إلا أن من له اطلاع على كتب الأطباء يعرف حقيقة الأمر فيما أقول بالجملة .

وسبيل هذه النجاسات سبيل من عصى وكفر من العوام والجهال والحمقاء بعد البلوغ والعقل ، فإنهم وإن كانوا ممكونين بالكفر والنجاسة والمؤاخذة والعقوبة لكنه يشتد عليهم في ذلك ولا يلامون كثيرا كما هو المعروف عن العوام والخواص ، انظر كيف يعظم على الناس معصية العالم ولو بترك الأولى ولا يعظم عليهم معصية الجاهل ولو كانت كبيرة عظيمة خطيرة .

وإن كان الإعراض في النضج الثاني والهضم الثاني الذي ينقلب به الغذاء دما كالحيض والنفاس فتكون نجاسته أشد وأغلظ وتأثيرها أعظم وأقوى ، فهو وإن كان له مجرى واحد إلا أن نتنه وخبثه يصل إلى الجسد كله ، ولكنه في طريقه لما كان يمر على مخرج البول أو أنه يصحب معه شيئا من البول كان معه سببان ، سبب يقتضي غسل كل البدن وسبب يقتضي غسل بعضه ولا يكفي أحدهما عن الآخر ، لأن كل واحد منهما في جهة غير الأخرى ، كالتوبة عن ذنب لا يغسل درن الذنب الآخر فيحتاج إلى توبة أخرى .

وأما الاستحاضة فلما كانت تحدث عن استرخاء في عروق الرحم وليست كالحيض في الحرارة والنتن والسواد ، لأن الحيض وجه الماهية الخبيثة المدبرة عن نور الحق ، ولما كانت هذه الجهة في النساء غالبة ظهرت آثارها في العالم الجسماني فيهن ، وأما المعصومة الطيبة الطاهرة التي طهر اللّه سبحانه باطنها وظاهرها وسرها وعلانيتها بما اقتضته كينونتها من عدم الإعراض عن اللّه سبحانه ولو بترك الأولى فهي منزهة عن الحيض كما كانت سيدتنا ومولاتنا الزهراء على أبيها وبعلها وبنيها وعليها آلاف التحية والثناء ، وكانت مريم عليها السلام كذلك لأنها مثالها ودليلها وآيتها في الزمان المتقدم ، وأما حواء فلما تركت الأولى وكانت هي الداعية لآدم إلى ذلك رأت الدم ، وروي أن أول دم وقع على وجه الأرض دم حواء لما أن حاضت .

والحاصل أن دم الاستحاضة لما كانت البرودة والرطوبة فيها غالبة فتكون نجاستها خفيفة بالنسبة إلى الحيض ، فهي من النضج برزخ بين البول والحيض فلا ترفع بها الصلاة ، لكنها إذا كانت قليلة يجري عليها حكم البول ويزاد عليه بأن تتوضأ لكل صلاة لأن نجاستها أقوى ، وإن كانت متوسطة يزاد على الكل غسل في الصبح ، وإن كانت كثيرة فعليها ثلاثة أغسال وتصلي مع الوضوء ، وذلك

حكم البرزخ فكلما قرب إلى البول جرى عليه حكمه وكلما قرب إلى الحيض اشتدت النجاسة وجرى عليه حكم الحيض لا كله وإلا كان حيضا ، والنفاس دم الحيض بعينه فيخرج مع الولد ما فضل غذاؤه من دم الحيض .

وسبيل هذه النجاسات سبيل من عصى أو كفر من العلماء العارفين من الخواص فإن عذابهم أشد وعقوبتهم أعظم نستجير بالله من ذلك ، قال تعالى ﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا﴾ (١) وذلك لزيادة النضج والاعتدال في الروح والجسم الحامل .

وإن كان الإعراض في الهضم الثالث والرابع كالمني فتكون نجاسته أقوى وأغلظ ، ولما كان الداعي والباعث لخروج المني استلذاذ النفس لكل البدن وإقبال كل الجسد إلى الشهوة واللذة فيتحرك الكل وتتقوى الحرارة الغريزية وتسري في كل البدن فتدفع وتسيل به الرطوبات الأصلية ، لذا يضعف البدن ويفتر عند خروجه ، ويختلف قوام المني في الرقة والغلظة ، ولونه في البياض والصفرة والحمرة بحسب قلة الرطوبة في المزاج وكثرتها ، ذكر تفاصيل هذه

---

(١) الأحزاب ٣٠

الأحكام لا يناسب المقام ، ولما كان الانبعاث في كل البدن وخروج المني من كل البدن قال عليه السلام ((تحت كل شعرة جنابة)) (١) ويحتاج كل جزء إلى الغسل ، ولذا قلنا بجواز التبعيض في غسل الجنابة بمعنى أن كل جزء أصابه الماء طاهر تجري عليه أحكام ما إذا غسل الكل مثل مس المصحف وإدخاله في المسجد ومس جسد الإمام وأمثالها .

وقد قلنا سابقا أن مدار الطهارة والنجاسة إعراض المبدأ الأعلى عن الأسفل الأدنى في كل مقام بحسب ذلك المقام ، فالروح الحيوانية في الجسم الحيواني والقالب العنصري ما دامت ملتفتة إليه وناظرة ومديرة له بوجهها التي هي الحرارة الغريزية ، فالبدن حي طاهر ما لم تكن الروح معرضة عن الحق سبحانه ، كالكلب والخنزير الكافر ، فإذا عرضت الروح الحيوانية على البدن لفساد فيه بكله أو بجزئه كالجزء المبان من الحي وكالدم المسفوح الخارج قليلا كان أو كثيرا وأمثال ذلك ، سواء كان الإعراض كليا أو جزئيا يتنجس البدن إن كان في الأصل أي عالم الذر حين قوله تعالى ﴿ ألست بربكم ﴾ (٢) طاهر ، وإلا فهو نجس العين كالكافر وأمثاله ، فإن كان

---

(١) البحار ٨١ / ٥١ ح ٢٣ (٢) الأعراف ١٧٢

الإعراض كليا يقع ميتا فتخرج نطفته التي خلق منها ، ولما كان الإعراض عن كل جزء من أجزاء البدن سرت النجاسة في كل جزء من أجزائها ، وتلك النطفة هي الحرارة الغريزية ، والمني وجه لها وحامل لأثرها ، فإذا وجب الغسل للحامل والفرع فلخروج الأصل بالطريق الأولى ، لأنا قلنا أن الغسل تطهير للبدن من حيث الباطن والظاهر .

ولما كانت الروح على ثلاثة أقسام ، روح حيواني وروح جسماني مقره القلب اللحم الصنوبري ، وروح نفساني مقره الدماغ به الإدراك والحواس ، وروح طبيعي مقره الكبد وبه النمو والذبول ، وكل هذه الثلاثة تخرج من البدن وتبقى متعلقة نجسة فاسدة ، وجب على الميت ثلاثة أغسال للتنقية التامة والنظافة المطلقة ، فغسل السدر هو الأول من قبل الروح الطبيعي ، وغسل الكافور وهو الثاني من قبل الروح النفساني لأن الدماغ بارد رطب فلما فارقت الروح غلبت الرطوبة الغريبة وكانت سبب تناثر الأعضاء والجوارح وتقطعها واستلزمت الروائح المنتنة الخبيثة فجعل الكافور لما فيه من قوة البرودة الموجبة للإنجماد وقوة اليبوسة الموجبة للإمساك وعدم التناثر سريعا وقوة الرائحة الشديدة لإزالة الروائح الخبيثة التي في الميت لأجل مفارقة الروح ، وغسل ماء القراح وهو

الثالث من قبل الروح الحيواني الذي في القلب وهو الجامع للكل لإزالة ما في الميت من لطخ .

فورق السدر ورغوته وأجزاء الكافور ووسخه ، ولا يكون طيبا طاهرا من جميع الأوساخ ، فغسل السدر بإزاء الطهور الملكي ، والكافور بإزاء الطهور الملكوتي ، وغسل القراح بإزاء الطهور الجبروتي ، فهذه العوالم الثلاثة التي ظهرت في القوى الثلاثة ، وذكر تفصيل ذلك يحتاج إلى بسط كلمات وتمهيد مقدمات لا يسعني الآن شرحها وبيانها ، ومن المشافهة والمواجهة ربما يحظى ببعض المطلوب .

ولما كان الميت للطافة بدنه ورقة قواه وأجزائه وشدة نجاسته وفضلاته كان سريع النفوذ وشديد التأثير في غيره فلا موت حتى تنفذ برودة جسده في جميع المسامات والمنافذ فيتأثر البدن والجسد بذلك وكذلك الروح لما بينهما من شدة التنافر والمضادة فوجب عليه الغسل لإزالة ذلك الدرن الساري في كل أقطار البدن ولا كذلك في باقي الحيوانات لأن نجاسة كل شيء على حسب شرافته فكلما كان أشرف كان المعرض عنه أنجس ولذا كان صنما قريش أنجس الخلائق وأرذلهم ، وأما بدن الإمام عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله فهو حي عند مفارقة الأرواح ولذا إذا أرادوا تحركوا

وتكلموا وكان النبي صلى الله عليه وآله ينقلب في السرير عند الغسل ، الحاصل أن أحوالهم لا تقاس بسائر الخلائق لأنهم وجه الله الباقي وسر الله الواقي فافهم .

ولما كانت البرودة والتبريد هي المطلوبة في الميت لأجل المناسبة ولما قلنا ، يكره غسل الميت بالماء الحار لأن الحرارة طبع الحياة وتكون أيضا سببا لتناثر الأعضاء ، ولما كانت برودة الكافور كيبوسته قوية ما حرم الغسل بالماء الحار لأنه لا يعارض برودة الكافور ويبوسته ، نعم يكره للتأثير المذكور وعدم المناسبة ، هذا إذا كان الإعراض كليا وإذا كان جزئيا عرضيا لفساد البدن كما إذا غلبت الرطوبات وتحركت بإشراق شمس الحرارة الغريزية ووصلت في صعودها إلى الدماغ وأصابتها البرودة فترى الميت انعقدت سحابا منع نفوذ الماء الحرارة في كل الجسد فيجتمع الروح في القلب ويضعف تأثيره في أقطار البدن فيقع البدن الظاهري والحواس الظاهرية ميتا ويتعطل عن الإدراك والإحساس وهذا هو النوم وحقيقته وهو قوله تعالى ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى

أجل مسمى ﴾ (١) فبرد البدن وذبل واظلمت أقطاره وتنجس بالإضافة ، ولما كانت هذه الظلمة ضعيفة غير قوية وتأثيرها كأصلها ضعيف لبقاء الروح والتفاته لا يلزم غسل كل الأعضاء والجوارح كالميت وخروج المني وأمثالهما فيكفي ببعض الأجزاء كما يأتي إنشاء الله تعالى ، وكذلك القول في المغمى عليه والشارب للمسكر المزيل للعقل وأمثال ذلك .

فظهر لك مما بينا أن النجاسة التي يجب إزالتها للصلاة والإقبال على الله سبحانه وتعالى على أنحاء وأنواع ، منها ما هي على ظاهر الجسد واللباس وهذا يغسل بالماء المطلق أو بغيره على ما هو عليه وهو التطهير عن نجاسة الخبث ، وهي المعاصي الصغيرة من باب اللمم التي تصيب المؤمن من جهة اللطخ العرضي الجزئي وهذا يكفر بالآلام والمحن الدنيوية ولا تبقى إلى البرزخ ولا إلى يوم القيامة وإن لم يتب عنها قال تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ (٢) ، ومنها ما هي على باطن الجسد لا على ظاهره ، وهذه على قسمين ، أحدهما ما هي

---

(١) الزمر ٤٢ (٢) النساء ٣١

سارية في كل الجسد والبدن وهذه هي الحدث الأكبر ويحتاج تطهيرها إلى غسل البدن كله مع نية القربة إلى اللّه تعالى لما ذكرنا وهذه هي المعاصي الكبيرة لا عن القلب أي القلب يكرهها ويراها قبيحة ، وهي لا تكفرها إلا الشدة الدنيوية ومحنتها بل لابد من التوبة القلبية أو عذاب البرزخ ولا يبقى إلى يوم القيامة وهذه النجاسات ستة أنوا ع فتكون الأغسال الواجبة ستة ، ولما كان الفعل لتطهير درن النجاسة الحاصلة من النفس الأمارة بالسوء وكانت النفس في المرأة ضعف ما كان في الرجل لأن اللّه سبحانه خلقها من جزء واحد من العقل وجزأين من النفس والرجل خلقه بالعكس على ما فصلنا في سائر مباحثاتنا وأجوبتنا اختصت المرأة بثلاثة أغسال لم يشاركها الرجل وهي بإزاء الجزء المختص بها من النفس ، وهي غسل الحيض والنفاس والاستحاضة ، وشاركت الرجل في الثلاثة الأخرى وهي الجنابة وغسل الميت وغسل مس الميت وهي بإزاء المشترك .

وإنما كانت الأغسال ستة لأنها تطهير مقتضى الماهية الخبيثة وحدودها ستة وهي الكم والكيف والجهة والرتبة والزمان والمكان ، فغسل الميت دليل لمعصية الكفر فإن الكافر ميت والمؤمن حي كما

قال الله تعالى ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا ﴾ (١) الآية ، وهو قلبه نجس وصدره نجس وجسمه نجس ثلاثة أغسال أي إدخال الإيمان ورسوخه في المقامات الثلاثة .

وغسل الجنابة التطهير عن الكبائر التي تستقل بها النفس كالحسد وحب الرئاسة وأمثالهما فله غسل واحد لأن قلبه طاهر وجسده ذاهل أو تابع .

وسائر الأغسال التطهير عن الكبائر التي للنفس والجسد له مدخلية كالزنا وشرب الخمر وأمثال ذلك ، فله الغسل للنفس لأنها الكبرى ، والوضوء للجسد لأنه الوجه الأضعف والجهة الصغرى ، فافهم إن كنت تفهم وإلا سلم تسلم .

وثانيهما ما ليست بسارية في كل الجسد أي باطنه لضعفها وضعف تأثيرها وهي الحدث الأصغر ولا يحتاج تطهيرها إلى غسل البدن كله بل يكفي غسل البعض ، ولا يرتفع الحدث الأكبر والأصغر إلا بالماء المطلق ، أما غير الماء فلعدم نفوذه إلى الباطن والمراد تطهيره لا الظاهر .

وأما الماء المضاف فللخلط والغلظة أيضا لا ينفذ في المسامات

---

(١) الأنعام ١٢٢

الضيقة ، وإذا نفذت أيضا كالأدهان الجادة أو غيرها لا يطهر لضعفه وتكدره بخلط الغير وبعده عن السماء ، لأن الماء كله قد نزل من السماء كالعيون والآبار والأنهار فافهم ، وما قال الصدوق من جواز الغسل بماء الورد فساقط عن الاعتبار عند أولي الأبصار ، والحديث المروي فإنما هو بما تفرد به محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبدالرحمن ، وكان الصدوق لا يعمل بمفرداته وفاقا لشيخه ابن الوليد ولكنه قد عمل هناك ولم يعمل به أحد من الأصحاب فالحديث وارد مورد التقية فيراد منه التأويل ولا يناسب الآن ذكر تأويله لارتياب الملحدين .

وأما الأسئار فيكره استعمالها في الوضوء والغسل للبعد المذكور وعدم بقائها على صرافة الطهارة ، والماء المشمس يورث البرص ، وما سوى ذلك فهو المختار المباح لرفع الحدث الأكبر والأصغر .

وإذا افتقد الماء ولم يوجد جعل بدله التمسح بالتراب لما فيه من كمال الخضوع والذلة والمسكنة للمعبود إذ ليس أدنى من التراب شيء فيكون جهة الخضوع والذلة ، والتمسح به أكثر وأعظم ولذا كان السجود أفضل أركان الصلاة أذكارا كما يأتي إنشاء الله تعالى ، وأما مسحه بالجبهة لأنها أشرف المواضع الظاهرة

في الإنسان ، وبيان أنه يسم ناصيته بوسم العبودية والذلة والافتقار ، وأن نواصي الخلق بيده يديرها حيث يشاء كما قال تعالى ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ (١) ولأن التراب الطيب ظل أرض الجرز والبلد الطيب الحامل لماء الوجود وهو علة التكوين والتكون وليس أقرب إلى الماشي سوى التراب ، فكان يذله البتة ويمسح به ناصيته لما عرفت ويديه من الزندين لأن اليد هي ظهور القدرة التامة ، فيذلل عنده تعالى أشرف أعضائه وأعظم ما فيه من القوة والقدرة والشوكة ، فمع هذا التذلل الزائد يسوغ له الدخول في الصلاة مع الحدث الباطني الذي أشرنا إليه ، فإذا وجد الماء وتمكن من استعماله وجب عليه الوضوء أو الغسل ولا يعيد الصلاة فافهم .

وأما خصوصية غسل الأعضاء المعلومة ومسحها في الوضوء فقد روى الصدوق في الفقيه أنه ((جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله مسائل فكان فيما سأله : أخبرنا يا محمد صلى الله عليه وآله لأي علة توضأ هذه الجوارح وهي أنظف المواضع الأربعة في الجسد ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : لما أن وسوس الشيطان إلى آدم عليه السلام دنى من الشجرة فنظر إليها

---

(١) هود ٥٦

فذهب ماء وجهه ، ثم قال : ومشى إليها وهي أول قدم مشت إلى الخطيئة ، ثم تناول بيده ما عليها فأكل فطار الحلي والحلل من جسده فوضع آدم يده على أم رأسه وبكى ، فلما تاب الله عز وجل عليه فرض الله عليه وعلى ذريته تطهير هذه الجوارح الأربعة ، فأمره الله بغسل الوجه لما نظر إلى الشجرة ، وأمره بغسل اليدين إلى المرفقين لما تناول بهما ، وأمره بمسح الرأس لما وضع يده على أم رأسه ، وأمره بمسح قدميه لما مشى إلى الخطيئة)) (١) .

وكتب أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله ((إن علة الوضوء التي من أجلها صار على العبد غسل الوجه والذراعين ومسح الرأس والرجلين والقدمين ، فلقيامه بين يدي الله تعالى واستقباله إياه بجوارحه الظاهرة وملاقاته بها الكرام الكاتبين ، فيغسل الوجه للسجود والخضوع ، ويغسل اليدين ليقلبهما ويرغب بهما ويرهب ويتبتل ، ويمسح الرأس والقدمين لأنهما ظاهران مكشوفان ليستقبل بهما كل حالاته وليس فيهما من الخضوع والتبتل ما في الوجه والذراعين)) (٢) .

---

(١) الفقيه ١ / ٥٥ ح ١٢٧ (٢) الفقيه ١ / ٥٦ ح ١٢٨

وأما خصوصية الغسل الترتيبي فلأن الرأس هو ألطف المواضع الظاهرة وأشرفها وفيه وجه القلب الذي به يعرف الشخص لا بغيره فيجب تقديم غسله على كل الأعضاء ، والرقبة تابعة للرأس أو جزء منه فتدخل في الغسل معه ، وأما الشق الأيمن فهو يحكي عن يمين العرش وهو أشرف من الشق الأيسر فيجب تأخير الأيسر عن الأيمن ، فالرأس بإزاء عالم الجبروت ، والأيمن بإزاء عالم الملكوت ، والأيسر بإزاء عالم الملك .

ولما كان الفم لأجل صعود الأبخرة والحرارة لا يدخل في الغالب من الأوساخ وكذلك الأنف لما ينحدر منه من النخامة وغيرها من الأعراض والغرائب كاليد التي يباشر بها الأشياء الجيدة والرديئة لا تخفى على الشارع عليه السلام فندب المكلفين إلى غسل اليدين من الزندين في وضوء الطهارة من الغائط مرتين ولغيره مرة ، والتمضمض والسواك والاستنشاق وقراءة الأدعية المأثورة ليبلغ الكمال في التصفية وليتوجه إلى الله سبحانه طاهر زكي .

فليستشعر المصلي أن الله سبحانه إذا كان اعتناؤه لتطهير البدن الظاهري للصلاة هذا المقدار فما ظنك باعتنائه بتطهير القلب فإن به قوام الجسد ولا غشاء بتطهيره عن رذائل الأخلاق وقدام الصفات والمعاصي الكبيرة والصغيرة الظاهرة والباطنة أكثر وأعظم

، بل هذه الطهارة بيان وصفه دليل لتلك الطهارة ، ومن أراد كيفية تطهير القلب وتخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل فليرجع إلى الرسالة التي كتبناها لبعض العلماء الأزكياء في هذا الشأن وذكرها هنا يوجب التطويل ، هذا مجمل القول في الطهارة وأسرارها وهي المقدمة الأولى للصلاة .

المقدمة الثانية : ستر العورتين

أما المقدمة الثانية فهي ستر العورتين في الصلاة ، فلا تجوز عريانا إلا عند الضرورة فحينئذ يصلي قاعدا ويومئ للركوع والسجود ، وأما سره وحقيقته فاعلم أن اللّه واحد في الذات والصفات والأفعال والعبادة ، فالعابد يجب أن يرى معبوده واحدا لا يشاركه شيء في المعبودية ولا يكون كذلك إلا ويرى الأشياء مضمحلة باطلة فانية ، لا استقلال لها ولا تفرد وإلا لوجد مستقلا سواه فيكون هو المعبود دون ما عداه ، ولّما كان بين المدرك وجهة الإدراك لا بد من المناسبة وجب أن يجعل اللّه سبحانه في العبد قوة إلهية بسيطة وجدانية ليدرك الواجد المضمحل عنده سواه والباطل عنده ما عداه ، ليصح له التوجه الكامل البالغ إلى الواجد المغيب بظهوره كلما عداه وإلا لا يمكنه ذلك ، وتلك القوة التي تقام بها مراسم العبودية هو العقل وهو الذي عبد به الرحمن واكتسب به

الجنان ، وهي قـوة إلهيـة تـدرك معـاني الأشـياء وأسـرارها أي الأمـر الواحد الذي له الشئون المتكثرة والإضافات المختلفة ، وهي الناظرة إلى شجرة طوبى وسدرة المنتهى وبها يعبد اللّـه سـبحانه ، ولا تـرى هذه القوة أمور متكثرة مختلفة لتجعـل لـه تعـالى الشـريك والوزيـر ، ولذا ترى الصلاة والعبادة تدور مـدار العقـل فمـن بلـغ حـد ظـهور العقل والرشد فهو المكلف العابد لله ومن لم يبلغ أو طـرأ لـه الجنـون وزال عقله فليس بمكلف ولا يجوز له التكليف إذ ليس له ذلك النـور الوجداني الذي به يوحد اللّه سبحانه ويعرض عمن سـواه ، ولكـن اللّه سبحانه جعـل لظـهور آثـار هـذه القـوة مراكـب وهـي النفـس والجسم وهما له بمنزلة المركب ، وتحمل أثقالـه مـن لم يكـن بالغـه إلا بشق الأنفس ، وهما لدناءتـهما وبعدهمـا عـن المبـدأ لا يدركـان إلا الأمور المختلفة المتكثرة ولا يميـلان إلا إلى الشـهوات المخالفـة لإرادة الحـق سـبحانه ، فيجـب سـترها وإخفـاء شـهواتها والإعـراض عمـا يقتضيـان مـن اللـذات الراجعـة إلى نفسـهما في كـل وقـت سـيما في أوقـات الصـلاة والوقـوف للمناجـاة وبـين يـدي خـالق السـموات والأرض وبارئ المسموكات ، ويجب التوجـه والالتفـات إلى العبـادة بنظر العقل فإنه لا يرى سوى اللّه سـبحانه ولا تـرى مسـتقلا غـيره فتخلص عبادته عن شوب الرياء وغرض من أغراض الدنيا .

وهذا تأويل أن العصير العنبي والتمري لا يطهران إلا إذا ذهب ثلثاه وهما نصيبا الشيطان ومحل بوله ، فإن الإنسان مثلث أحد أضلاعه العقل والثاني النفس والثالث الجسم ، فلا يؤمن ولا يطهر إلا إذا ذهب ثلثاه ، أي مقتضيات النفس والجسد وشهواتها وبقي مقتضى العقل وحده فإنه لا يحب إلا الخير ولا يميل إلا إليه ، فالنفس والجسد هما العورتان اللتان يجب سترهما ولا يستعملان إلا فيما أمر الله سبحانه ، فالجسد هو مخرج الغائط المغلظة والكثافة لكونه من فضول الهضم الأول بالاتفاق ، والنفس هو مخرج البول لرقة البول ولطافته وكونه من الهضم الثاني عند الأطباء ، ولذا يصب الماء لتطهير البول مرتين بخلاف غيره ولا يجزي عنه إلا الماء بخلاف الغائط فإن الأحجار تجزي عن الماء بالشروط المعلومة ، إلا أن الهيئة اختلفت في الرجال والنساء ، لأن النساء لما كانت جهة النفس فيها غالبة ومقتضاها عند هذه أكثر من الرجال ظهر المخرج على هيئة ورقة الآس كهيئة الأرواح في العالم فإن الروح جهة الربط بين العقل والنفس مثل ذلك الموضع ، وأما الرجال فلما كانت جهة العقل فيهم أعظم ومقتضاه عندهم أكثر ولهم الهيمنة على النساء ظهر المخرج على هيئة ظهور العقل وهو الألف القائم لبيان أن النفس في

الرجال وهم المؤمنون كالكلب المعلم وأنها اطمأنت في إطاعة العقل حتى تزينت بزينة العقل وتلبست بلباسه ، قال الشاعر ونعم ما قال :

رق الزجاج ودقت الخمر   فتشاكلا وتشابه الأمر

فكأنما خمر ولا قدح   فكأنما قدح ولا خمر

فافهم ، والمؤمن رجل والكافر أنثى قال تعالى ﴿ وإن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله﴾ (١) فافهم إن كنت تفهم وإلا سلم تسلم .

ولما كانت جهة النفس في المرأة أكثر لما قلنا من أنها خلقت من جزأين من النفس الأمارة بالسوء فجهة الماهية فيها أغلب والظلمة فيها أغلظ ، كان كل جسدها عورة ، لأن النفس قد جرت بظهورها في كل الجسد ، بخلاف الرجل فإن جهة النفس فيه ضعيفة ، فصار ظهور النفس عند التجرد والتجسد في المرأة كل بدنها عورة يجب سترها إلا الوجه وظهر القدمين والكفين ، أما الوجه فتوجهها به إلى الله ولتوجه الله إليها به لأنه وجه القلب والقلب محل نظر

---

(١) النساء ١١٧ - ١١٨

الله فتأثير النفس فيه ضعيف ، وأما الكفان فتقلبهما إلى الله سبحانه بالتضرع والابتهال والخضوع والخشوع ومدهما للسؤال ، وأما القدمان فلتسعى بهما إلى طاعة الله وتمشي بهما إلى محل قربه ورضاه .

وأما الساتر فيجب أن لا يكون نجسا ولا مغصوبا ، أما النجاسة فلما قلنا سابقا من أنها جهة الإعراض عن الله سبحانه وتعالى فتضاد حالة الإقبال إليه فيجب رفعها وإزالتها ، وأما الغصب فلأنه ظلم والظلم غير جهة الحق سبحانه فلا يصح أن يكون في الصلاة التي هي جهته سبحانه ، ويجب أن لا يكون من جلد ما لا يؤكل لحمه ولا من صوفه ولا من شعره ولا من وبره ولا أن يكون ملطخا بشيء من روثه وبوله ، لأن الحيوانات التي لا تؤكل لحومها أنكرت ولاية أولياء الله ومعاداة أعدائه ، وهذا الإنكار إن كان في الظاهر والباطن فهي نجسة كالكلب والخنزير ، وإن كان الإنكار في الباطن لا الظاهر فإن الإقرار الظاهري قوي بظهور آثاره حيث غلب نوره العرضي على ظلمته الذاتية فهذا يكون في الباطن نجسا حراما يظهر ذلك إذا رد كل فرع إلى أصله فيكون ظاهره طاهرا حلالا وذلك كما ورد في العصفور من أنه عمري مع أنه حلال ولحمه طاهر ، وإن كان الإنكار في الباطن والظاهر إلا أنه أصابه

لطخ من فاضل طينة المقربين فهذا القسم حرام لحومها ولكنها طاهرة لمكان ذلك اللطخ ، فإذا عرفت هذا عرفت أن شيئا من أجزائها ولحومها وفضلاتها لا يجوز أن يكون مع المصلي ، لأن الصلاة صرف التوجه إلى الله سبحانه لخلوص الظاهر والباطن عن شوب كل ما عداه سبحانه كما قال تعالى ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ (١) والصلاة رأس العبادة وأصلها وذروتها وسنامها فكيف يكون في حال الصلاة يصحب معه شيئا يكرهه الله سبحانه ، وقد عرفت أن ما لا يؤكل لحمه ما أخلصت لله سبحانه وتعالى العبودية وما أذعنت له بالطاعة فصار باطنها كظاهرها كما قال تعالى ﴿ ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ﴾ (٢) وقد استثنى من هذا القسم الخز والسنجاب لقوة اللطخ العرضي النوراني فيها حتى تنورا فظهر جلدهما بهذا النور وضعف ظهور ظلمة الإدبار فيهما فصح للمصلي أن يلبسهما وإن كانا في الباطن ظلمة الإدبار مستولية عليهما ، وسبيلهما سبيل التمر والعنب فإن إبليس لعنه الله قد بال عليهما واستجن بوله في باطنهما يظهر فتنته ونجاسته إذا أصابتهما النار ، وأما قبلها فهما طاهران حلالان يؤكلان وذلك لما ذكرنا من

---

(١) غافر ١٤ (٢) السجدة ١٢

غلبة حكم الظاهر على الباطن ، ويحتمل أن يكون الخز والسنجاب في الباطن مؤمنين وإنكارهما في الظاهر إلا أن حكم الباطن اضمحل بالكلية في حكم الظاهر كما اضمحل في كلب أصحاب الكهف وأقسام الحيوانات ، والحلية والحرمة والطهارة والنجاسة ليست منحصرة أصولها وعلتها بما ذكرناه وإنما هناك تفاصيل عجيبة وأسرار غريبة لا يسعني الآن بيانها إذ لا كل ما يعلم يقال فإن من الناس من يحتمل ومنهم من لا يحتمل ، ومن العلوم ما يحمل ومنها ما لا يحمل ، وما ذكرنا وجه مما لم نذكر فافهم .

ولا يجوز للرجال لبس الحرير والذهب في الصلاة خلاف المرأة فإن ما ذكرنا يجوز لها أن تلبس كيف شاءت ، وحقيقة الأمر في ذلك ما ذكرنا سابقا من أن الرجل خلقه الله من جزأين من العقل وحكم العقل عليهم مستول غالب ، ولما كان العقل هو أول مؤمن بالله وأول مقر له بالربوبية ورقة العبودية كان أشد الأشياء خضوعا لله سبحانه وذلة بين يديه فكان مسكنه التراب ، وذلك أبو تراب ولذلك كانت طبيعته باردة يابسة وزحل الذي هو النجم الثاقب هو الكوكب المنسوب إليه وهو مطل على أهل الدنيا يأمر بالزهد والخضوع والإعراض عن الدنيا ، والأراضي والحبوب والنباتات منسوبة إليه ، فإذا كان كذلك فالعقل لا يطلب إلا ما

يناسبه من لباس الخضوع والخشوع والذلة ، وهو ما ينسج من نبات الأرض بلا واسطة كالقطن والكتان وأمثالهما ، أو ما يقوم مقامه في الذلة والمسكنة والبرودة واليبوسة كالجلود والأصواف والأوبار والأشعار مما يؤكل لحمه من الحيوانات لأنها طيبة طاهرة خاشعة لله سبحانه لسر العبودية إذا كانت ذكية ولا يكون ميتة ناظرة إلى التراب حياء وخوفا من البرية ، فليس في جلودها وأصوافها وأوبارها شيئا ينافي الإخلاص في العبودية فيلائم العقل ويناسبه ، وأما الحرير فإنه مأخوذ من الابريسم وهو يكون من الدودة المعروفة وهي مما لا يؤكل لحمه ، فيكون الابريسم في المعنى والحقيقة فضلة منها ، مع أن الابريسم والحرير زينة أهل الدنيا فلا يلائم العقل ، والدودة قيل روي أنها من الديدان التي كانت في بدن أيوب عليه السلام لما ابتلاه الله سبحانه حين شكا وبكى وقال هذا أمر عظيم وخطب جسيم ما وصل الله إليه الشك في صورة أنا أقمته إني ابتليت آدم بالبلاء فوهبت له بالتسليم بإمرة المؤمنين وأنت تقول أمر عظيم وخطب جسيم فوالله لأذيقنك من عذابي أو تتوب إلي بالطاعة لأمير المؤمنين ، فتكون تلك الديدان قد تكونت من ظلمة الإدبار الجزئي الإضافي ، والابريسم فضلة منها ولذا كان زينة أهل الدنيا فلا يصحب الحرير الكامل في الخضوع والإقبال المحض في

الإخلاص والتوجه إليه تعالى بالغدو والآصال كما هو شأن العقل في جميع الأحوال .

وأما الذهب فإنه وإن كان من المعادن وهي أدنى من النبات إلا أنه لا يلائم العقل في الطبيعة والاقتضاء ، أما في الطبيعة فلأن الذهب حار رطب على القول المختار وهي ضد طبيعة العقل البرودة واليبوسة ، وأما الاقتضاء فلأن مقتضى الذهب الزينة والتجمل والتفاخر ولذا كان في هذه الدنيا محبوب أعداء الله ومعظما عندهم كما أشير إليه في قوله تعالى حكاية عن فلان ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ (١) ومقتضى العقل الزهد والإعراض عن زخارف الدنيا وزبرجها ، ولذا منع من تزخرف المساجد والمصاحف فلا يجتمع المقتضيان أبدا ، فلا يصح للرجل الغالب عليه حكم العقل ومقتضاه أن لا يلبس حال الصلاة الحرير ولباس الذهب إلا إذا اضمحل الحرير في غيره مما يصح فيه الصلاة .

وأما المرأة فلما كان حكم النفس عليها غالبا وهي إنما أعدت للزينة والتجمل وطبعها في هذا اللحاظ حار رطب ، وكذا

---

(١) الزخرف ٥٣

كان كوكبها الزهرة ميالة إلى اللهو واللعب ما دام استيلاء حكم النفس الأمارة ، فيناسب كينونتها ويلائم طبعها لبس الحرير والذهب فأبيح لها ذلك .

ولما كان العقل النور الأبيض ويستمد من حجاب اللؤلؤ من يمين العرش الأعظم الأعلى فالملابس البيض هو أولى بمقامه ، ولذا استحب للمصلي ذلك .

فإذا عرفت أن النفس هي العورة كالجسد فاللباس الذي يستر هذه العورة فهو لباس التقوى وبها تستر قبائح النفس وعيوبها يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فإنه يوم يؤتى بالأعمال كهيئتها في الدنيا فيأتون بالزاني حال زناه وباللاطي في تلك الحالة وبالسارق حين يمد يده إلى السرقة ، وهكذا في سائر الأحوال والأوضاع ، فمن تلبس بلباس التقوى فعورته مصونة وعيوبه وسوأته مغطاة مخفية ، ومن ليس عليه ذلك اللباس فعنده الفضيحة الكبرى والشناعة العظمى نستجير بالله من ذلك ، فلباس هذه الدنيا دليل وآية للباس التقوى ، فالمتوجه إلى الله سبحانه والمقبل إليه كيف يواجهه تعالى بصلاته والتي هي معراجه بعورة مكشوفة بادية وهي وجه الغير وعلة الكدورة وأصل الإعراض ، وفي تحقيق هذا اللباس لنا كلمات عجيبة ليس لي الآن ذكرها فتركها أولى .

المقدمة الثالثة : في الأوقات وخصوصيتها لفعل الصلاة .

في الفقيه عن الحسين بن علي بن أبي طالب روحي لهم الفداء وعليهم السلام أنه قال ((جاء نفر من اليهود إلى النبي صلى اللّه عليه وآله فسأله أعلمهم عن مسائل فكان مما سأله أنه قال : أخبرني لأي شيء فرض الله عز وجل هذه الخمس الصلوات في خمس مواقيت على أمتك في ساعات الليل والنهار ، فقال النبي صلى اللّه عليه وآله : إن الشمس عند الزوال لها حلقة تدخل فيها ، فإذا دخلت فيها زالت الشمس فيسبح كل شيء دون العرش بحمد ربي جل جلاله وهي الساعة التي يصلي علي فيها ربي جل جلاله ففرض اللّه عليّ وعلى أمتي فيها الصلاة وقال ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ (١) وهي الساعة التي يؤتى فيها بجهنم يوم القيامة فما من مؤمن يوافق تلك الساعة أن يكون ساجدا أو راكعا أو قائما إلا حرم اللّه جسده على النار ، وأما صلاة العصر فهي الساعة التي أكل آدم عليه السلام فيها من الشجرة فأخرجه اللّه عز وجل من الجنة فأمر اللّه عز وجل ذريته بهذه الصلاة إلى يوم القيامة واختارها لأمتي فهي من أحب الصلوات إلى اللّه عز

---

(١) الإسراء ٧٨

وجل وأوصاني أن أحفظها من بين الصلوات ، وأما صلاة المغرب فهي الساعة التي تاب الله عز وجل فيها على آدم عليه السلام وكان بين ما أكل من الشجرة وبين ما تاب الله عز وجل عليه ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا ، وفي أيام الآخرة يوم كألف سنة ما بين العصر إلى العشاء ، وصلى آدم عليه السلام ثلاث ركعات ركعة لخطيئته وركعة لخطيئة حواء وركعة لتوبته ففرض الله عز وجل هذه الثلاث ركعات على أمتي وهي الساعة التي يستجاب فيها الدعاء ، فوعدني ربي عز وجل أن يستجيب لمن دعاه فيها وهي الصلاة التي أمرني ربي بها في قوله تبارك تعالى ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ (١) ، وأما صلاة العشاء الآخرة فإن للقبر ظلمة وليوم القيامة ظلمة ، أمرني ربي عز وجل وأمتي بهذه الصلاة لتنور القبر ويعطيني وأمتي النور على الصراط ، وما من قدم مشت إلى صلاة العتمة إلا حرم الله عز وجل جسدها على النار وهي الصلاة التي اختارها الله تعالى وتقدس ذكره للمرسلين قبلي ، وأما صلاة الفجر فإن الشمس إذا تطلع على قرني الشيطان فأمرني ربي عز وجل أن أصلي قبل طلوع الشمس صلاة الغداة وقبل أن يسجد

---

(١) الروم ١٧

لها الكافر لتسجد أمتي لله عز وجل وسرعتها أحب إلى الله عز وجل وهي الصلاة التي تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار)) (١) .

اعلم أن الكلام على المواقيت وأصل تكونها ومنشئها وحقيقتها طويل إلا أني أشير إليها إشارة كافية حسب ما أشير إليه في هذا الحديث الشريف ، فاعلم أن الظهر هو أول وقت خلقه الله سبحانه في العالم لم يسبقه وقت أبدا كما عن الرضا عليه السلام ، وأن الله سبحانه لما خلق العالم كان طالع الدنيا السرطان كان رابع الحمل فيكون الحمل هو وتد السماء أشرف الأوتاد الأربعة وشرف الشمس في الحمل والشمس في شرفها ، فتكون الشمس في أول الانحراف عن دائرة نصف النهار وهو وقت فريضة الظهر وهو أول وقت المبدأ ، وإنما سمي ظهرا لكون الشمس في غاية الظهور للعالم لأنها إذاً لا شرقية ولا غربية نور على نور وهو الوقت الذي يسبح لله كل شيء وتفتح أبواب الخير لفوران فوارة النور على حدود المقادير في ذلك الوقت وترد الإفاضات على قوابل الكائنات ولذا يستحب أن يقول العبد في ذلك الوقت (سبحان الله والحمد لله

---

(١) الفقيه ١ / ٢١٢ ح ٦٣٤

الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملـك ولم يكـن لـه ولي مـن الذل) ، ولما كانت الصـلاة أشـرف العبـادات والوصـلات إلى اللّـه تعالى وأعلى فيضه ومنار قدرتـه لأنـها التوجـه الكـامل إلى اللّـه عـز وجل لكل الكينونة وجبت في ذلك الوقت الذي هو منشـأ الخيرات وينبوع الإفاضات وهي أول صـلاة فرضت في الوجـود ولـذا كـان الابتداء في القضاء من صلاة الظهر لمن جعل ترتيـب فـوات الصـلاة منه .

ولأن اللّه سبحانه نفذت مشيئته وسـبقت كلمتـه واقتضـت حكمته أن يقدم الليل علـى النـهار ويستولي الظلمـات علـى النـور ويجعل للباطل دولة إتماما للحجة عليهم وإكمالا للنعمة على المؤمنين وكل على الشمس سبعين ألف ملك يجذبونها أخذ بكل شعاع منـها خمسة آلاف من الملائكـة فـأمرهم أن يميلـوا بـها نحـو المغـرب إنفـاذا لمشيئته وإعلانـا لكلمتـه ، فلمـا مـالوا بـها إلى المغـرب ظـهر الفتـور والضعف في ظهور نور الشمس وإشراقها وتلؤلؤها ولمعانها ، فخلق اللّه الظن في ذلك الوقت كما خلق اليقين في وقت الظهر وهو منشأ وقت ظهور الظلمات وهو الوقت الذي خلق فيه المرأة معتصرة مـن الرجل ولذا سمي عصرا ، أو لأنه مـن الإعصـار الـذي فيـه نـار وهـو يناسب الوجه الأول وهو خلق الظن ومبدأ ظهور الظلمة والوجهان

متناسبان بل مؤدى الكل إلى واحد ، فأوجب الله سبحانه الصلاة في هذا الوقت لتكون جابرة لكسر ما يقع في ذلك الوقت من الظلمات ومقوية لما ظهر من الضعف والفتور في حقائق الكائنات ولتكون وصلة في طلب الخيرات ورفع الظنون والخيالات والاهتداء إلى سواء الصراط .

ولما أراد الله لما ذكرنا غلبة الظلمة على النور أمر الله الملائكة الموكلين على الشمس أن يجروها بكلاليب النور حتى واروها بالحجاب فغمسوها ي عين حمئة فغلبت الظلمة واستولت على النور مع بقاء حكم النور وعدم اضمحلاله بالمرة وهو يوم الإيلاج وأول تقارن النور والظلمة وتكافؤهما ، فخلق الله بهذا التكافؤ والتقارن الشك وهو وقت المغرب ويعرف بذهاب الحمرة المشرقية المنبئ عن سقوط القرص بالكلية ، ولما كان مقام تساوي النور والظلمة وغروب مبدأ النور وظهور مبدأ الظلمة وعنده فساد الكائنات ووقوع الشك والشبهات أوجب الله سبحانه الصلاة في ذلك الوقت لتكون مقوية لما انهدم من البنية ومتمما لما نقص من نضج الطبيعة .

فلما غربت الشمس بالكلية ونقص سلطانها عن وجه الأرض ونزعت الملائكة عنها نورها وخرت ساجدة تحت عرش ربها

ومنعت عن التصرف الـذي في عـالم الأكـدار عنـد استيلاء الأغيـار وذلك عند ذهاب الحمرة المغربية وهو وقت العشـاء ويـوم الغشـيان وهو قولـه تعـالى ﴿ يغشـى الليـل النـهار ﴾ (١) وهـو مقـام تراكـم الظلمات وتصادم الشهوات وتلاطم أمواج بحر الإنيات وهو الوقت الذي خلق الله فيه الجهل ، فـأوجب اللـه سـبحانه في هـذا الوقـت الذي هو أسعد الأوقات على المؤمن في الكور الثاني وأعلى الأوقات وأشرفها في الكون الأول ، فأوجب الله سبحانه الصلاة للحالتين في الكونين لتكون بنورها مذهبة لتلك الظلمـات وبحـرارة ذاتـها محرقـة مضيئة لتلك الكثرات إن في ذلك لآيات لأولي الألباب .

ثم لما انقضت الظلمـة وطواهـا وعـادت الطيـور إلى وكرهـا وآن للقوابل السفلية أن تبطـل وتضمحـل لاسـتيلاء البـرودة ، وأن يقـل نضجـها لضعـف الحـرارة قضـى اللـه سبحانه إجابـة لطلبـات القابلات رفع تلك الظلمات لكونها من الشجرة الخبيثة المجتثـة الـتي ليس لها نبات ولا قـرار فانشـق عمـود الفجـر وعـادت الملائكـة إلى الذكر ورجع الشفع إلى الوتـر ، وظـهر النـور علـى جبـل الطـور في الليل الديجور ، فأوجب الله الصلاة في ذلـك الوقـت شـكرا لنعمـه

---

(١) الأعراف ١٥٤

وإظهارا لكرامته ومننه وقطعا لدابر الظلمة وهو قوله تعالى ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ (١) لتشهده ملائكة الليل والنهار ، لأن ذلك يوم الإيلاج إيلاج النهار في الليل ، وفي ذلك اليوم خلق الله الجوزهر في فلك القمر وزهر العقدتان وهما الجنتان المدهامتان .

فظهر لك من هذا المقام البيان التام والكلام الشامل العام أن هذه الأوقات الخمسة من مبادئ الوجود والشارح لأحوال الغيبة والشهود ومحل ظهور الله في الخلق بكلتا يديه اليمنى واليسرى وإن كان كلتا يديه يمين ، ولذا أوجبت فيها الصلوات الخمس التي هي أقوى المسائل وأعلى الأسباب الموصلة إلى قدرة الله سبحانه وفيضه وقربه ، ولهذا سميت صلاة لأنها إما مشتقة من الصلة أو من الصلة يعني العطية أو من الصلاة والمعاني الثلاثة كلها مطابقة لمدلول الصلاة كما سبق فراجع .

ثم أن الأوقات الخمسة كل منها دليل عالم من العوالم الثلاثة التي بها تم الوجود ، كما أن كل يوم ليلته دليل تمام كل العوالم ، فالظهر دليل عالم الجبروت وآية ظهور المعاني ومبدأ الخلق في الوجود المقيد وعالم العقل وسر النقل وهو أول الزوال أي زوال

---

(١) الإسراء ٧٨

شمس الوجود إلى مغرب الحدود والقيود .

والعصر دليل عالم الأرواح ، الوجه الأعلى المتصل بالعقل في كمال السعة والنورانية والوجه الأسفل المتصل بالنفس عالم الكثرة في كمال الضيق فكان على هيئة ورق الآس ، والعصر أيضا كذلك لأن الوجه المتصل بالظهر في كمال الحرارة وقوة النور ، والوجه الأسفل المتصل بالمغرب في كمال البرودة وضعف النور .

والمغرب دليل عالم النفس لغروب النور الوجداني الإجمالي فيها وبقاء النور الشخصي المدبر للمقامات الشخصية فلا اضمحل النور بالكلية فيها ولا استولى كذلك بل هي كهيئة المغرب في عللها بالإضافة إلى العالم الأعلى وإن كانت في عالمها كوقت الظهر فافهم .

والعشاء دليل عالم الطبيعة لأنه مقام كسر الأنوار وموت الأحياء واضمحلال الأشباح كما في ما بين النفختين بالنسبة إلى العالم الجسماني ، فلا حس ولا محسوس كما كان في وقت العشاء الآخرة قد سكتت الحواس وهدت الأصوات وتراكمت الظلمة التي هي من طبع الموت واستولت على النور الذي هو طبع الحياة ، وماتت الأشياء بموت النوم الحقيقي ولذا كان الموت غالبا في الليل دون النهار إلا إذا كان المقتضى قويا ، فإن قلت لم كان وقت صلاة العشاء من ذهاب الحمرة المغربية إلى نصف الليل بل كان ينبغي على

الوصف الذي ذكرت أن يكون من ذهاب الحمرة إلى الصبح ، قلت لأن من ذهاب الظلمة يأخذ الظلمة فالاستيلاء والقوة والشدة إلى نصف الليل ، وبعد ذلك تميل قاعدة المخروط الظلماني عن سمت الرأس وتأخذ في الاضمحلال والفناء شيئا فشيئا إلى أن تفنى وتعدم ولهذا وقت العشاء إلى حد الاستيلاء لا غير ، فإن قلت على ما ذكرت وجب أن يكون وقت المغرب بين ذهاب الحمرتين المغربية والمشرقية مع أن وقت المغرب يمتد إلى أداء صلاة العشاء من نصف الليل ومقدار أربع ركعات من نصف الليل ، قلت ذلك وقت الفضيلة حتى قال بعضهم يتعين الوقت في ذلك ، وساعدته أخبار كثيرة وهو الأحوط إلا أن المشهور الأول لكمال القرب بين العاملين ووقوع الموت بالمعنى في عالم النفس أيضا ، إذ كانت النفس أمارة بالسوء ومعرضة عن ذكر الحق عز وجل فكان يجري ما يجري في الموت الأعظم في عالم الطبيعة متأخر وفي عالم النفس متقدم كما حكم الشارع عليه السلام في صلاتهما من الترتيب والتوزيع .

والصبح دليل عالم المثال واقترانه بالأجسام فإنه أول وقت الظهور والحياة بعد الموت والشعب بعد النفخة ولما كانت هذه العوالم هي أصول العوالم ومبادئ الموجودات وفي كل عالم يعبد الله سبحانه فيه ، والعبادات كلها مطويات في الصلاة جعل الشارع

عليه السلام في الأوقات الخمسة الصلوات بيانا وشرحا لعبادة كل عالم بحسبه فافهم ، ونزيدك إنشاء الله تعالى فيما بعد من بعد هذا الكلام شيئا فشيئا عند عدد الركعات فترقب .

أما معرفة الزوال فقد روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال ((تزول الشمس في النصف من حزيران على نصف قدم ، وفي النصف من تموز على قدم ونصف ، وفي النصف من آب على قدمين ونصف ، وفي النصف من أيلول على ثلاثة أقدام ونصف ، وفي النصف من تشرين الأول على خمسة ونصف ، وفي النصف من تشرين الآخر على سبعة ونصف ، وفي النصف من كانون الأول على تسعة ونصف ، وفي النصف من كانون الآخر على سبعة ونصف ، وفي النصف من شباط على خمسة أقدام ونصف ، وفي النصف من آذار على ثلاثة ونصف ، وفي النصف من نيسان على قدمين ونصف ، وفي النصف من أيار على قدم ونصف ، وفي النصف من حزيران على نصف قدم)) (١).

وهذا التحديد يكون في بلاد يكون العرض أكثر من الميل الكلي ، وأما البلاد التي عرضها يساوي الميل أو أقل لا يجري عليها

---

(١) البحار ٨٢ / ٣٦٥ ح٥٣

ما ذكره ، إذ في الأول ينعدم الظل في النصف من حزيران وهو أول السرطان وهو مقام غاية بعد الشمس عن معدل النهار ، وفي الثاني ينعدم الظل يومين يوم قبل النصف من حزيران ويوم بعده وفي النصف من حزيران قد يكون أقل من نصف قدم وقد يكون أكثر على حسب الدرجات ، ثم إن هذا التحديد لا يجري في البلاد التي عرضها أكثر من الميل الأعظم وإنما هي أطراف العراق التي بعدها أقل والتفاوت منه إلى تمام الميل أقل كما في اعتراف العرب ، وقد نقل المجلسي عن البهائي رضوان الله عليهما أنه قال (إني جريت في هذا التحديد في النجف الأشرف وحددته تقريبا) ، وذكر المجلسي أنه في أصفهان أيضا تقريبي .

والظاهر أن التقريبي يكفي في هذا المقام لبيان الإمام عليه السلام وسكوته عن التفصيل إلا في المواضع التي يكون التفاوت فاحشا بينا يعرفه الأغلب فإن المراد في هذه المقامات العرف سيما مع بيانه عليه السلام وإهمال التفصيل ، لأنهم قالوا عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بأشياء ونهى عن أشياء وسكت عن أشياء وليس سكوته عليها جهلا فاسكتوا عما سكت الله عنه وأبهموا ما أبهمه الله .

وقال الصادق عليه السلام ((تبيان زوال الشمس أن تـأخذ عودا طوله ذراع وأربع أصابع فتجعل أربـع أصـابع في الأرض فـإذا نقص الظل حتى يبلغ غايته ثم زاد فقد زالت الشمس وتفتح أبـواب السماء وتهب الرياح وتقضى الحوائج العظام)) (١) .

وبطريق آخر أنك إذا عرفت قبلة البلد وعرفت مقدار قـوس انحرافه عن القطب إمـا الجنوبـي أو الشـمالي إلى المشـرق أو المغـرب ينحرف بقدر ذلك القوس إلى تلك الجهة وتجعل لكل درجـة أضعافـا ، فإذا كان قوس الانحراف اثنا عشر درجـة كمـا في الكوفـة وبغـداد تقريبا مثلا ، وانحرافهما من الجنوب إلى المغرب فتنحـرف شـبرا عـن القبلة من موضع سجودك لا من موضع وتنظر إلى الشمس ، وهـذه القاعدة تعين الزوال لمن عرف القبلة وتعين القبلة لمن عرف الزوال ، وإن لم يعرفهما ينظر إلى الجدي حال ارتفاعه أو حال انخفاضه بـالليل فيقابله بحيث يجاذبه أي يجعله بين العينين ثم يرسم بإزائه في الأرض أو يضع علامة أخرى ثم يستدير عنه ويقابل العلامـة فإنـه يقـابل نقطـة الجنوب ثم بقدر قوس الانحراف ينحـرف عنـه يمينـا أو شمـالا فذلـك سمت القبلة ، ثم ينظر على تلك العلامة الشمس في النهار فـإذا كـان

---

(١) الفقيه ١ / ٢٢٤ ح ٦٧٤

على الحاجب الأيمن فهو وقت الزوال ، وهذا لا إشكال فيه فإن العلماء ذكروا قسمي الانحراف وعينوها وضبطوها فمن عرف طول البلد وعرضه يمكنه استخراج قوس الانحراف لقياس طول البلد وعرضه إلى مكة وعرضها ، وكيفية الاستخراج مذكورة في كتب علماء الهيئة وربما أشرنا ههنا في مبحث القبلة وربما لم نشر لأن المطلوب من وضع هذا الكتاب ثبت ما لم يكتب غيري ، وأما الذي رسموه فلا فائدة في ثبته لأن الوقت أضيق من ذلك إلا أن يكون من باب التصحيح والجرح وأمثالهما .

المقدمة الرابعة : في القبلة وأسراها .

اعلم أن القبلة هي وجه العبد إلى الله تعالى أي جهة توجهه إليه تعالى لما علم بالضرورة أن ذات الحق سبحانه لا يتوجه إليها من حيث نفسها لاحتراق الأشياء لديها بل لدى ظهور نور عظمتها كما احترقت بنو إسرائيل وخر موسى لما تجلى لهم نور بقدر سم الإبرة من نور رجل من الكروبيين الذين هم أولى العبيد بالنسبة إليه تعالى ، وهو نور رجل من شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله كما في البصائر عن الصادق عليه السلام ، فلا يتوجه إليه سبحانه بذاته وإنما التوجه إليه بنور قدسه وتجلي كلمته وظهور صنعته وآثار قدرته وأشباح عظمته .

والعبد له حالتان لا يخل من أحدهما ، حالة الفناء والاضمحلال عند سطوع أشعة أنوار الجلال والجمال فلا يجد نفسه أبدا وإنما يشاهد ربه بنفسه التي هي وجه ربه له به قال أمير المؤمنين عليه السلام ((بل تجلى لها بها)) (١) فلا كلام عن هذا المقام لأنه ليس مقصودنا هنا .

وثانيهما حالة الفرق مشاهدة النفس فإنه حينئذ يشاهد نفسه ويحمد ربه فيعبده ولا يشرك به شيئا فيجب حينئذ أن يكون له رابطة فيض من مبدئه إليه ، وإن كانت في الصورة الأولى موجودة إلا أنها غير منظور فيها ولا ملتفت إليها ، فيلتفت إليها من غير الالتفات إليها كما قال مولانا الحسين عليه السلام ((حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة من الاعتماد عليها إنك على كل شيء قدير))(٢) ، وتلك الرابطة والواسطة هي وجه مبدئه إليه ، يصل الفيض بها إليه حيث لا يقدر على التلقي منه تعالى بلا واسطة كمال وفاته وكمال عزته وصنعته ، وتلك الواسطة لا تكون إلا مبدأ وجوده لبطلان الطفرة ، فذلك الوجه هو القبلة التي بها يتوجه العبد إلى الله تعالى ،

---

(١) البحار ٤ / ٢٦١ ح ٩ (٢) البحار ٩٨ / ٢٢٦ ح ٣

وقد ثبتت بالأدلة القطعية أن محمدا وآله صلوات الله عليهم هم مبدأ الوجود ، وقد خلقهم الله قبل أن يخلق الخلق بمائة ألف دهر وكل دهر مائة ألف سنة وكل سنة مائة ألف شهر وكل شهر مائة ألف جمعة وكل جمعة مائة ألف يوم وكل يوم مائة ألف ساعة وكل ساعة سنة مما تعدون وأستغفر الله عن التحديد بالقليل ، ثم خلق الخلق من فاضل نورهم وشعاعهم كما قال النبي صلى الله عليه وآله ما معناه أن الله خلق العرش والكرسي من نوري ونوري أشرف من العرش والكرسي ، وخلق الملائكة من نور علي عليه السلام فنور علي أشرف من الملائكة ، وخلق السموات السبع والأرضين السبع من نور فاطمة عليها السلام فنورها أشرف من السموات والأرضين ، وخلق الشمس والقمر من نور الحسن عليه السلام فنور الحسن عليه السلام أشرف من الشمس والقمر ، وخلق الجنة والحور العين من نور الحسين عليه السلام والحسين عليه السلام أشرف من الجنة والحور العين ، فإذا تدبرت وجدت أن هذه المذكورات كل الوجود أو مبادئه التي أوجدت باقي الأكوان وتكونت باقتران بعضها ببعض ، فإذا كان كذلك فهم مهابط فيض الله ومعادن حكمته وينابيع قدرته ، وإرادة الرب في مقادير أموره تهبط إليهم ويصدر من بيوتهم الصادر لما فعل من أحكام العباد ،

فهم قبلة الآفاق وباب الله لخلائق على الإطلاق فلا يتوجه متوجه إلى الله تعالى إلا بهم ، وفي الزيارة ((من أراد الله بدأ بكم ومن وحده قبل عنكم ومن قصده توجه بكم)) وقالوا عليهم السلام ((نحن وجه الله الذي يتوجه إليه الأولياء)) ، وهم المقامات التي لا تعطيل لها في كل مكان ، فكانوا عليهم السلام قبلة كل عالم بحسبه إلى أن ظهروا في العالم الجسماني بالهياكل البشرية ، ولما كانت الصلاة هي جهة توجه العبد إلى الله بكل كينونته ومنها الآلات الجسمانية فوجب أن يكون وجه الأجسام وقبلتها مبدؤها منها ، فوجب التوجه إليه تعالى في الصلاة بذلك المبدأ ، ولما كانت أجسادهم المنورة المطهرة عليهم السلام هي مبدأ الأجسام والعناصر والإسطرلاب وجب أن تتعين القبلة لكنها ما تعينت لوجهين ، أحدهما لو أمر الناس بأن يتخذوهم عليهم السلام قبلة كانوا يعبدونهم ويتخذونهم أربابا من دون الله كما عبدوهم واتخذوهم من دون ذلك ، فكان جعلهم القبلة إعانة لأهل الباطل في باطلهم فكانوا سبب ضلال الخلائق بعدما جاءوا لهدايتهم ، وكان فيه توهم الناس أنهم يريدون أن يعبدوا من دون الله فجعلوا أنفسهم قبلة وكانوا يتمسكون به في تكذيبهم عليهم السلام وكانوا كيف يرضون بذلك ، مع أنه تعالى لما أمر الخلائق بطاعة علي عليه السلام

والائتمار لأوامره والانتهاء عن معصيته ارتدوا على أعقابهم كفارا عاندين عن الحق ، فكيف إذا جعلهم قبلة لهم لا كانوا يرضون به ولا ثبتت للإسلام كلمة أبدا .

وثانيهما أنهم عليهم السلام لما ظهروا بالهياكل البشرية جرت عليهم مقتضياتها من الأكل والشرب والجماع والنقل من مكان إلى مكان آخر فما كانوا يستقرون في مكان معين حتى يتوجه إليهم الخلق في ذلك المكان عند الاستقرار واللبث في المكان الواحد لم تنتشر في المكان الواحد وإنما خروج عن مقتضى فكان في ذلك توهم وتبليس ، ولو كانوا في أمكنة شتى لم يتمكن الخلق من التوجه إليهم حيث كانوا إذ ليست لهم تلك البصيرة ليشاهدوهم عيانا أينما كانوا ، وإعطاء هذه البصيرة يكشف الغطاء خلافا لما جرى عليه نظام الخلق وتدبير العالم ، فلم يبق إلا أن يكون جسم من المبادئ من سنخ أجسامهم في الأرض وقد قالوا عليهم السلام إن طينتنا خلقت من عشر قبضات خمسة من الجنة وخمسة من الأرض ، فأما الخمسة التي من الأرض هي بيت المقدس وأرض مكة والمدينة والكوفة وحائر الحسين عليه السلام ، وكل من هذه الأراضي صالحة أن تكون قبلة لكونها وجها من وجوههم عليهم السلام إلا أن الحائر أشرفها ثم الكوفة ثم المدينة ثم مكة ثم بيت المقدس ، وأدناها بيت المقدس

وأعلاها حائر الحسين على ساكنه آلاف التحية والشرف ، والحائر والكوفة والمدينة لم تقتض المصلحة أن تكون له قبلة لوجوه كثيرة منها ما ذكرنا في عدم تعيين أبدانهم المقدسة لإشراك المحذور فإن تلك الأماكن منسوبة إليهم عليهم السلام من حيث هم ، ولذا قال الصادق عليه السلام لما قيل له : وإن أرض كربلاء مع كونها أشرف من أرضا مكة وأعلى منها ما صارت قبلة ومقصدا للحجاج والعباد وصارت أرض مكة كذلك مع أنها أولى منها قال عليه السلام ((كان علي عليه السلام يقول : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بمسح ظاهر القدم كان مسح باطن القدم أولى)) ، وهذا الجواب كما ترى إشارة إلى أن كربلاء كانت أولى بأن تكون قبلة ومقصدا للحجاج لأن الله سبحانه خلقها قبل خلق الخلق بأربعة وعشرين ألف عام وأنها لم تزل طيبة طاهرة مقدسة وهي أعلى طبقات الجنة لم يسكنها إلا الصديقون ، إلا أن الحكم الإلهية والمصالح الربانية اقتضت أن تكون القبلة أرض مكة ، وحقيقة الأمر في ذلك أن أرض كربلاء بمنزلة القلب وأرض الكوفة بمنزلة الصدر في الإنسان وأرض المدينة بمنزلة الدماغ وأرض مكة بمنزلة الوجه فظهور القلب إنما كان بالوجه لأنه دليله وآيته ، ولذا لا يعرف الشخص إلا بالوجه ولا يتوجه إلى القلب إلا بالوجه والتوجه إليه هو

التوجه بالقلب ، وكذلك مكة ظاهر كربلاء ووجهها ودليلها فالتوجه إلى مكة هو التوجه إلى كربلاء إذ لا يؤتى إلى الوجه إلا من جهة الوجه ، فلا تؤتى كربلاء لإقامة وأداء المناسك وقيام مراسيم العبودية إلا من جهة أرض مكة ، فالإتيان إلى مكة هو الإتيان إلى كربلاء فكانت كربلاء هي القبلة لأنها أشرف القبسات إلا أن ظهورها بمكة ، ولذا كانت مكة أم القرى لأن الأرض قد دحيت من تحتها لأنها حامل ظهور الأرض الأصل الذي هو كربلاء ، لأنها أول بقعة خلقها الله سبحانه قبل خلق العالم ، ولما أن مكة حكت مثالها وظهورها فكانت الأرض في مقام الظهور والتفصيل وبروز الإجمال إلى التفصيل إنما دحيت من مكة فكانت الظهور هي القبلة والمطاف ما دامت الدنيا موجودة ، وبعد خراب الدنيا وقيام القيامة وذهاب القشور وفناء الظواهر ورجوع العالم من عالم القشر إلى عالم اللب كان المقصود والمطاف هو أرض كربلاء لدلالة الأخبار على أنها أشرف طبقات الجنان التي فيها محمد وآله صلوات الله عليهم ، وأهل الجنة في كل جمعة يأتون لزيارة الرب عندهم ، لأن من زارهم كمن زار الله ، كما أن الخلق الآن يأتون لزيارة الرب إلى مكة فافهم .

ثـم إن كربـلاء هـي ذكـر الحسـين عليـه السـلام ونسـبته ، والكوفة هي ذكر مولانا أمير المؤمنين ونسبته ، والمدينـة هـي ذكـر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكأن كربـلاء وأخواتـها نسـبتها إلى مكة كنسبة القرآن كـلام اللـه تعالى إليـهم ، فإنـهم وإن كـانوا أفضل من القرآن لأنهم الذين حملوا القرآن وأظـهروه في هـذا العالم إلا أن في القرآن ذكر الله أعظم فكأن القرآن يحكي عن الله مع أنه إليهم عليهم السلام ، فمثلا إذا قلت أنـا قـال اللـه عـز وجـل كـذا وكذا ، وقال النبي صلى اللـه عليـه وآلـه كـذا وكـذا ، وقـال أمـير المؤمنين عليه السلام كذا وكذا ، وقـال الحسـين عليـه السـلام كـذا وكذا ، وهذه الأقوال الأربعة كلها منسوبة إلي ومتقومة بي وصادرة عني إلا أنك حين التفـاتك إلى قـول الإمـام ملتفـت إليـه ذاهـل عـني فكأنك ترى صفاته كلها عند الالتفات إلى قوله الذي أنا حكيت لك لا عند ذاتي ولا عند قولي ، وكذا حين التفاتك إلى قول النـبي صلـى الله عليه وآله وقول الله عز ذكـره ، فـترى ذكرهمـا عنـد قولهمـا الذين حكيتهما عنهما لا غير فتجري كل صفة عند ذكر موصوفـها ، وهكذا الكلام في الأراضي المذكورة ، فكانت أرض مكة ذكر الله الذي حكاه الحسين عليه السلام بمقامـه في أرض كربـلاء ، فلنقبـض العنان فللحيطان آذان فما أسـعدك لـو وفقـت لفـهم مـا ذكرنـا مـن

السر الحق والكبريت الأحمر ، مع أنا نقول لو جعلت تلك الأراضي قبلة ما أطاعت الناس لما ذكرنا من معاداة صاحبها والحال فيها ، فإن بين الحال والمحل مناسبة لا تخفى .

وأما بيت المقدس لكونه ضعيفا في القوة والشدة في النورانية لم تصلح لاستمرار القبلة فكانت القبلة قبل البعثة وقبل نضج الكينونة لما فيها من رشح طينتهم فصلح أن تكون قبلة لهم ، وأما بعد نضج البدن وصفاء القلب وقوة المعرفة وجب نسخ كونها قبلة وجعل الكعبة قبلة مستقرة إلى فناء الدنيا ، وبعد ذلك وحصول النضج التام والنور العام والعقل الشامل يستقر الأمر على الأصل الواقعي الأولي ، ويرجع العود كالبدء ويظهر قوله تعالى ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ﴾ (١) وذلك الساق ساق علي بن أبي طالب أمير المؤمنين روحي له الفداء كما دلت عليه الأخبار وشهد بصحته العقل ، فرجت القبلة إلى أصلها وحقيقتها لما ذهبت الأغيار وصفت المدارك عن الأكدار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ، ونزيدك إنشاء الله تعالى عن هذا المرام في الحج ، ولا يجوز استدبار القبلة اختيارا لما

---

(١) القلم ٤٢ — ٤٣

ذكرناه ، وأما حال الاضطرار فيبطل حكم الظاهر ويغلب حكم الباطن فيصلي كيفما تمكن أينما تولوا فثم وجه الله ، فافهم وأتقن .

فإذا عرفت أن القبلة الجسمانية وجه من وجوه آل محمد صلوات الله عليهم فلا يصح الصلاة إلى الفرع إذا لم يكن التوجه إلى الأصل ، لأنهم القبلة الواقعية والسبيل الحقيقية ، فالعبد إذا لم يتوجه بهم إلى الله تعالى فلا ينفعه الوجه إلى القبلة الظاهرية ، ولهذا نقل المخالف والموافق عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال ((قال الله تعالى لو أن عبدا عبدني حتى يصير كالشن البالي وحج ألف حجة واعتمر ألف عمرة وغزا ألف غزوة وقتل بين الركن والمقام مظلوما شهيدا ، ثم يأتيني غير موال لعلي بن أبي طالب ما نالته رحمتي وأكبه على منخريه في نار جهنم)) فانظر ماذا ترى ثبتك الله وإيانا بالقول الثابت .

المقدمة الخامسة : في المكان .

اعلم أن المصلي حقيقة هو العقل لأن مقامه مقام العبادة وهو أول واقف مقام ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (١) لأنه أول مقام

---

(١) الفاتحة ٥

الصحو وما قبله مقام السكر والفناء والزوال وفقدان النفس ووجدان الرب ودخول المدينة على حين غفلة من أهلها ، فالمصلي هو العقل ولذا ترى المجنون والصبي والنائم والسكران والمغمى عليه لا يصلون ، فمنهم من لا يمكنهم ومنهم من لا يكلفون وإن قدروا على تحصيل الصورة ، لأن الأصل الذي عليه مدار الصلاة وسائر التكاليف مفقود فيهم وهو المكلف بالأصالة حين قال له الحق أقبل وأدبر ، وغيره إنما كان تكليفه بالتبع والعرض ، والعقل مكانه ومحله القلب الذي هو عرش الرحمن وبه يقول الشخص أنا ، وظهور العقل الذي في القلب في الدماغ ، ولما كانت الصلاة هي التوجه إلى الله تعالى بالكينونة فيكون المسجد محل الصلاة والعبادة هو القلب ، فيجب أن يكون طاهرا عن روث الكفر وإضمار ما لا يحبه الله تعالى من الحسد والعجب والكبر وحب الرئاسة وأمثال ذلك مما مكانه الركن الأيسر من القلب فإنها كلها نجاسات تبطل بها الصلاة لأنها معراج المؤمن ، فلا يعرج القلب مع ما عليه من ظلمات الكفر والفسق ومطلق ما لا يحبه الله سبحانه ولا يرضاه ، ولأن الصورة الإنسانية في الهيكل البشري في الجسم الظاهري إنما ظهرت على هيئة العقل وكينونته لأن شكله الاستقامة والخضوع والتذلل والفناء والبقاء ، والنعيم في الشقاء والعز في الذل وأمثاله مما حكته الصورة

الإنسانية الظاهرية مما يستقر عليه البدن الظاهري الحاصل للصورة الحاكية للعقل وصورته وصفته وهيئته يجب أن تكون طاهرة عن النجاسات وصافية عن درن الظلمات ، ولما وجب أن تكون الصلاة وسائر العبادات صادرة عن قلب خالص مؤمن متقن على بصيرة تامة ومعرفة كاملة عامة في الله سبحانه وصفاته وأسمائه ومعرفة أنبيائه وأوليائه ومعاداة أعدائه ومنكريه والإيمان بكل ما جاءت به أنبياؤه وأتت به رسله ولا يصح صدورها عن قلب كافر غير بصير وغير مؤمن بالله سبحانه وتعالى وأوليائه ومعاداة أعدائه ، فيجب أن تكون الصلاة وسائر العبادات على قلب مخلص طاهر مؤمن في العالم الأول عن بصيرة حقيقية ومعرفة كاملة في ولاء آل الله ، ولا تصح إذا كانت عن قلب كافر منافق في العالم الأول ولكن أصابه لطخ من سنخ قلوب أولياء الله المقتضي للإيمان وحسن الأخلاق العرضي الغير الذاتي كالصورة الإنسانية التي في غير المؤمن فإنها ليست له وإنما هي غصب اغتصبها الكافر لحصول مآربه ومقاصده من التعيش والتلذذ في هذه الدنيا وإغواء سائر الخلق كما حكى عنهم سبحانه وتعالى ﴿ ولأمنينهم ولآمرنهم ..﴾ (١) ، فما عندهم من

---

(١) النساء ١١٩

الخير والصلاح والسداد وفعل أعمال البر كذلك ، ذلك من مقتضيات لباس التقوى التي هي مختصة بالمؤمنين قد اغتصبها الكافرون ، فأعمال هؤلاء عمل على المكان المغصوب لا ينفعهم وإنما يضرهم ونفعه يرجع إلى صاحب اللطخ وأصله إذا رجع كل فرع إلى أصله ، كمن زرع في الأرض المغصوبة وتاجر بالمال المغصوب لا ينفعهم ، وما عند المؤمن من سوء الخلق وسوء الفعال والأعمال فإنما هو لطخ أصاب المؤمن حين إتيانه إلى هذه الدنيا فهو من ظلم المنافقين والكافرين وأعداء الأئمة الطاهرين ألا لعنة الله على الظالمين .

وعلى ما شرحت لك وفصلت لك ظهر حقيقة الأمر في الإيمان المستقر والمستودع والكفر المستقر والمستودع ولا بد أن يزول المستودع ويرجع الأمر إلى المستقر من الطرفين ، ولذا ترى الرجل مؤمنا صالحا في كل أوقات عمره بحيث ظن الناس أنه من أهل الجنة ثم يختم له بالسوء فيموت على ولاية أعداء الله ومعاداة أولياء الله فيدخل جهنم وبئس المصير أعاذنا الله من ذلك ، وتجد الرجل كافرا وفاسقا طول عمره حتى ظن الناس أنه من أهل النار فيختم له بالخير والسعادة ويموت على ولاية أولياء الله ومعاداة أعدائه فيكون مصيره إلى الجنة وهي خير مستقر وأحسن مقيلا ،

وهذا هو مضمون الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله ، فنور المؤمن عند الكافر غضب وعليه مقر أفعاله الحسنة ، وظلمة المنافق عند المؤمن ظلم وعليه مقر أفعاله الخبيثة .

واعلم أن الإجماع قد حصل على أن الصلاة في الأرض المغصوبة والمكان المغصوب فاسدة باطلة ، وأما غير الغصب مما ورد النهي عن ذلك فعلى القول بأن الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده العام ، واجتماع الأمر والنهي في الشيء الواحد جائز على اعتبارين يقتضي صحة الصلاة عليه ، مثل الصلاة في المسجد قبل إزالة النجاسة عنه إذا كان المسجد نجسا ووقت الصلاة متسع لصحة الاجتماع على القول الأصح وعدم اقتضاء الأمر النهي للضد الخاص قطعا ، وعلى القول بعدم الجواز لا يجوز ، فالفريقان اتفقا على الصلاة في المكان المغصوب واختلفوا في غيره ، والسر في ذلك ما أشرنا إليه لمن كان له قلب وألقى السمع وهو شهيد من أن الغصب في الحقيقة شيء لا أصل لذاته وإنما هو لغيره وإلى غيره ، وأما غيره كالصلاة في المسجد قبل إزالة النجاسة فالصلاة قد وقعت على المكان اللائق بها وغاية ما في الباب أن المصلي ترك أمرا آخر مما ليس جزء من الصلاة ولا شرطا وذلك يورث كدورة أخرى في الشخص لا الصلاة وقد يمحوها نور الصلاة إذا أراد الله وشاء

التفضل عليه ، وقد لا يمحوها لأنه خارج لا دخل له بوجه بخلاف الغصب ، وإن كانت قاعدة الاجتماع في الأمر والنهي وعدم اقتضاء الأمر والنهي بالوجه الذي ذكرنا تقتضي جواز الصلاة إلا أنك إذا نظرت إلى حقيقة الأمر وباطنه وجدت عدم الجواز هنا ، فإن القلب إذا كان مغصوبا يرجع إلى أصله فلا ينفع الشخص الحامل أبدا بوجه من الوجوه إلا بالأمور العرضية الدنيوية وذلك لا يكون مؤسس الحكم ولا موصل أصل ذلك الحكم إذا كان نجسا ، وأما إذا كان الشخص طائعا فاعلا للخير في مقام وعاصيا فاعلا للشر في مقام آخر فإن أعمال هذا الشخص لا ترد عليه ولا يحكم بالبطلان لأن الشر لا يحيط بالخير ولا يبطله لقوة الخير واجتثاث الشر ، والإحباط ليس من مذهبنا .

فإذا عرفت أن المصلي والعابد هو العقل وحده ومحله ومكانه القلب وسائر القوى والآلات مراكب للعقل فيكون المسجد في الحقيقة هو القلب لأنه محل العبادة ومنه تنشأ إلى غيره بالعرض ، ولما كان الرجال فيهم جهة العقل أقوى وأكثر وقلبهم أوسع وأشرف ولما كان القلب هو الشيء المعبر بأنا فكان الرجال هم المساجد وهم البيوت التي يعبد الله فيها ويذكر فيها اسمه وقد قال عز وجل إشارة إلى هذا المعنى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح

له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ (١) على قراءة المبني للمجهول في يسبح فيكون الرجال هم البيوت التي أذن الله أن ترفع لأن الرجل هو محل العقل لا سواه ، كما أن النساء محل النفس لا سواهن ، ومرادي بالمحل في المقامين المحل الغالب حتى يكون المغلوب المضمحل في حكم العدم ، كما يقال أن فلانا صفراوي المزاج وذلك معلوم ، فإذا كان الرجال هم المساجد فلا شك أن كل من غلب عليه حكم الرجولية أي يكون مخلصا في الطاعة لله تعالى يكون هذا المعنى فيهم أظهر ، ولما كان آل محمد صلى الله عليه وآله هم المخلصون في توحيد الله والتامين في محبته والموافين في طاعته فيكونوا سلام الله عليهم هم المساجد وهم أشرفها وإليهم يرجع قوله تعالى في التأويل ﴿ إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ (٢) وهم الذين كانوا لله بحيث قطعوا عن أنفسهم وفنت إرادتهم ومشيئتهم عليهم السلام في إرادة الله ومشيئته ، ثم بعدهم الأنبياء عليهم السلام مساجد الله يعبد الله عز وجل فيها لأن قلوبهم هي محل عبادة العقل وجنوده من الملائكة الصافين المسبحين المهللين المستغفرين ، ثم بعدهم المؤمنون الأتقياء

---

(١) النور ٣٦ — ٣٧ (٢) الجن ١٨

والصلحاء مساجد الله عز وجل .

ولما كان العالم الأسفل حكاية للعالم الأعلى كما قال مولانا الرضا عليه السلام ((قد علم أولوا الألباب أن ما هنالك لا يعلم إلا بما ههنا)) فحكت ذرة من ذرات العالم السفلي ظهورا من ظهورات العالم العلوي فصار أشرفها على مقدار حكاية ذلك الظهور ، فإن كانت الحكاية عن العالم العلوي كان الحاكي أشرف المقامات في العالم السفلي وإن كانت عن الأسفل كان أسفل ، فالمساجد الثلاثة وتوابعها لما كانت منسوبة إلى محمد وآله صلى الله عليه وآله كانت أشرف المساجد وأعلاها وأقربها إلى الله عز وجل وأدناها هي المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وآله ومسجد الكوفة ، فالأول منسوب إليهم من حيث باطنهم وسرهم الذي هم فيه آيات الله وكلماته ومقاماته وعلاماته التي لا تعطيل لها في كل مكان ، فكان المسجد لهذه الجهة منسوبا إلى الله عز وجل بهم ولكن في مقام اسم الفاعل ، والاسم عند ظهور الذات مضمحل كما إذا قلت يا قائم لا تتوجه إلا إلى الذات ولا تلتفت إلى الصفة ولا إلى جهتها ، ومن هذه الجهة كانت الصلاة تعادل ألف صلاة في مسجدي ، ذلك لأن تلك النسبة في مقام الذات والفؤاد وهي جامعة جميع المراتب الوجودية مع العشر قبضات المذكورة التي

لوحظت في نفسها لنسبة بعضها مع بعض ، وظهور العوالم والمقامات الحاصلة بالقرانات فكان الحاصل بعد اللحاظ مائة ، ثم ملاحظة المائة في الأطوار العشرة المتنزلة المترتبة وهي الفؤاد والعقل المرتفع والعقل المستوي والعقل المنخفض والروح والنفس والطبيعة والمادة والمثال والجسم فكان الحاصل ألفا فإذا لوحظ قران هذا الألف بعضه مع بعض ونسبته كان الحاصل ألف ألف ، وهذه المراتب كلها متوجهة إلى الله ومستغرقة لنسبة المسجد الحرام فكان لكل مقام ثواب فبلغ أوفى الثواب هذا المبلغ ويضاعف الله لمن يشاء من فضله وكرمه ، وقد ورد أيضا أن الصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة وهنا ملاحظة كليات المقامات ، وهي بعد التفصيل والتشخيص تبلغ ألف ألف .

والثاني مسجد النبي صلى الله عليه وآله منسوب إلى مقام النبوة المطلقة الخاصة بالحقيقة المحمدية ، والنبوة في مقام العقل الرسول إلى كافة الخلق بالإقبال والإدبار وهو أول مقام النهاية تحت مقام الفؤاد الذي هو عالم اللانهاية ، فيكون بينهما هذه النسبة فإن الألف ألف في المقام الأعلى ألف في المقام الأسفل لسعة تلك الدائرة وضيق الأخرى مع وقوعها بحذاء الأولى فافهم ، ولذا أن الصلاة

بعشرة ألف صلاة لأن مراتب عالم اللانهاية ومقامات الفـؤاد منتفية في ذلك العالم فينقص

والثالث أي مسجد الكوفة منسوب إلى مقام الولاية المطلقـة التفصيلية وهي مقـام النفـس الظـاهرة بالتدبـير ، والولايـة في البـدن والعالم بـأمر اللـه تعـالى وإذنـه وحكمـه ومشـيئته وإرادتـه وتقديـره وقضائه وإمضائه ، فتكون الصـلاة فيـها تعـدل ألـف صـلاة لكونـها أنزل من مقام العقل مرتبـة واحـدة ، والعشـرات إذا تـنزلت كـانت آحاد ، ورواية الألف في مسجد النبي صلى الله عليـه وآلـه محمولـة على كليات المقامات التي تفصيلها يبلغ العشرة الأخـر ، وإنمـا كـان التنزل من الألف ألف إلى عشرة آلاف مع كون الرتبـة نازلـة بمرتبـة واحدة في المسجد الحرام بالنسبة إلى مسجد النـبي صلـى اللـه عليـه وآله ، والقاعدة أن يكون في مسجد النبي صلى الله عليه وآله مائـة ألـف إذا كـان في المسـجد الحـرام ألـف ألــف ، وكــان الـنزول في الأخيرين بمرتبة واحدة نـزول عشـرة آلاف إلى الألـف لأن في مقـام الفؤاد ومحل نسبة المسجد الحرام مقامين ، أحدهما الوجه الأعلى من الفؤاد وهو في ذلك المقام آية ودليل التوحيد والنسبة في هذا المقام ، وثانيهما مقام الفؤاد أي الحقيقة والوجود واقترانه بالماهية ، ثم مقـام العقل فيكون التنزل هنا في مقامين فكانت المائة ألف عشـرة آلاف ،

بخلاف العقل والنفس فإن بينهما برزخ لا يبغيان والبرزخ لا يترتب عليه أي حكم في هذا المقام وفي هذا اللحاظ ، وإلا فالأحكام المترتبة عليه كثيرة ليس الآن موضع ذكرها وتفصيلها .

وأما مسجد السهلة فهو وجه القوى المتشعبة عن النفس والصدر كالمتخيلة والمتوهمة والمتفكرة وأمثالها وكلها وجوه النفس وتفاصيلها ، وكذلك الحكم هنا أيضا ، ولذا ورد ((وإن فيه لصخرة خضراء فيها مثال كل نبي ، ومن تحت تلك الصخرة أخذت طينة كل نبي وإنه لمناخ الراكب ، قيل : ومن الراكب ، قال عليه السلام : الخضر)) (١) .

الخضر وجه من الخضر الأعظم الذي موضعه مسجد الكوفة الحاصل للنور الأخضر فافهم فإن بالبيان يطول الكلام ، وقوله الراكب إشارة إلى ما ذكرنا فإن النور الأخضر بذاته ليس راكبا للمواد الجسمية وإنما ركوبه بآلاته وقواه ومشاعره وتفاصيل ظهوراته التي محلها الدماغ ، وتحته صورة الوجه الإنساني الذي به يعرف الشخص لا بغيره من الأعضاء والجوارح ، وقوله عليه السلام ((وفيه صخرة خضراء فيها مثال كل نبي)) لأن الأنبياء

---

(١) الكافي ٣ / ١٩٤ ح١

تفاصيل ظهور الولي المطلق فظـهرت خاصيـة المتمكـن في المكـان لما بينهما من المناسبة الذاتية والرابطة الحقيقية .

ولما كان المســجد هـو محـل السـجود والخضـوع والخشـوع والذلة والمسكنة لله سبحانه كان الحـائر المقـدس علـى سـاكنه آلاف التحية والشرف من أعظم المساجد وأشرفها ، لأنه روحي له الفـداء وعليه السلام وقع هنـاك جديـلا صريعـا سـاجدا خاضعـا خاشـعا لله سبحانه فاديا نفسه وأهله وعياله وإخوانه وأصحابه وأمواله في محبتـه تعالى وطلب رضاه ، وإظهار الخضوع والذلـة والمسـكنة لـه تعـالى ، حتى صار خضـوع كـل خـاضع بفـاضل خضوعـه ، وخشـوع كـل خاشع بفاضل خشوعه ، ولم يكن له مراد سـوى محبـة اللـه سبحانه وحفظ نظام حكمته ، فكان مقتله الشريف مسـجدا عظيمـا خضـع وسجد لله تعالى فيه ، ولذا قارنه الله تعالى بالمساجد الثلاثـة ونسـبها إلى نفسه وشرفها على جميع المساجد علـى وجـه الأرض والسـماء ، وجعـل للمسـافر خيـار للقصـر والإتمام في هـذه المواضـع المقدسـة المشرفة ، لعظم الأنوار الإلهية النازلة في هذه الأماكن المشرفة ، فتزيد الصلاة بها نورا وبهاء وشرفا وسناء ، فـإذا أكملـها المصلـي كـانت أعظم في نورانيتها وأكمل في شرافتها وأرفع لدرجاته بها فأحب الله أن لا يحرم المصلي المؤمن بالله الكافر بالجبت والطاغوت عـن تلـك

الغيوث العظيمة والأنوار الجسيمة التي بها ينال أشرف الدرجات وأسنا الكرامات ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولذا ورد عن مولانا الصادق عليه السلام ((من الأمر المذخور إتمام الصلاة في أربعة مواطن بمكة والمدينة ومسجد الكوفة وحائر الحسين عليه السلام)) (١) ، وما زاد شرف هذه المساجد إلا لعظم شرف من انتسبت إليهم هذه المساجد التي هي رشحة من رشحات أمطارها ولمعة من لمعات أنوارها ، ولو كان لي قلب مجتمع وإقبال وفراغ بال لبينت لك في هذه المقامات أمور عجيبة ، وذكرت لك تفصيل الأمر في أن المسجد الحرام مع كونه أسفل وأدنى من مسجد النبي صلى الله عليه وآله وهو من مسجد الكوفة وهو من الحائر المقدس تكون ثواب الصلاة فيه أكثر ، وأصل شرافة هذه المواضع والتفاصيل الحاصل لبعضها على بعض ، وإن أشرت إلى كل ذلك وربما أزيدك إنشاء الله تعالى في مبحث الحج .

وأما المسجد الأقصى أي بيت المقدس فهو يحكي ظهور الأنبياء عليهم السلام وخضوع عقلهم بجنوده في قلبهم لله تعالى ، والمسجد الأعظم الجامع في كل بلدة يحكي ظهور ما عدل من

---

(١) الفقيه ١ / ٤٤٢ ح ١٢٨٣

العدول الذين لهم عليهم السلام في كل خلف ينفون عن دينهم تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وهم الذين قال عليه السلام فيهم ((فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله)) (١) كما عن الحجة عجل الله تعالى فرجه ، وهؤلاء هم المسجد الأعظم في كل بلد وهم المرجع لأهل ذلك البلد ، ومسجد المحلة والسوق إشارة إلى سائر الشيعة من الخواص مما لم يبلغ مبلغ أولئك الأشخاص فافهم .

المقدمة السادسة : ما يسجد عليه .

اعلم أن السجود لا يجوز إلا على الأرض أو ما ينبت منها غير مأكول ولا ملبوس لأن السجود على ما يأتي إنشاء الله تعالى خشوع وخضوع وذلة لله تعالى بوضع الجبهة التي هي أشرف المواضع الظاهرة على أذل الأشياء وأخضعها وليس إلا التراب لأنه طبع الموت والفناء والاضمحلال والذلة والمسكنة والفقر والفاقة ، وكذلك ما ينبت منها إذا لم يبلغ النضج التام والاعتدال العام الذي يصل إلى حد يليق للأكل واللباس ، ولما روى هشام بن الحكم قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام أخبرني بما يجوز السجود عليه وما لا يجوز ، قال عليه السلام ((السجود لا يجوز إلا على الأرض أو

---

(١) البحار ٢ / ٩٠ ح ١٣

على ما أنبتت الأرض إلا ما أكل أو لبس ، فقلت له : جعلت فداك وما العلة في ذلك ؟ قال عليه السلام : لأن السجود خضوع لله عز وجل فلا ينبغي أن يكون على ما يؤكل أو يلبس لأن أبناء الدنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون والساجد في سجوده في عبادة الله عز وجل فلا ينبغي أن يضع جبهته في سجوده على معبود أبناء الدنيا الذين اغتروا بغرورها ، والسجود على الأرض أفضل لأنه أبلغ في التواضع والخضوع لله عز وجل)) (١) .

والسجود على التربة المقدسة الشريفة الحسينية على ساكنها آلاف التحية والثناء أفضل من الكل وأشرف كما قال عليه السلام ((السجود على طين قبر الحسين عليه السلام ينور إلى الأرض السابعة)) (٢) لأنها تربة الخضوع والخشوع والاستكانة لله سبحانه وقد خضعت وذلت وأقرت لله تعالى بالعبودية والرقية قبل أن يخلق الله الخلق بأربعة وعشرين ألف سنة ، مع أنها طيبة طاهرة مصفاة عن جميع الأكدار ، وهي المراد من قوله تعالى ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ (٣) وهي القطع الطاهرة المتجاورة الغير المتخلل بين تلك القطعات قطعات ملعونة وأراض خبيثة أو غبار خارجي خرج

---

(١) الفقيه ١ / ٢٧٢ ح٨٤٣ (٢) الفقيه ١ / ٢٨٦ ح ٨٢٩ (٣) الرعد ٤

من الأراضي الممسوخة والسبخة ، كيف لا وقد أشرق عليها نور الشمس الكبرى وخر عليها أعظم أركان العرش الأعظم الأعلى وتجلى عليها نور قد كان نور المتجلي على الطور جزء من مائة ألف ألف ألف ألف ألف جزء من رأس الشعير من ذلك النور الواضح الأجلى ، وقد روي في الكروبيين أنهم قوم من شيعتنا من الخلق الأول جعلهم خلف العرش لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم ، ولما سأل موسى ربه ما سأل أمر رجلا منهم متجل أن يتجلى له بقدر رأس الإبرة فدك به الجبل وخر موسى صعقا ، فإذا كان بقدر سم الإبرة من نور شيعة الحسين عليه السلام قد دك به الجبل وتخلل النور في كل جزء من أجزائه وصفاه عن جميع الكدورات ثم جعله أربع قطع قطعة منها وقعت في البحر وكان غذاء للحيوانات البحرية ، وقطعة منها ساخت في الأرض وكانت غذاء للجن وسائر الحشرات ، وقطعة منها طارت في الهواء وكانت غذاء للحيوانات البرية وهي الهباء المبثوث ، وقطعة منها بقيت في الأرض كما عن أمير المؤمنين عليه السلام ، فما ظنك بما يقع عليه نور الحسين عليه السلام الظاهر بالخضوع لما وقع من جواده صلوات الله عليه فتزلزلت الأرض وخرت الملائكة وتخلل النور في كل أجزاء الأرض فطهرها طهارة لم يوجد مثلها في الدنيا فلم يبق

عليها وسخ حتى تكون بذلك مضرة بشيء من الأشياء بوجه من الوجوه ، فكانت تلك التربة المطهرة من هذه الجهة شفاء من كل داء وسقم على جهة العموم في كل نوع من أنواع الآلام ، انظر إلى الإكسير فإنه أرض تطهر بأنواع المعالجات فإذا طهرت كانت شفاء من كل مرض وذهابا لكل هم وغم وتصفي سائر المعادن والفلزات عن الكدورات ، وأين طهارة الإكسير وصفائه من طهارة أرض كربلاء وصفائها ، وأين نورانية جبل طور سيناء من نور أرض كربلاء فإن هذا شيء لا يقاس ولا يدرك التفاضل بالحواس ، بل الإكسير عند تلك الأرض الطيبة تكدر، وطور سيناء عند هذه الأرض المباركة ظلمانية .

فإن قلت فعلى هذا يجب أن يكون السجود على تربة النجف الأشرف والمدينة المنورة أفضل ، ويكون الشفاء من كل داء ويجوز أكلهما كما في تربة الحسين عليه السلام مع أنه ليس كذلك ، قلت : إنهما لم يظهرا بما ظهر به الحسين لمصالح ولم يظهر نورهما على تربتهما كما ظهر نور الحسين عليه السلام وعم ظهوره ، ألا ترى أن نور التجلي قد تجلى على النبي صلى الله عليه وآله في جبل فاران ولم ينقطع ولم يندك كما اندك جبل الطور وليس ذلك لأن النور الواقع على الطور أعظم كلا وحاشا بل النسبة كما ذكرنا ،

وإنما التجلي لم يكن على الجبل بل على الواقف عليه في العرش فافهم ، ولذا كانت التربة المقدسة الحسينية مسجدا للخلق كلهم وشفاء لهم من كل داء دون غيرها في الثاني والأفضلية في الأول .

وأما المعادن لما كان أصلها ومادتها الكبريت وهو من أحجار جهنم فلا تصلح لأن تكون مسجدا مع أن الفلزات وغيرها كلها من أصل تركيبها وتكوينها أرادت أن تكون ذهبا كما هو المقرر في محلها فعاقها عائق عن ذلك كشدة البرودة واليبوسة في الألماس والبرودة والرطوبة في اللؤلؤ وهكذا ، والذهب معبود أهل الدنيا فلا يجوز السجود على معبود أهل الدنيا كما تلونا عليك من الحديث ، وأما الزجاج فقد روي أن مادته الرمل والملح وهما ممسوخان وهكذا البلور أيضا ، وشرح حقيقة هذه الأحوال لا يناسب هذا المقام فليطلب في غيره في مكانه ، وهذه مجمل أسرار مقدمات الصلاة وعللها ذكرتها مع قلب مغشوش مضطرب ولا قوة إلا بالله .

الأذان والإقامة

وأما كيفية الصلاة وحدودها وأسرارها وعللها فإنا نذكر حديثا جامعا لأسرارها وأحوالها ونبين ما عسى يخفى من المعاني لغموض مآخذ هذا الحديث الشريف ونبين أيضا بعض الوجوه التي

لم تذكر في هذا الحديث وذكر في غيره ليتم تمام أسرارها بإتمام الحديث الشريف .

ذكر الشيخ الفقيه محمد بن علي بن بابويه بإسناده عن محمد بن أبي عمير ومحمد ابن سنان عن الصباح المزني وسدير الصيرفي ومحمد بن النعمان ومؤمن الطاق و عمر بن أذينة عن أبي عبدالله عليه السلام أنهم حضروه فقال عليه السلام ((يا عمر بن أذينة ما ترى هذه الناصبة في أذانهم وصلاتهم ، فقلت : جعلت فداك إنهم يقولون أن أبي بن كعب الأنصاري رآه في النوم ، فقال عيه السلام : كذبوا والله إن الله تعالى أعز من أن يرى في النوم ، وقال أبو عبدالله عليه السلام : إن الله العزيز الجبار عرج بنبيه صلى الله عليه وآله إلى سمائه سبعا ، أما أولاهن فبارك الله عليه ، والثانية علمه فيها فرضه فأنزل الله العزيز الجبار عليه محملا من نور فيه أربعون نوعا من أنواع النور كانت محدقة حول العرش عرشه تبارك وتعالى تغشى أبصار الناظرين ، أما واحد منها فأصفر فمن أجل ذلك اصفرت الصفرة ، وواحد منها أحمر فمن أجل ذلك احمرت الحمرة ، وواحد منها أبيض فمن أجل ذلك ابيض البياض ؟، والباقي على عدد سائر ما خلق من الأنوار والألوان في ذلك المحل حلق وسلاسل من فضة ، فجلس عليه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فنفرت الملائكة

إلى أطراف السماء ثم خرت سجدا فقالت : سبوح قدوس ربنا ورب الملائكة والروح ما أشبه هذا النور بنور ربنا ، فقال جبرئيل عليه السلام : الله أكبر الله أكبر))(١) .

أقول : اعلم أن هذا الحديث الشريف صلوات الله على قائله يتضمن على أسرار شريفة دقيقة من أسرار المعراج وغيره ، ولو تصدينا لشرح جميعها أو بعضها لطال الكلام فلنقتصر على ما يتعلق بالصلاة وأسرارها ، واعلم أنه يستفاد من هذا الحديث ومن غيره من الأحاديث الكثيرة أن الصلاة وغيرها من العبادات إنما شرعت بعد المعراج مع أنه كان بعد البعثة بسنتين أو سبع على الخلاف ، مع أن الأمة اتفقت على أن النبي صلى الله عليه وآله في أول البعثة كان يصلي هذه الصلاة وكان يصلي معه علي عليه السلام وخديجة عليها السلام ، وفي بعض الأخبار أيضا أن آدم عليه السلام أمر بالصلاة والوضوء في الأوقات الخمسة لزوال الشامة والسواد كما سبق فراجع ، ووجه الجمع بين المقامين في كمال الصعوبة ويحتاج بيانه إلى ذكر مقدمات وشرح أحوال إلا أني أشير إشارة للمؤمن الممتحن ، وهي أنه قد ثبت بالأدلة القطعية أن محمدا صلى الله عليه

---

(١) علل الشرائع ٣١٢ — ٣١٣

وآله علة لوجود الكائنات والمكونـات ومـا سـواه ، وأوصيـاؤه إنمـا خلقوا من شعاع نـوره وفـاضل ظـهوره ، فحيـث كـان كذلـك فلـه الهيمنة الكـبرى والولايـة العظمـى والإحاطـة علـى الكـل ، فحينمـا يصعـد في مقامـه صلـى اللـه عليـه وآلـه إلى جنـاب مبدئـه وأمكنـة حدوده ويطلع عليها ويتوجه إلى جناب بارئه يشاهد الأشياء كـلا في مقامات وجودها وأمكنة حدودها ويطلع عليـها حينمـا خلقـها اللـه تعالى في البدء الأصلي الكوني إلى أن يمر في مقاماته ويصعد إلى مقـام لا يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ففرض الله عليـه الصـلاة قبـل أن يخلق الخلق بمائة ألف دهر في ليلة المعـراج ففـرض علـى آدم حـين خلقه وأنزله إلى الأرض إياها وهكذا على الأنبياء بعد آدم إلى زمـان بعثته المباركة الشريفة فلا منافاة بين الأخبار إلا أن معرفتها حظ أولي الأفئدة من المؤمنين الممتحنين .

ولما كان الإمام عليه السلام بصدد بيان الأذان والإقامـة فـلا بأس بالإشارة إلى مـراده عليـه السـلام وذكـر وجـه آخـر أقـرب إلى الأفهام .

اعلم أن المعراج هي إقامة الصـلاة أي الاتصـال بقربـه تعـالى وبمناجاته وذكره أو نفسه الطاهرة في المخلوقين لا عين ذاته فإن ذاتـه لا تطـال وبـالأيدي لا تنـال ، ولمـا كـان الوصـال في مقـام

الذات فلا بد من إسقاط الإضافات ، ولما كان إسقاط الإضافات إنما هو بتأييده ومدده كما في قوله عليه السلام ((جذب الأحدية لصفة التوحيد)) أنزل الله عليه نورا كما وصف عليه السلام ، إذ الألوان مختلفة والطبائع متفاوتة محملا ذا حلق وسلاسل على مقتضى مقام الكثرة ، فصعد عن مقام العناصر إلى الجسد بما فيه من القوى إلى السماء الدنيا سماء ذاتها وصفتها ، فالأولى السماء السابعة وهي فلك زحل فلك العقل ، والثانية فلك القمر وهي السماء الأولى فلك الحياة التي مقرها القلب اللحم الصنوبري ، ولما كانت الملائكة قد خلقوا من شعاع نوره صلى الله عليه وآله والشعاع لا يتجاوز المنير ، فلما تجلى لهم ذلك النور الأعظم والفتى الأقوم ظنت الملائكة أن ذلك هو نور الذات جل وعلا إذ لا يدركون نورا أو مقاما أعظم من ذلك وهو قوله تعالى حكاية عنهم ((ما أشبه هذا النور بنور ربنا جل وعلا)) فأبان عليه السلام في عبوديته وأنه ليس بالذي توهمته الملائكة فقال بلسانه وهو جبرئيل ((الله أكبر الله أكبر)) من أن يوصف بهذا النور ويعرف بهذا الظهور ، بل إنما أنا عبد مربوب حقير فقير ، والله أكبر من أن ينسب إليه مثلي سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وإنما ذكر التكبير لأن ذلك مقام الكبرياء دون مقام العظمة والجلال والبهاء

وهكذا المقامات الصعودية ، وإنما كرر التكبير لما ذكرنا من إرادة الذات والصفات في السماء الأولى والسابعة وفلك الرابعة أي السماء الرابعة هي الأصل يستمد من ذات العرش ويمد السماء السابعة ويستمد من صفة العرش ويمد الفلك الأول وهو السماء الأولى ، ويستمد من ذات الكرسي ويمد السماء السادسة ، ومن صفته ويمد السماء الثانية ، ويستمد من ذات الطبيعة ويمد السماء الخامسة ، ويستمد من صفة الطبيعة الكلية ويمد السماء الثالثة ، والسماء الرابعة هي محل البيت المعمور كما يأتي إنشاء الله تعالى هي القطب والأصل وباقي السبعة فروع لها وتفاصيلها ، فلما أبان عليه السلام عبوديته للملائكة وأن الله تعالى أكرم من أن يوصف بالرؤية وبأنوار المخلوقين وصفات المحدثين اطمأنت الملائكة وسكنت وعرفت أنه نور المخلوقات زاد الإمام عليه السلام بيان أحوالهم بعد ذلك فقال عليه السلام ((فسكتت الملائكة وفتحت أبواب السماء واجتمعت الملائكة ثم جاءت فسلمت على النبي صلى الله عليه وآله أفواجا ، ثم قالت : يا محمد صلى الله عليه وآله كيف أخوك ، قال : بخير ، قالت : فإن أدركته فأقرئه منا السلام ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : أتعرفونه ، فقالوا : كيف لم نعرفه وقد أخذ الله عز وجل ميثاقك وميثاقه منا وإنا لنصلي

عليك وعليه ، ثم زاده أربعين نوعا من أنواع النور لا يشبه شيء منه ذلك النور الأول وزاده في محمله حلقا وسلاسل ثم عرج به إلى السماء الثانية ، فلما قرب من باب السماء تنافرت الملائكة إلى أطراف السماء وخرت سجدا وقالت : سبوح قدوس رب الملائكة والروح ما أشبه هذا النور بنور ربنا ، فقال جبرئيل عليه السلام : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، فاجتمعت الملائكة وفتحت أبواب السماء وقالت ، يا جبرئيل من هذا الذي معك ، فقال : هذا محمد صلى الله عليه وآله : قالوا : وقد بعث ، قال : نعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : فخرجوا إلى شبه المعانيق فسلموا علي وقالوا ، أقرأ أخاك السلام ، فقلت : هل تعرفونه ، قالوا : نعم ، وكيف لا نعرفه وقد أخذ الله ميثاقك وميثاقه وميثاق شيعته إلى يوم القيامة علينا وإنا لنتصفح وجوه شيعته في كل يوم خمسا ، يعنون في كل وقت صلاة)) (١) .

أقول : الكلام في بيان هذه الكلمات كما تقدم وإنما كان هذا المقام مقام الشهادة بالتوحيد دون سائر الأذكار لأن السماء الثانية سماء الفكر وهي فلك الكاتب عطارد وعنده الصور وترتيب

---

(١) علل الشرائع ٣١٣

التصورات في القضايا ، وفي هذا المقام يتصورون الشريك بدعوى كاذبة لكونه مقام التعدد والتكثر وتزاحم الصور المتكثرة ومقام الحجب عند الوحدة فيجوز تعدد الآلهة تعالى الله عن ذلك ، فأتى بهذه العبارة في هذا المقام أي مقام الصور فلم يبق مجال تصور الشريك وهذا الحكم جار في مقابل هذه السماء أي السادسة فلأنها فلك المشتري ومحل العلم ومأوى الحكم أي الكرسي القاضي القاعد على كرسي الحكم في الأمور المختلفة والأهواء المتشتتة ، وباقي الكلمات ظاهرة إنشاء الله تعالى .

قال عليه السلام ((قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ثم زادني ربي تعالى أربعين نوعا من أنواع النور لا تشبه الأنوار الأول وزادني حلقا وسلاسل ثم عرج بي إلى السماء الثالثة ، فنفرت الملائكة إلى أطراف السماء وخرت سجدا وقالت سبوح قدوس رب الملائكة والروح ما هذا النور الذي يشبه نور ربنا ، فقال جبرئيل عليه السلام : أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، فاجتمعت الملائكة وفتحت أبواب السماء وقالت : مرحبا بالأول ومرحبا بالآخر ومرحبا بالحاشر ومرحبا بالناشر محمد خاتم النبيين وعلي خير الوصيين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : سلموا علي وسألوني عن علي عليه السلام أخي ، قلت : هو

في الأرض خليفتي أو تعرفونه ، قالوا : نعم : وكيف لا نعرفه وقد نحج البيت المعمور في كل سنة مرة وعليه رق أبيض فيه اسم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم والأئمة وشيعتهم إلى يوم القيامة وإنا لنبارك على رؤوسهم بأيدينا)) (١) .

أقول : إنما خص الاسم الشريف بالذكر لأن السماء الثالثة مقر الزهرة وهو كوكبه عليه السلام كما فصلنا في رسالتنا في إثبات النبوة الخاصة بدليل العقل فاطلبها ، والتكرار كما ذكرنا وأما سائر المطالب فلا يتعلق بها غرضنا .

قال عليه السلام ((ثم زادني ربي تعالى أربعين نوعا من أنواع النور لا تشبه شيئا من تلك الأنوار الأول وزادني حلقا وسلاسل ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فلم تقل الملائكة شيئا وسمعت دويا كأنه في الصدور واجتمعت الملائكة ففتحت أبواب السماء وخرجت إلى معانيق ، فقال جبرئيل عليه السلام : حي على الصلاة حي على الصلاة ، حي على الفلاح حي على الفلاح ، فقالت الملائكة : صوتين مقرونين بمحمد صلى الله عليه وآله تقوم الصلاة ، وبعلي عليه السلام الفلاح ، فقال جبرئيل : قد قامت

---

(١) علل الشرائع ٣١٣ — ٣١٤

الصلاة قد قامت الصلاة ، فقالت الملائكة : هي لشيعته أقاموها إلى يوم القيامة ، ثم اجتمعت الملائكة فقالوا للنبي صلى الله عليه وآله : أين تركت أخاك وكيف هو ؟ ، فقال لهم : أتعرفونه ، فقالوا : نعم نعرفه وشيعته وهو نور حول عرش الله وإن في البيت المعمور لرقا من نور فيه كتاب من نور فيه اسم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام وشيعتهم لا يزيد فيهم رجل ولا ينقص منهم رجل إنه لميثاقنا الذي أخذ علينا وإنه ليقرأ علينا في كل يوم جمعة)) (١) .

أقول : ولما كان الملائكة في السماء الرابعة أشد إدراكا وأعظم معرفة بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته ما ظنت في نور محمد صلى الله عليه وآله كما ظنت أولئك الملائكة لقصورهم بالنسبة إلى أهل البيت المعمور ، فإن قلت : إن العالي إذا أشرق نوره على السافل فلا بد للسافل من التوهم لأنه فرق مقامه وإدراكه فيظن أن هذا الذي لا يحاط به علما ، كما قالت الملائكة لما رأوا أنوارهم سلام الله عليهم في عالم الأنوار فظنوا كلهم أن هذا هو نور الله عز وجل قد تجلى لهم فقالوا لا إله إلا الله لتعلم الملائكة أنهم عليهم

---

(١) علل الشرائع ٣١٤

السلام عباد مربوبون فكيف في هذا المقام توهمت الملائكة الثلاث بخلاف الرابعة ، قلت : إذا كان الإشراق في رتبة ذات العالي بطل السافل واحترق ، وإذا كان في مرتبة ذات السافل حيث العالي ظن السافل أنه العالي وإن كان الإشراق في مقام المعنى أي للعقل السافل فإن الواقفون مقام الإجمال لا يتوهمون ذلك ، لأن لهم نظر أعلى يرون به تعالى العالي عن ذلك ، وأما الواقفون في مقام الصورة والكثرة والاختلاف ويشرق عليهم ظهوره من عالم الوحدة والإجمال يسري فيهم ذلك التوهم لأنهم لا يرون مقام الخلق حينئذ إلا مقام الكثرة والاختلاف فإذا ظهرت لهم الوحدة وإن كانت شمولية انبساطية يتوهمون أن ذلك هو الرب ، ولما كان النبي صلى الله عليه وآله قاعدا مقام الصلاة وهو مقام العقل مقام الإجمال مقام الوحدة بالإضافة أشرق نوره صلى الله عليه وآله على الملائكة حسب مقامها لا مقامه على ذلك الطور فلم يثبت له إلا الملائكة الواقفون مقام الإجمال وهم أهل السماء الرابعة لأنها مقر الشمس وهي ابن العرش الذي هو ظهور العقل فافهم .

وإنما قال جبرئيل الذي هو لسانه صلى الله عليه وآله في هذا المقام حي على الصلاة حي على الصلاة إلى قد قامت الصلاة لأن ذلك مبدأ مقام الصلاة لما ذكرنا من أن الشمس وجه العقل

فالإعلام للصلاة إنما يكون أوله ومبدؤه هنـاك ، وإنما ذكـر في هـذه السماء بالفصول الثلاثة بالتكرار لأن في الشمس ثلاثة وجـوه ذاتيـة وثلاثة وصفية كما تقدم أن الشمس تستمد من ذات العقل وصفتـه ومن ذات النفس وصفتها ومن ذات الطبيعة وصفتـها ، ونسـبت إلى النبي صلى الله عليه وآله والفلاح إلى الولي عليه السلام حيث قالوا ((بمحمد صلى الله عليه وآله تقوم الصـلاة ، وبعلـي عليـه السـلام الفلاح)) لأن الصـلاة في مقـام وهـو صلـى اللـه عليـه وآلـه ظـاهر بمقتضى مقامه مـن رتبـة الإجمـال ، فـالفلاح بعلـي عليـه السـلام لأن العبيد لا تفلح بعد الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله إلا بعد الإيمـان بعلي عليه السلام وإن صلى وصام وأتى بجميـع الفرائـض والنوافـل وذلك ظاهر إنشاء الله تعالى ، ثم لما اقترن الإيمان بـالنبي صلـى اللـه عليه وآله بالإيمان بالوصي عليه السـلام تم ركـن الديـن وقـد قـامت الصلاة ، ثم لما أثبت حكم النبـوة والولايـة توجـه إلى اللـه سبحانه وأنه الأصـل لا سـواه ثـم قـال اللـه أكـبر ثـم أشـار إلى فنـاء الكـل واضمحلاله وإثبات الوحيد أنه لا يقصد إلا إليه ولا يعتمد إلا عليـه إذ ليس سواه شيء ولا ما عداه موجود فقال لا إله إلا الله .

واعلم أن ما ذكره الإمام عليه السلام وإن كان على الظـاهر بيان علة الإقامة وحدها دون الأذان ويشهد عليه قوله صلوات اللـه

عليه ((ما تقول هذه الناصبة في أذانـهم وصلاتـهم)) ولكنـه عليـه السلام أشار إلى الأذان وعلته وسره أيضا لمن ألقي إليه السمع وهـو شهيد ، ذلك لأن كل سماء لها ظاهر وباطن وروح وجسم ، فـالأذان مقـام الظـاهر وإعـلام الجسـد والجسـم للتوجـه إلى الصـلاة ولـذا استحب جهر الصوت فيه وأدائه بالتأني لاستمتاع الظواهر لغلظتـها وقلة انتباهها ولذا كان التكبير هنا أربع مرات ، والإقامـة لاسـتماع البواطن وإعلام أهل عالم الغيب من الروح لنفس التوجه إلى الصـلاة ولذا يستحب فيه الإدراج والإسراع وعـدم التوقـف لرقـة البواطـن وسرعة انتباهها وتوجهها لذوي النفـوس المطمئنـة ، فمقـام أجسـام الأفلاك مقام الأذان وأرواحـها مقـام الإقامـة والعرش محـل الصـلاة والعبادة لأنـها لا تكـون إلا بعـد خـرق الحجـب وإبطـال مـا سـوى المعبود جل وعلا حتى لا يرى نورا سـوى نـوره ولا يشـاهد ظـهورا غير ظهوره .

وترك (قد قـامت الصـلاة) في الأذان لأنـه بعـد ليـس مقـام الصلاة ، وزادوا التكبير فيه حرصا للإسماع وكـون الظـاهر معجونـا مـن أربـع طبـائع الظـاهرة بأحكامـها ، وزادوا التـهليل في الأذان في آخره لما ذكر من وقوع الكثرة في أنفسـها وفي روابطـها وقراناتـها ،

وأما الإقامة وإن كانت مشتملة على الروابط والقرانات إلا أنها ضعيفة يكتفى بها بتهليل واحد .

فحيث بلغ بناء الكلام إلى هذا المقام فلا بأس بالإشارة إلى تفسير الأذان والإقامة على ما رواه الصدوق في التوحيد بإسناده عن زيد بن الحسن قال حدثنا موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عليهم السلام قال ((كنا جلوسا في المسجد إذ صعد المؤذن المنارة فقال الله أكبر الله أكبر فبكى أمير المؤمنين علي بن لأبي طالب عليه السلام وبكينا ببكائه فلما فرغ المؤذن قال عليه السلام : أتدرون ما يقول المؤذن ، قلنا : الله ورسوله ووصيه أعلم ، فقال : لو تعلمون ما يقول لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، فلقوله الله أكبر معان كثيرة ، منها أن قول المؤذن الله أكبر يقع على قدمه وأزليته وأبديته وعلمه وقوته وقدرته وحلمه وكرمه وجوده وعطائه وكبريائه ، فإذا قال المؤذن الله أكبر فإنه يقول الله الذي له الخلق والأمر ، وبمشيئته كان الخلق ومنه كل شيء للخلق وإليه يرجع الخلق ، وهو الأول قبل كل شيء لم يزل والآخر بعد كل شيء لا يزال ، والظاهر فوق كل شيء لا يدرك ، والباطن دون كل شيء ولا يحد ، فهو الباقي وكل شيء دونه فان ، والمعنى الثاني الله أكبر

أي العليم الخبير علم ما كان وما يكون قبل أن يكون ، والثالث الله أكبر أي القادر على كل شيء يقدر على ما يشاء القوي لقدرته المقتدر على خلقه القوي لذاته ، قدرته قائمة على الأشياء كلها إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، والرابع الله أكبر على معنى حلمه وكرمه ، يحلم كأنه لا يعلم ويصفح كأنه لا يرى ويستر كأنه لا يعصى ، لا يعجل بالعقوبة كرما وصفحا وحلما ، والوجه الآخر في معنى الله أكبر أي الجواد جزيل العطاء كريم الفعال ، والوجه الآخر الله أكبر فيه نفي كيفيته ، كأنه يقول الله أجل من أن يدرك الواصفون قدر صفته التي هو موصوف بها ، وإنما يصفه الواصفون على قدرهم لا على قدر عظمته وجلاله تعالى الله أن يدرك الواصفون صفته علوا كبيرا ، والوجه الآخر الله أكبر كأنه يقول الله أعلى وأجل وهو الغني عن عباده لا حاجة به إلى أعمال خلقه .

وأما قوله أشهد أن لا إله إلا الله فإعلام بأن الشهادة لا تجوز إلا بمعرفة من القلب كأنه يقول أعلم أنه لا معبود إلا الله عز وجل وأن كل معبود باطل سوى الله عز وجل ، وأقر بلساني بما في قلبي من العلم بأنه لا إله إلا الله ، وأشهد أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ولا منجى من شر كل ذي شر وفتنة كل ذي فتنة إلا بالله ، وفي المرة الثانية أشهد أن لا إله إلا الله معناه أشهد أن لا هادي إلا الله ولا

دليل لي إلا الله ، وأشـهد الله بـأني أشـهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشـهد سكان السموات وسكان الأرضين ومـا فيـهن مـن الملائكـة والنـاس أجمعين وما فيهن من الجبـال والأشـجار والـدواب والوحـوش وكـل رطب ويابس بأني أشهد أن لا خالق إلا الله ولا رازق ولا معبود ولا ضار ولا نافع ولا قابض ولا باسط ولا معطي ولا مانع ولا دافع ولا ناصح ولا كافي ولا شافي ولا مقدم ولا مؤخر إلا الله له الخلق والأمر وبيده الخير كله تبارك الله رب العالمين .

وأما قوله أشـهد أن محمـدا رسـول الله يقـول أشـهد الله أنـي أشهد أن لا إله إلا هو وأن محمدا عبده ورسوله ونبيه وصفيـه ونجيـه أرسله إلى كافة الناس أجمعين بالهدى ودين الحق ليظـهره علـى الديـن كله ولو كـره المشـركون ، وأشـهد مـن في السـموات والأرض مـن النبيين والمرسلين والملائكة والناس أجمعين أني أشهد أن محمـدا صلـى الله عليه وآله سـيد الأولـين والآخريـن ، وفي المـرة الثانيـة أشـهد أن محمدا رسول الله يقول أشهد أن لا حاجـة لأحـد إلى أحـد إلا إلى الله الواحد القهار مفتقرة إليه سبحانه ، وأنه الغني عـن عبـاده والخلائـق أجمعين وأنه أرسل محمدا إلى الناس بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنـه وسراجا منيرا ، فمن أنكره وجحده ولم يؤمن به أدخله الله عز وجـل نار جهنم خالدا مخلدا لا ينفك عنها أبدا .

وأما قوله حي على الصلاة أي هلموا إلى خير أعمالكم ودعوة ربكم وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وإطفاء ناركم التي أوقدتموها على ظهوركم وفكاك رقابكم التي رهنتموها بذنوبكم ليكفر الله عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ذنوبكم ويبدل سيئاتكم حسنات فإنه ملك كريم ذو الفضل العظيم وقد أذن لنا معاشر المسلمين بالدخول في خدمته والتقدم إلى بين يديه ، وفي المرة الثانية حي على الصلاة أي قوموا إلى مناجاة ربكم وعرض حاجاتكم على ربكم وتوسلوا إليه بكلامه وتشفعوا به وأكثروا الذكر والقنوت والركوع والسجود والخضوع والخشوع وارفعوا إليه حوائجكم فقد أذن لنا في ذلك .

وأما قوله حي على الفلاح فإنه يقول أقبلوا إلى بقاء لا فناء معه ونجاة لا هلاك معها ، وتعالوا إلى حياة لا موت معها ، وإلى نعيم لا نفاد له ، وإلى ملك لا زوال عنه ، وإلى سرور لا حزن معه ، وإلى أنس لا وحشة معه ، وإلى نور لا ظلمة معه ، وإلى سعة لا ضيق معها ، وإلى بهجة لا انقطاع لها ، وإلى غنى لا فاقة معه ، وإلى صحة لا سقم معها ، وإلى عز لا ذل معه ، وإلى قوة لا ضعف معها ، وإلى كرامة يا لها من كرامة ، وعجلوا إلى سرور الدنيا والعقبى ونجاة الآخرة والأولى ، وفي المرة الثانية حي على الفلاح فإنه يقول سابقوا

إلى ما دعوتكم إليه وإلى جزيل الكرامة وعظيم المنة وسني النعمة والفوز العظيم ونعيم الأبد في جوار محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وأما قوله الله أكبر فإنه يقول ، الله أعلى وأجل من أن يعلم أحد من خلقه ما عنده من الكرامة لعبد أجابه وأطاعه وأطاع ولاة أمره وعرفه وعبده واشتغل به وبذكره وأحبه وأنس به واطمأن إليه ووثق به وخافه ورجاه واشتاق إليه ووافقه في حكمه وقضائه ورضي به ، وفي المرة الثانية الله أكبر فإنه يقول الله أكبر وأعلى وأجل من أن يعلم أحد مبلغ كرامته لأوليائه وعقوبته لأعدائه ، ومبلغ عفوه وغفرانه ونعمته لمن أجابه وأجاب رسوله ، ومبلغ عذابه ونكاله وهوانه لمن أنكره وجحده .

وأما قوله لا إله إلا الله معناه لله الحجة البالغة عليهم بالرسل والرسالة والبيان والدعوة وهو أجل من أن يكون لأحد منهم عليه حجة فمن أجابه فله النور والكرامة ومن أنكره فإن الله غني عن العالمين وهو أسرع الحاسبين .

ومعنى قد قامت الصلاة في الإقامة أي حان وقت الزيارة والمناجاة وقضاء الحوائج ودرك المنى والوصول إلى الله عز وجل وإلى كرامته وغفرانه وعفوه ورضوانه .

إنما ترك الراوي هـذا الحديث ذكـر حـي علـى خـير العمـل للتقية ، وقد روي في خبر آخر أن الصـادق عليـه السـلام سئل عـن معنى حي على خير العمل ، فقـال : خـير العمـل الولايـة ، وفي خـبر آخر خير العمل بر فاطمة وولدها عليهم السلام)) (١) .

فظهر لك مما بينـا وفصلنـا أن الأذان إنمـا هـو إعـلام في عـالم الشهادة على الولاية وإقامة حدودها التي هي حدود الله تعـالى وهـي الصلاة ، والإقامة إعلام في عالم الغيب على الولاية وسـر وإجمـال لمـا اشتمل عليها ، بل هـي عبـادة أخـرى لنـداء المنـادي في العـالم الأول ألست بربكـم ومحمـد نبيكـم وعلـي والأئمـة مـن ولـده وفاطمـة الصديقـة أوليـاؤكم ، والصـلاة أيضـا ذلـك النـداء وإجابـة المنـادي فافهم .

الوضوء

فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر الحديث ، قـال عليـه السـلام حكاية عن النبي صلى الله عليه وآله ((فسجدت لله شكرا ، فقـال : يا محمد ارفع رأسك ، فرفعت رأسي ، فإذا أطناب السماء قد رفعت والحجب قد رفعت ، ثم قال لي : طأطـأ رأسـك وانظـر مـاذا تـرى ،

---

(١) التوحيد ٢٣٨ — ٢٤١

فطأطأت رأسي فنظرت إلى بيتكم هذا وحرمكم هـذا فـإذا هـو مثـل حرم ذلك البيت يتقابل لو ألقيـت شـيئا مـن يـدي لم يقـع إلا عليـه ، فقال لي : يا محمد صلى الله عليه وآله هذا الحرم وأنت الحرام ولكـل مثل مثال ، ثم قال لي ربي عز وجل : يا محمد صلى الله عليه وآله مد يدك فيتلقاك ماء يسيل من ساق العرش الأيمن ، فـنزل الماء فتلقيـت باليمين فمن أجل ذلك صار أول الوضوء باليمنى ، ثم قال : يا محمد خذ هذا الماء فاغسل وجهك ، وعلمه غسـل الوجـه فـإنك تريـد أن تنظر إلى عظمتي وأنت طاهر ، ثم اغسـل ذراعيـك اليمـين واليسـار وعلمه ذلك فإنك تريد أن تتلقى بيدك كلامي ، وامسـح بفضـل مـا في يديك من الماء رأسـك ورجليـك إلى كعبـك وعلمـه المسـح بيـده ورجليه وقال إني أريد أن أمسح رأسك وأبارك عليك ، فأما المسـح على رجليك فإني أريد أن أوطئك موطئا لم يطأه أحد مـن قبلـك ولا يطأه أحد غيرك فهذا علة الوضوء والأذان)) (١).

أقول قد سبق الكلام عن علة الوضوء مفصلا مشروحا .

تكبيرة الإحرام

ثم قال عليه السلام ((ثم قال تعالى : استقبل الحجر الأسـود

---

(١) علل الشرائع ٣١٤

وهو بحيالي وكبرني بعدد حجبي ، فمن أجل ذلك صار التكبير سبعا لأن الحجب سبعة وافتتح القراءة عند انقطاع الحجب فمن أجل ذلك صار الافتتاح سنة والحجب مطابقه ثلاثا بعدد النور الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وآله ثلاث مرات ، ولذلك كان الافتتاح ثلاث مرات ، فمن أجل ذلك كان التكبير سبعا والافتتاح ثلاثا)) (١) .

أقول : اعلم أن الإمام عليه السلام لم يصرح بذكر النية لبيان أنها ليست أمرا جسمانيا ملفوظا حتى يأمره عليه السلام بالتلفظ به ، ولا أمرا محدودا تصوريا حتى يأمره بتصورها وإخطارها بالبال ، وإنما هي قصد بسيط صرف وهو الوجه إلى الله عز وجل بسر العبودية وقد حصل عند الأمر باستقباله الحجر ، وفي حديث آخر قال ((يا محمد ادن من صاد وتوضأ لصلاة الظهر)) فالنية لا تفارق الفعل أبدا ،وإلا لم يكن ذلك الفعل عن شعور ، وهي سارية في الفعل من البداية إلى النهاية إلا أن الفاعل حين الفعل مرة دائم اللحاظ لذلك الداعي والسبب فيكون الفعل بذلك حيا تام التأثير ، ومرة ربما يلتفت إلى الغير لا بقصد الإعراض لدواعي الإعراض

---

(١) علل الشرائع ٣١٥

والشهوات كأمثالنا في صلاتنا وسائر عباداتنا لعدم التفاتنا دائما إلى الوجه الذي له أمرنا بالفعل فيكون الفعل حينئذ حيا لكنه غير تام التأثير كالنائم فإنه حي لكنه مطروح لا يؤثر شيئا .

والنية هي العقد والعزيمة على العبودية والانقياد والتسليم الخضوع والخشوع والذلة والفقر والمسكنة وأمثالها من أحوال الإمكان المودعة في سر الإنسان ، وإنما خص الحجر الأسود بالاستقبال لأنه أشرف مواضع البيت نسبته إلى البيت كنسبة الفضة إلى الخاتم ، والحجر الأسود هو القليل سواده لعلة الإدبار وقوله أنا وإلا فهو نوراني كما يأتي إنشاء الله تعالى في مبحث الحج ، وتوجه العبد إنما هو بقلبه لا غير قال الله تعالى ((أنا عند المنكسرة قلوبهم)) (١) أي بذل العبودية والاعتراف بالفقر والمسكنة والفاقة ، وأما المتكبر المعرض عن الحق سبحانه لما نسوا الله فنسيهم .

والتكبير هو الاعتراف بأن لا مستقل إلا هو ولا موجود في الحقيقة سواه ، فمع هذا الاعتقاد والنظر يحرم كلما يشغلك عن ربك لأنه إنا هو صنمك ، فكلما ذكر الشارع من المنافيات ومبطلات الصلاة من الحدث والكلام بغير القرآن وذكر الله

---

(١) منية المريد ١٢٣

والانحراف عن القبلة والفعل الكثير والقهقهة والبكاء لأمور الدنيا والشك وأمثالها مما هو مذكور في الكتب الفقهية كلها شواغل عن الله وعن ذكره ، وهي منافية للولاية التي أصلها ومبناها ومقتضاها ومادتها استقبال وجه الله وعدم نسيانه في حال من الأحوال ، والمصلي حين الصلاة صفة الولي في كل الأوقات ، وذكر كل واحد من المنافيات وبيان كونه شاغلا مما يطول به الكلام والإشارة الإجمالية كافية لأهلها إنشاء الله تعالى ، ولذا سمي التكبير بعد النية أي مساوقا لها بتكبيرة الإحرام والواجب الركن واحد لجريان الحكم الإجمالي في كل المقامات ، ولكن لما كانت الحجب سبعة وهي حجاب اللؤلؤ وحجاب الذهب وحجاب الزمرد وحجاب الياقوت وحجاب العقيق وحجاب الزبرجد وحجاب الألماس لا بد من خرق هذه الحجب السبعة ، فالأنسب والأليق أن يكبر لخرق كل حجاب ليكون أبلغ في التوجه ومشاهدة ظهور الكبرياء لنفي الأغيار وتصفية الأكدار إن في ذلك لذكرى لأولي الأبصار .

ولما كانت هذه الحجب تجمعها بأجمعها ثلاث مقامات وعوالم ، عالم الجبروت وعالم الملكوت وعالم والملك صارت أدعية الافتتاح ثلاثة وقد سأل هشام بن الحكم أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام في علة التكبيرات السبع ، قال عليه السلام ((يا هشام إن

الله تبارك وتعالى خلق السموات سبعا وخلق الأرضين سبعا والحجب سبعا ، فلما أسرى بنبيه بالنبي صلى الله عليه وآله وكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى رفع له حجاب من حجبه فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله وجعل يقول الكلمات التي قال في الافتتاح ، فلما رفع له الثاني كبر ، فلم يزل كذلك حتى بلغ سبع حجب وكبر سبع تكبيرات)) (١) .

وقد روي في التكبيرات السبع وجه آخر وعلة أخرى عن أبي جعفر عليه السلام قال ((خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصلاة و قد كان الحسين بن علي عليهما السلام أبطأ عن الكلام حتى تخوفوا أن لا يتكلم وأن يكون به خرس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله حامله على عنقه وصف الناس خلفه فأقامه رسول الله صلى الله عليه وآله على يمينه فافتتح رسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة فكبر الحسين عليه السلام حتى كبر رسول الله صلى الله عليه وآله سبع تكبيرات وكبر الحسين عليه السلام فجرت السنة بذلك ، قال زرارة : فقلت لأبي جعفر عليه السلام ، فكيف

---

(١) البحار ١٨ / ٣٦٩ ح ٧٥

نصنع ، قال : تكبر الله سبعا وتسبح سبعا وتحمد الله وتثني عليه ثم تقرأ))

القراءة

فإن كان المصلي قد جعل التكبيرة الأولى تكبيرة الإحرام فتكون الحجب مقامات فوق العقل وهي المفعول به والمفعول المطلق والمصدر ، والمراتب الأربع للفعل من النقطة والألف والحروف والكلمة وهذه حجب الأبدان ترفع وتخرق ليحصل للمصلي مقام الوصول ويكون حينئذ لسان الله حتى يقرأ ، لذا قال عليه السلام ((فلما فرغ من التكبير والافتتاح ، قال الله عز وجل : الآن وصلت فسم باسمي ، فقال صلى الله عليه وآله : بسم الله الرحمن الرحيم ، فمن أجل ذلك جعل بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة ، ثم قال : احمدني ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، وقال النبي صلى الله عليه وآله في نفسه شكرا ، فقال الله تعالى : يا محمد قطعت حمدي فسم باسمي ، فمن أجل ذلك جعل في الحمد الرحمن الرحيم مرتين ، فلما بلغ ولا الضالين قال النبي صلى الله عليه وآله : الحمد لله رب العالمين شكرا فقال الله العزيز الجبار : يا محمد قطعت ذكري فسم باسمي ، فمن أجل ذلك جعل بسم الله الرحمن الرحيم بعد الحمد في

استقبال السورة ، فقال له : اقرأ قل هو الله أحد كما أنزلت فإنها نسبتي ونعمتي)) (١) .

أقول : فلما فرغ صلى الله عليه وآله من التكبير بالتحريم على نفسه التوجه إلى غير جناب الأقدس ، والافتتاح أي افتتاح باب الوصال برفع الحجب المانعة والغواش الحائلة والأعراض الواردة والإنيات المتراكمة ، إلى أن وصل مقام كان بينهما حجاب يتلألأ بخفق وهو الحجاب بالنسبة إلى مقام التوحيد ، وإلا بالنسبة إلى مقام الأسماء والصفات ورتبة الواحدية وصال لا حجاب ، ومن هذه الجهة قال عز وجل ((الآن وصلت إلي فسم باسمي)) فهو صلى الله عليه وآله إذ ذاك لسان الله صلى الله عليه وآله حيث يتكلم بذلك اللسان أو المتكلم أي الاسم لأن فاتحة الكتاب هي كتاب الله قد أمر بقراءتها في مفتتح الصلاة فهو لا يخلو من الحالتين ، أو أنها كلام الله في مقام الأبرار وكلام الحبيب مع المحبوب في مقام المقربين كما هو المستفاد من ظاهر الحديث المبارك ، والوجوه الثلاثة متحققة في المقامات الثلاثة فافهم .

ولما كان ذلك المقام مقام الأسماء أمره سبحانه الابتداء

---

(١) علل الشرائع ٣١٥

بالاسم فقال ((سم باسمي ، فقال صلى الله عليه وآله : بسم الله الرحمن الرحيم)) ولما كان الاسم ليس مقام الذات وإنما هو مقام الظهور بالأثر و ذلك مقام الحقيقة المحمدية صلى الله عليه وآله صاحب الولاية المطلقة فيكون هو صلى الله عليه وآله حامل ذلك الظهور ومهبط ذلك النور ، فيكون الباء في البسملة إشارة إلى سر الولي والسين إلى صدره والميم إلى جسمه ، وهو قوله عليه السلام في تفسيرها ((الباء بهاء الله ، والسين سناء الله ، والميم ملك الله)) (١) ، فإذا لم يكن في ذلك المقام غيره صلى الله عليه وآله ، فيكون هو بهاء الله أي النور الأنور في المقام الأسفل فبقي هو صلى الله عليه وآله ظاهرا في المقام الأعلى ومولانا وسيدنا علي بن أبي طالب عليهما السلام في المقام الثاني أي الصدر والنفس أو محل الابتداع ومرتبة الظهورات التفصيلية بالأسماء المتقابلة ، فهو عليه السلام الظاهر بالولاية والتدبير والتصرف ، وإن كانت الولاية لله الحق ولرسوله صلى الله عليه وآله قال تعالى ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ (٢) ومولاتنا وسيدتنا الزهراء سلام الله عليها هي الظاهرة في المقام الثالث ولذلك كانت حاملة للأنوار ومظهرة للآثار

---

(١) التوحيد ٢٣٠ (٢) المائدة ٥٥

والمدة بين السين والميم إشارة إلى الألف المبسوطة التي هي مقام الولاية الظاهرة من السين المنقطعة إلى إحدى عشر قطعة فصار الجميع أربعة عشر وتم بإتمامها الاسم لا سواهم إلا من باب الأخذ عنهم والاقتداء بهم صلى الله عليهم ، وقول الإمام الصادق عليه السلام ((نحن الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من أحد عملا إلا بمعرفتنا)) (١) فهم الأسماء في مقام الفرق والتفصيل ، وهم الاسم في مقام الجمع والإجمال ، ولما كان هناك مقام الوحدة أفرد الاسم بما جمع الكل ، وفي زيارة أمير المؤمنين عليه السلام المروية عن الصادق عليه السلام ((السلام على اسم الله الرضي ونور وجهه المضي)) (٢) فهم الأسماء لا سواهم وما سواهم أسماء لهم وشئون لأطوارهم ، فعلى هذا إن شئت سميت البسملة الاسم الأعظم فعلت ، وإن شئت جعلتها أقرب إلى الاسم الأعظم من سواد العين إلى بياضها فعلت وصدقت كما عن الرضا عليه السلام ، فعلى الأول تكون البسملة عبارة عنهم عليهم السلام ، وهم البسملة في الكتاب التدويني وأصل لها وتلاحظها فيها من دون ملاحظة المناسبة وملاحظتها كما إذا توجهت إلى نفس المقابل في المرآة من دون

---

(١) الكافي ١ / ١٤٣ ح ٤ (٢) فرحة الغري ٤٧

الالتفات إليها ، وعلى الثاني تجعل الثانية محلا لظهور الأولى وحكاية لها وهي أقرب من سواد العين إلى بياضها ، لأن ذلك الملاصقة وهنا قرب المداخلة كدخول شيء في شيء فافهم .

والله اسم للذات المستجمع لجميع الصفات الكمالية من صفات القدس والإضافة والخلق ، وهذه الصفات هي المعتبرة في المشتقات عند اشتقاق الأسماء وليست رتبة الأحدية وإنما هي رتبة الواحدية وقد شرحنا حقيقة هذه المعاني في كثير من مباحثاتنا ورسائلنا وأجوبتنا على المسائل على كمال التفصيل .

وقال مولانا الصادق على ما رواه في التوحيد في تفسير الله ((الألف آلاء الله على خلقه من النعيم بولايتنا ، واللام إلزام الله خلقه ولايتنا ، قلت : فالهاء ، قال : هوان لمن خالف محمدا وآل محمد)) (١) والآلاء جمع مضاف يفيد العموم والخلق مصدر مضاف يفيد العموم أيضا ، فانظر ماذا ترى فإن بالبيان يرتاب الجاهلون ، ويسلك سبيل الإنكار الملحدون ، وخفاؤه في الصدور خير من إبرازه في السطور .

والرحمن هي الرحمة العامة الواسعة الشاملة لجميع

---

(١) التوحيد ٢٣٠

الموجودات مما ظهرت على العرش فأعطى الله بها كل ذي حق حقه وساق بها إلى كل مخلوق رزقه ، الرحمن اسم للذات المستجمعة لجميع الصفات الكمالية من صفات الإضافة والخلق دون القدس ، فيكون أنزل عن اسم الله بمرتبة واحدة ، فالرحمة الواسعة هو اللواء المحيط بكل ذرات الوجود وحقائق الأشياء من الغيب والشهود ، وهي مقام الربوبية إذ مربوب ، المقترنة بالأشياء بالربوبية والتي هي كنه العبودية كما في مصباح الشريعة ((جوهرة كنهها الربوبية)) (١) وتعالى الله سبحانه عن الاقتران والاتصال علوا كبيرا ، وهي الوصف الذي رجع الأشياء منه إليه كما في قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام اليتيمة ((رجع من الوصف إلى الوصف)) وهي الملك الذي دامت الأشياء فيه كما في قوله عليه السلام فيها ((دوام الملك في الملك)) وهي المخلوق الذي انتهت الأشياء إليه كما في قوله عليه السلام ((انتهى المخلوق إلى مثله وألجأه الطلب إلى شكله)) ، وهي ظاهرة من كل ذرات الوجود في الأشقياء والسعداء وأهل الجنة والنار ، وظهورها في الأشياء في جميع مراتبها بحسبها حتى في عالم الألفاظ ، ألا ترى ظهور الاسم الأعظم العلي

---

(١) مصباح الشريعة ٧

الذي هو أول الأسماء وظاهر الله كما في معاني الأخبار عن مولانا الرضا عليه السلام ((فأول ما اختاره لنفسه العلي العظيم لأنه أعلى الأشياء كلها)) (١) فاسمه العلي ومعناه الله ، وهذا الاسم المبارك حامل لتلك الرحمة وبه ظهرت وكانت الأشياء تحكيها بحاملها فيها .

الحاصل أن هذا الاسم المقدس يظهر في سر كل اسم من الحق والباطل ظهور سر الإيجاد واسم الموجد في كل شيء شريف يكشف ، والقاعدة في ذلك إذا أردت استخراج اسم علي من كل اسم فاحسب عدد ذلك الاسم فضاعفه ست مرات ثم زد واحدا على الحاصل واضرب الحاصل بعد الزيادة في العشرة واجمع الحاصل ثم اطرحه عشرين عشرين فاضرب الباقي في أحد عشر يستنطق اسم علي ، والسر كله في جزئه في أحد عشر الذي هو عدد الاسم الأعظم هو ، فبذلك ظهر السر بأن وأما فيما عدا ذلك العدد فخارج عن الاستقامة الحقيقية فافهم ، فإني في ذكر هذه الكلمات وأداء هذه الإشارات كما قال الشاعر ونعم ما قال وأجاد فيما قال :

---

(١) معاني الأخبار ٢

تعرضت في قولي بليلى وتارة

بهند فلا ليلى عنيت ولا هند

ولا يمكنني أن أصرح ما أفهم فإن ذلك غير ما دون فيه ، قال مولانا الصادق عليه السلام ((ما كل ما يعلم يقال ، ولا كلما يقال حان وقته ، ولا كلما حان وقته حضر أهله)) .

والرحيم هو الظاهر بالرحمة المكتوبة الخاصة بالمؤمنين الذين هم المقصود في أصل الخليقة ، أي ظهروا بما هو المقصود بالذات في أصل الإيجاد بحقيقة الانوجاد ، فعلى هذا فبهم يدور الفلك ولأجلهم قرنت الأسباب مسبباتها ، ولهم أنزلت السماء بركاتها ، ومنهم نشرت الإمدادات والإفاضات إلى كل الخلق ، ولهم سكنت السواكن وتحركت المتحركات ، وهؤلاء شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله ، إذ لولاهم لما أمطرت السماء وما أخرجت الأرض نباتها وهؤلاء هم الشيعة ، لو لم يبق لهم سلام الله عليهم نظرا إلى هذه الأرض لساخت إذا بأهلها ، ألا ترى في الأمم الماضية بالنسبة إلى أنبيائهم ، وشاهد ما ذكرنا من الأحاديث لا يستقصى ولا يحصل ، وهو أيضا معلوم بالضرورة والوجدان لمن راجع وجدانه فلا نطول الكلام بذكر ما هو واضح ، قال تعالى إشارة للرحمتين ﴿ ورحمتي

وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يؤمنون ﴾ (١) ولما كانت البسملة هي مقام الأسماء وهي مقدمة في الوجود والتحقيق على الأشياء من الذات والصفات والأفعال لأنها علل ومبادئ لتعلقاتها من الآثار كما ورد في الأدعية الكثيرة ((باسمك الذي خلقت كذا وكذا)) ، وقولي الأسماء علل ليس على إجماله بل التحقيق الحق في المسألة لا بد له من ذكر تفصيل تركنا ذكره لئلا نخرج عما نحن فيه ، وإن كان ذلك التفصيل نافعا وقد ذكرناه في كثير من مباحثاتنا ، ولما كانت الأسماء في الوجود متقدمة تقدمت البسملة في الذكر ، فأمر صلى الله عليه وآله أن يقول بسم الله الرحمن الرحيم ، وقد شرحت البسملة في رسالة منفردة شرحا مبسوطا ، وإن كانت الرسالة ما تمت إلى الآن واقتصرت هنا بذكر أشياء لم أذكرها في تلك الرسالة ، ولما كان الاسم لا بد له من التعلق بالأثر وهو الثناء بالمؤثر بما عنده من الجميل والكمالات الاختيارية ، فالأثر يدل على ما منه بدء وهو الفعل وصفاته والكل اختياري ، فالأثر هو نفس الثناء وحقيقة الصفة الكمالية واللسان المثني على المؤثر في كل مقام بطور من الأطوار ، ولما كانت البسملة إذا عددت حروفها كانت تسعة عشر

---

(١) الأعراف ٥٦

وإذا استنطقتها كانت في النطق واحد وهو حرف الألف وهي الهمزة وهي لما تحركت وانبسطت كان عنها الدال وسر هذا التكرير بالإجمال هو أن فعل الفاعل هو الأصل الواحد لما تعلق بالأثر أي بإحداثه وإيجاده لله سبحانه وتعالى وحدث أمران هما مدلولا الباء فعل ومفعول مطلق والمصدر ، وهما لما انبسطا وتحركا أي نظر كل منهما إلى صاحبه بالإمداد والاستمداد حدثت أربع أمور بها تمام كون الشيء من حيث هو وهو مدلول الدال ، فالدال عن الباء وهي عن الألف وهو عن النقطة ، وما ذكرنا أحد الوجوه في معنى هذا التكرير والانبساط ، وإن كان مرجع الكل إلى هذا الوجه ، فبالدال تم الأثر وظهر معلنا بالثناء على المؤثر .

ثم إن الأثر له مقامان ، مقام إجمال وهو في الحل والعقد الأولين وهو محل انمحاق الأثر من حيث هو وغلبة ظهور حكم المؤثر عليه لا غلبة اضمحلال وفناء بالكلية بل مع ذكر له في الجملة ولذا كانت الرطوبة التي دليل السريان والسعة والنفوذ والإحاطة أربعة أجزاء ، واليبوسة الأرضية التي هي دليل الانجماد وعدم السريان والإحاطة جزء واحدا في الحل والعقد الأوليين .

ومقام التفصيل وهو في الحل والعقد الثانيين ، وهو محل غلبة حكم المؤثر على الأثر لا على غلبة اضمحلال واستهلاك ، ولذا

كانت اليبوسة هنا غالبة ، وحكم الانجماد وعـدم السعة والإحاطـة ظاهرا ، كما لوما كان الأثر لا بد لـه مـن هذيـن المقـامين حتـى يتـم ويكون بذلك مختارا جامعا مملكـا ، وحقيقـة الأثـر مؤلفـة مـن أربعـة أجـزاء وأشـياء كمـا في قولـه عـز وجـل ﴿ ومـن كـل شـيء خلقنــا زوجين ﴾ (١) وكل زوج فردان فالزوجان أربعة وهي مدلول الـدال ومعناها وجب تكرير الـدال لاستنطاق الحـاء ، ولمـا كـان الأثـر لـه وجهان وجه إلى مؤثره ووجه إلى نفسه ، وفي كل وجه لا بـد لـه مـن السباحة في خمسة أبحر ، أما في الوجه الأول يسـبح في بحـار التوحيـد الخمسة أي الباطن وبحر الباطن من حيث هو باطن وبحر الظـاهر مـن حيث هو ظاهر وبحر الظهور ، وفي الوجه الثاني يسبح في بحر الطبائع الأربع والبحر الخامس هو البحر المحيط الحاوي الجامع لهذه الأبحـر ، فيكون كل من هذه الأربعة خليج وطتنج مـن ذلـك البحـر الأعظـم المحيط وهو عبارة عن الطبيعة الخامسة البسيطة المتحققة أي الظـاهرة بعد مزج هذه الطبائع الأربع واقتران بعضها ، ولما كـان يمتنـع النظـر إلى الوجهين بنظر واحد والتفات غير متعدد امتنـع السـباحة في هـذه الأبحر كذلك فهو دائما سابح في خمسـة ، فعنـد النظـر في الأعلـى في

---

(١) الذاريات ٤٩

أبحر اللاهوت ، وعند النظر إلى السفلى في أبحر الناسوت وهذا شأن الكامل في المقامين ، وأما الناقص ففي بحر واحد ، أما الأعلى أو الأسفل وإن كانت به الأبحر الأخر فحينئذ وجب أن يتكرر الأثر بمقاميه الإجمالي والتفصيلي خمس مرات ، وإن كان عند سباحته في الأبحر الأول لا يجد لنفسه في وجدانه ، أما في وجوده فهو جامع للمقامات الثمانية ، وأما عند السباحة في الأبحر الأخر فهو يشاهد نفسه بمراتبه الثمانية فيها .

والحاصل بعد التكرير مد أول الميم عند استنطاقها فيتم الأثر حينئذ جامع المقامات وحاوي المراتب معلنا بثناء خالقه وبارئه بصفاته الجميلة وأسمائه الحسنة في كل مرتبة ومقام ، فالدال هي الآخر لأنها هي الأول ، والحاء هي الأول لأنها هي الآخر ، والميم في الوسط لأن لها نسبة إلى الأول الذي هو الآخر والآخر الذي هو الأول ، فأما الدال فكانت طائفة حول جلال القدرة وتقدمت في الظهور والحاء تطوف حول جلال العظمة فتأخرت ، والميم في الوسط لأنها بالنسبة إلى الطرفين يكون الحاصل منهما ثمانين وهي المادة بين الجلالين ، فظهر الحمد ونطق وأضاء نوره وأشرق ، ثم عرف بلام التعريف لبيان أن الأثر الأول والمجعول هو الذي ألقى الله تعالى فيه مثاله فأظهر عنه أفعاله ، فصار بتعريف الله سبحانه معرفا

بحيث ما جهله أحد فكان بذلك وجه الله الذي لا تعطيل له في كل مكان ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ (١) فاعرف الآن معنى قوله عليه السلام ((قال الله تعالى احمدني بعد البسملة)) فإنها في مقام الاسم والحمد في مقام الأثر الذي هو متعلق الاسم ، لأن العبادة أي الصلاة في مقام الفرق دون الجمع فقال عليه صلوات الله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ (٢) فالحمد باللسان على قصد التعظيم على الجميل الاختياري سواء كان في مقابلة النعمة أم لا ، فالثناء هو المصدر وهو المفعول المطلق واللسان هو عند غلبة حكم المؤثر على الأثر في الحل والعقد الأوليين إن قلنا بأن المثني والحامد هو الله سبحانه أو نفس الأثرية ، قلنا أن الحامد هو العبد على قصد التعظيم وذلك عند ملاحظة كونه أثرا وحينئذ يكون خاضعا للمؤثر وهو معظم لديه دائما فلا يقصد في ذلك المقام غيره سواء كان في مقابلة النعمة أم لا ، لأن الحمد في مقام نعمة الله فيها المستلزم لمزيد الشكر ، ولما كان الحمد أصله الدال المكررة وهي أصلها الألف كما ذكرنا ، فإذا ظهر الأصل الأول مع الفروع كان أحمد وهو اسم الأثر والمجعول الأول الذي به تحقق الحمد الذي هو

---

(١) البقرة ١١٥ (٢) الفاتحة ١

الثاء على الله ، فإن الثناء عليه تعالى في الإمكـان بـالأثر والحـدوث ، فأول الآثار وأشرفها وأعظـم الأنـوار وأنورهـا هـو اللائـق للتسـمية بـالحمد ، فعلـى هـذا يكـون اسمـه أحمـد في العـالم الأعلـى المعـبر عنـه بالسماء ، وإذا تكررت الميم بظهور المراتب والمقامـات بأجمعـها فيـه كان محمدا صلى الله عليه وآله هو اسمه في العـالم الأسـفل المعبر عنـه بالأرض ، ولما كان الحمد والثناء على الله تعالى مطلقا سواء كـان في مقابلة النعمة أم لا ، فيكون متعلق الحمد هو الاسم الأعظـم لله لأنـه الجامع لصفات القدس والإضافة والخلق ففي مقام القدس لا يعتبر في متعلقه الإضافة والنعمة كاعتبارها في متعلق صفات الخلق ، ولما كان محمدا صلى عليه وآله اضمحلت مشيئته في مشيئة الله بـل لا مشـيئة له تعالى سوى مشيئته ولا مشيئة له صلى الله عليـه وآلـه غـير مشـيئة الله تعالى كما قال تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشـاء الله ﴾ (١) جعـل الحمد مقترنا بلام الملكية والاختصاص ، فهو صلى الله عليه وآله مع أوصيائه الصديقين الذين لله سبحانه في وجودهم ووجدانـهم ، وأمـا سـائر الخلائـق فليسـوا كذلـك لأنـهم وإن كـانوا لله في وجودهـم وحقائقهم وذواتـهم وصفاتـهم وكينوناتـهم إلا أنـهم لا يجـدون ولا

---

(١) الإنسان ٣٠

يستشعرون بذلك وإلا لما عصوا ولو بترك الأولى ، فلا يصدق الاختصاص التام بكل وجه إلا محمدا وآله صلوات الله عليهم ، ولذا قال ((الحمد لله)) فالحمد مادته الشكل المربع وصورته وهيئته الشكل المثلث فعند الاجتماع هو السبعة ، ولذا اشتملت على سبع آيات وهي السبع المثاني وليكون أربعة عشر ، وعند الضرب وملاحظة كل النسب يكون اثنا عشر وهم الأصول التي تدور عليها الفصول ، ولما كان الأثر لا يقوم ولا يتحقق إلا المؤثر بذاته وإنما ظهوره بأسمائه وصفاته ولذا بعد الحمد لما قال رسول الله صلى الله عليه شكرا لما شاهد من عظيم آلائه ونعمائه عليه ، وشاهد الأثر قال الله تعالى ((قطعت حمدي ، فسم باسمي)) توجه إليه تعالى باسمه فقال رب العالمين جمع العالم لبيان تعدد أنواعه ومراتبه ، واختلفت الأخبار في تعدادها ففي بعضها العوالم ثلاثة وفي بعضها أربعة وكذا خمسة وستة وسبعة وثمانية وتسعة وعشرة وعشرون وثلاثون وأربعون وخمسون وستون وسبعون وثمانون وتسعون ومائة وألف وألف ألف ، الذي عددنا من العوالم تسعة وثلاثون وتسعمائة ألف وتسعمائة وثمانون عالما ، وليس هنا مقام شرحها وبيان أحوالها .

والربوبية على أوجه ثلاثة ، أولها هي الربوبية إذ لا مربوب وهي ربوبية الذات البحت رتبة الأحدية المحضة ، وثانيهما الربوبية

إذ مربوب ذكرا وإذ لا مربوب عينا وكونا وهي مقام الواحدية مبدأ الأسماء والصفات الفعلية وهي النبوة التي هي باطن الولاية ، وثالثها الربوبية إذ مربوب ذكرا وعينا وهي مقام الرحمانية وتفاصيل الأسماء المختلفة وهي مقام الولاية التي هي باطن النبوة الظاهرة ، فالنبوة الظاهرة مثالها الشمس وهي مستمدة من الكرسي الذي هو مثال الولاية المطلقة التفصيلية ، وهو مستمد من العرش الذي هو مثال النبوة الحقيقية الإجمالية ، فافهم .ضرب المثل .

وإنما ذكر الربوبية بعد ذكر الألوهية لكونها تفاصيل الألوهية ، ثم أشار إلى تفاصيل الربوبية الثالثة بدوا وعودا بقوله ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ (١) إشارة إلى الرحمة الواسعة العامة المطلقة التي بها يعطي الرحمن كل ذي حق حقه ويسوق إلى كل مخلوق رزقه ، وهي رتبة الربوبية إذ مربوب ذكرا وعينا فلها وجهان وجهتان حسب المتعلق أحدهما الفضل وهو رحمة الرحيم فأشار إليها به لقوله تعالى ﴿ مالك يوم الدين ﴾ (٢) ويوم الدين يوم الجزاء يوم ترتيب المسببات على أسبابها والمقتضيات على مقتضياتها ورد الفروع إلى أصولها ، وذلك عندما استوى الرحمن على العرش إلا أن الظهور

---

(١) الفاتحة ٢ (٢) الفاتحة ٣

العام والبروز التام بهذا المعنى عند وصول الخلق في صعودهم إلى غاية الذر الأول والثاني والثالث المعبر عنه بالعود والقيامة الصغرى والكبرى ، ولتفصيل هذه الكلمات مقام آخر ، ولما كانت العبادة في مقام الفرق والفصل والتميز لا في مقام الجمع أي التوجه إلى الحق بأسمائه والإعراض عن نفسه وذاته بالكلية إذن يرتفع الشعور الغيري والإدراك الظاهري ويأتي مقام إطفاء السراج فقد طلع الصبح ، ولذا عطف الكرم عن مقام الربوبية المطلقة وذكر الأسماء وشاهد نفسه مضمحلا عند ربه ومقهورا تحت هيمنة سلطانه فابتدأ بالرب عز وجل وخاطبه لما شاهده بعين سره وحقيقته من نور عظمته فقال ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (١) ومن هذا إلى تمام السورة ذكر متعلقات الأسماء المتقدمة لأن كل اسم له متعلق يختص به ، فالعبادة خاصة له تعالى بإزاء اسم الله القاهر بهيمنته وجبروته كلما سواه وهو الاسم الخاص بالنور الأبيض يدعو الله بذلك الاسم الأعظم الأجل الأكرم فيفنى عند كل ما سواه فيقف خاضعا ذليلا بين يديه معترفا بأنه الله فتحصل العبادة له إذ لا غيره قال في الدعاء ((لا يرى فيه نور إلا نورك ولا يسمع صوت إلا صوتك)) (٢) فإذا

---

(١) الفاتحة ٤ (٢) المصباح ١٢٦

وجد نفسه أنها الفانية الباطلة الفقيرة المحتاجة وجد ربه أنه المستقل الثابت منه الجود والكرم والفيض ، فيقصد بابه ويتوجه إليه بسره ، وله عبوديته ويستمد منه لفقره وفاقته ، فيقول ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، الاستعانة منه تعالى لا من سواه لأنه مثله في الفقر والفاقة فكيف يطلب محتاج محتاجا ، وأنى يرغب معدم إلى معدم ، ولما كان سبحانه رب العالمين فوجب منه الاستعانة .

ثم لما كان التوجه إليه تعالى وسلوك السبيل الموصل إليه هو مبدأ كل خير وأصل كل فيض ، طلب من الله أولا أن يهديه إلى ذلك فقال ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ (١) أي دلنا وأرشدنا بمددك وعونك التكويني والتشريعي إلى الصراط المستقيم ، الغير المائل عن الحق وعن النهج القويم في الطريقين ، أي طريق النزول والصعود وقطع مسافة القوسين قوس الإقبال وقوس الإدبار .

ولما كان الصراط المستقيم هو متعلق اسم الرحمن لاشتماله على صراط الجنة والنار والخير والشر كما قال عز من قائل ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس

---

(١) الفاتحة ٥

على الذين لا يؤمنون وهذا صراط ربك مستقيما ﴾ (١) ، ولما كان الصراط هذا حاله والمطلوب هو الصراط المستقيم الذي قال عز وجل ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (٢) ، وهو متعلق اسم الرحيم ،صاحب الرحمة المكتوبة كما سبق قال ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ (٣) من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو صراط علي وأولاده الطاهرين عليه وعليهم سلام الله أجمعين كما يشهد عليه فواتح السور بعد حذف المكرر فيستنطق (صراط علي حق نمسكه) وهي الحروف النورانية وما سواها كلها ظلمانية .

ثم أشار إلى متعلق الوجه الأسفل للرحمن أي ﴿ مالك يوم الدين ﴾ فقال ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ (٤) ، فالأولون هم الرؤساء المتبوعون الأئمة الذين يدعون إلى النار ، والآخرون هم التابعون القائلون ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ (٥) ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ (٦) ، ولو أردنا

---

(١) الأنعام ١٢٥ — ١٢٦ (٢) الأنعام ١٥٣ (٣) ، (٤) الفاتحة ٦

(٥) الشعراء ٩٩ — ١٠١ (٦) البقرة ١٦٦

الإشارة إلى باطن هذه السورة وتأويلها لأدى إلى تطويل المقام وذكر ما لا يجوز إظهاره ويجب كتمانه صونا عن الجهال من أصحاب القيل والقال ، وما ذكرنا كفاية لمن أعرض عن المراء والجدال .

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وآله بإتمام هذه السورة المباركة مقام الجامعية المطلقة الجامعة لمقام الربوبية وظهور الأسماء الإلهية الكلية وظهور المقامات البرزخية وأطوار العبودية ، لأن نفسه الشريفة المقدسة عبارة أخرى عن سورة الحمد ، وهو الحمد التكويني ، وهذه السورة شرح صفته وبيان اسمه ، فأعطاه الله سبحانه بذلك ما لم يؤت أحدا من العالمين بحيث طأطأ كل شريف لشرفه وبخع كل متكبر لطاعته وخضع كل جبار لفضله وذل كل شيء له ، فنظر إلى هذه النعمة العظيمة والمنقبة الجسيمة ، وعرف أن الله سبحانه هو الذي أعطاه وهداه ، فقال بعد تمام السورة (الحمد لله رب العالمين) ، أو قال هذه الكلمة إلحاقا بالآخر للأول ، وتبيان أن الأول هو عين الآخر ، ولما كان هذا النظر واللحاظ إنما نشأ من مشاهدة نفسه وإن كان على جهة الخضوع والذلة ، ومقام العبادة مقام تساوي النظرين ، بل القلب للنظر إلى جانب المبدأ واستمداده منه ، قال تعالى له عند ذلك (أقطعت ذكري ، فسم باسمي) فقال صلى الله عليه وآله بعد ذلك (بسم الله الرحمن

الرحيم) ثم أمره تعالى أن يتوجه إلى التوحيد الشهودي دون الحقيقي المانع المنافي للعبادة ، لأن النظر كلما قوي إليه تعالى قوي النور في العبد ، لأن النظر إلى جانبه الأقدس نظر إلى الحرارة ، والنظر إلى النفس وفقرها وفاقتها نظر إلى البرودة ، وأين البرودة من الحرارة ، فقال عز وجل (اقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (١) كما أنزلت فإنها نسبتي ونعتي) ، فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

قل فعل أمر ينتج من كن وهو السر الوجودي والنور الإلهي والخطاب الشفاهي الذي هو مادة الحادث المجعول الأول أولا وبالذات ، وسائر الخلائق ثانيا وبالعرض ، وهو قول إلهي وخطاب يشتمل على بيان معرفة الحق سبحانه ، والوصف الحاكي الكوني الحامل لظهوره ، فأول مرتبة الوصف توصيفه بالهوية الذات المتأصلة القائمة بذاتها المستغنية عما عداها ، ثم توصيف الهوية بالألوهية صاحب الهيمنة الظاهرة بصفات القدس وصفات الإضافة الخلق ، ثم توصيف الألوهية أي الذات الأحدية المحضة الصرفة التي ليس فيها شوب كثرة ولو فرضا ووهما واعتبارا ، وانعدم فيها ذكر الكثرة فضلا عن وجودها ، وهي الوجه الأعلى من الألوهية ، ولما

---

(١) الإخلاص ١

كانت القراءة في ليلة المعراج كان من الأعلى إلى الأسفل لا العكس لأنه شأن الصاعدين وهو صلى الله عليه وآله الصاعد الواصل فيقطع المسافات النازلة على ترتيب الأقدم فالأقدم فيقل وجد كينونته وذاته أي مادة وجوده فنظر إلى الوجه الأعلى منهما فشاهد الهوية الإلهية بالمشاهدة الرسمية ، ثم نزل إلى مقام ظهور الألوهية ، ثم منهما إلى مقام الأحدية ، ثم نظر إلى حقائق الإمكان وشاهد مع فقرها دعوى الربوبية ، فتوجه إليه سبحانه فنزهه عن الصفات الإمكانية بإثبات ونفي ، وأما الإثبات ففي قوله ﴿ الله الصمد ﴾ (١) ، هذه الألوهية هي الظاهرة بصفة الواحدية ، فهو الصمد المصمت لا مدخل له للأوهام والعقول والأحلام ولا شيء مما خلقه جل وعلا فهو المتعالي من أن تصل إليه الأدراك ((كلما ميزتموه بأوهامكم في أدق معانيه فهو مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم)) (٢) ، وإذا لم تنله المدارك فغيرها بالطريق الأولى ، ولا يخرج منه شيء لتتغير حالته وتزول أبديته ، فإذا هو المستغني عن كل ما عداه ، وكل ما عداه محتاج ومفتقر إليه ، ففناؤه الذاتي يستلزم استجماعه لجميع الكمالات وبيان هذه الخصوصيات والإشارات لما يطول ،

---

(١) الإخلاص ٢ (٢) البحار ٦٩ / ٢٩٣ ح ٢٣

فالاقتصار على الإشارة بأخصر العبارة .

وأما النفي ففي قوله ﴿ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (١) وذلك تفصيل الصمدية لأن الصمد هو السيد المطاع المصعود إليه الخلائق كلهم أجمعون ، وفي التوحيد عن وهب بن وهب القرشي قال سمعت الصادق عليه السلام يقول ((قدم وفد من أهل فلسطين على الباقر عليه السلام فسألوه عن مسائل فأجابهم ، ثم سألوه عن الصمد ، فقال عليه السلام : الصمد فيه خمسة أحرف ، فالألف دليل على إنيته ، وهو قوله عز وجل ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ (٢) وذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس ، واللام دليل على إلهيته بأنه هو الله ، والألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان ولا يقعان في السمع ويظهران في الكتابة ، دليلان على أن إلهيته بلطفه خافية لا تدرك بالحواس ولا تقع في لسان واصف ولا أذن سامع ، لأن تفسير الإله هو الذي أله الخلق عن درك ماهيته وكيفيته بحس أو بوهم ، لا بل هو مبدع الأوهام وخالق الحواس ، وإنما يظهر ذلك عند الكتابة دليل على أن الله سبحانه أظهر ربوبيته في إبداع الخلق وتركيب أرواحهم اللطيفة

---

(١) التوحيد ٣ — ٤ (٢) آل عمران ١٨

في أجسادهم الكثيفة ، فإذا نظر عبد إلى نفسه لم ير روحه كما أن لام الصمد لا تتبين ولا تدخل في حاسة من الحواس الخمس ، فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف ، فمتى تفكر العبد في ماهية الباري وكيفيته أله وتحير ولم تحط فكرته بشيء يتصور له ، لأنه عز وجل خالق الصور فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنه عز وجل خالقهم ومركب أرواحهم في أجسادهم ، وأما الصاد فدليل على أنه عز وجل صادق وقوله صدق وكلامه صدق ودعا عباده إلى اتباع الصدق بالصدق ووعد بالصدق دار الصدق ، وأما الميم فدليل على ملكه وأنه الملك الحق لم يزل ولا يزال ولا يزول ملكه ، وأما الدال فدليل على دوام ملكه وأنه عز وجل دائم تعالى عن الكون والزوال ، بل هو عز وجل يكون الكائنات الذي كان بتكوينه كل كائن ، ثم قال عليه السلام : لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل حملة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد ، وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين عليه السلام حملة لعلمه حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين الجوانح مني علما جما ، هاه هاه ألا لا أجد من يحمله ، ألا وإني عليكم من الله الحجة البالغة فلا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، ثم قال

الباقر عليه السلام : الحمد لله الذي من علينا ووفقنا لعبادته ، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وجنبنا عبادة الأوثان ، حمدا سرمدا وشكرا واصبا ، وقوله عز وجل ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ يقول : لم يلد عز وجل ليكون له ولد يرثه ، ولم يولد فيكون له والد يشركه في ربوبيته وملكه ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ فيعاونه في سلطانه)) (١) .

وفي العلل عن مولانا الرضا عليه السلام ((فإن قال لم بدأ بالحمد في كل قراءة دون سائر السور : قيل لأنه ليس شيء من القرآن والكلام جمع فيه من جوامع الخير والحكمة ما جمع في سورة الحمد ، وذلك قوله عز وجل ﴿ الحمد لله ﴾ إنما هو أداء لما أوجب الله على خلقه من الشكر لما وفق عبده للخير ﴿ رب العالمين ﴾ تمجيدا له وتحميدا وإقرارا بأنه الخالق المالك لا غير ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ استعطاف وذكر لربه ونعمائه على جميع خلقه ﴿ مالك يوم الدين ﴾ إقرار له بالبعث والحساب والمجازاة وإيجاب له ملك الآخرة كما أوجب له ملك الدنيا ﴿ إياك نعبد ﴾ رغبة وتقربا إلى الله وإخلاصا بالعمل له دون غيره ﴿ وإياك نستعين ﴾ استزادة من

---

(١) التوحيد ٩٢ — ٩٤

توفيقه وعبادته واستدامة لما أنعم عليه ونصره ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ استرشادا لأدبه ومعتصما بحبله واستزادة في المعرفة بربه وبعظمته وكبريائه ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ توكيدا في السؤال والرغبة وذكر لما تقدم من نعمه على أوليائه ورغبة في مثل تلك النعم ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ استعاذة من أن يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به وبأمره ونهيه ﴿ ولا الضالين ﴾ اعتصاما من أن يكون من الذين ضلوا عن سبيله من غير معرفة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فقد اجتمع فيه من جوامع الخير والحكمة من أمر الآخرة والدنيا ما لا يجمعه شيء من الأشياء)) (١) .

ولأن الحمد فاتحة وجامعة لجميع ما في القرآن كله بجميع أسراره كما قال أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه وآله ((كلما في القرآن في الحمد ، وكلما في الحمد في البسملة ، وكلما في البسملة في الباء ، وكلما في الباء في النقطة ، وأنا النقطة تحت الباء)) فقراءته الحمد مع إيجازه واختصاره واشتماله على البسملة والباء والنقطة قراءة جميع الكتب المنزلة السماوية والسور الإلهية

---

(١) علل الشرائع ٢٦٠

فانظر ماذا ترى .

وقد ورد أن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلث القرآن ، لأن القرآن جامع لبيان أحوال الحق سبحانه وصفاته وتوحيده ، وبيان أحوال الخلق وصفاتهم وحقائقهم وذواتهم ، وبيان النسبة بين أسمائه تعالى عند اقترانها بالخلق ، وكيفية سلوك الحق مع الخلق ، والإشارة إلى الأول في الحمد من الأول إلى قوله تعالى ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وإلى الثاني فيه من قوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إلى الآخر ، وإلى الثالث فيه ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، ولذا قيل أن في الحمد ثلاثة مقامات ، مقام حق لا خلق فيه ، ومقام خلق لا حق فيه ، ومقام حق وخلق ، وجميع العلوم والأحوال المفصلة في القرآن وسائر الكتب المنزلة ترجع إلى هذه المقامات الثلاثة ، فصار الحمد إجمال ما فصل في كل القرآن و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ لما كان فيها محض بيان التوحيد الذي هو مقام الحق لا خلق فيه كانت بمنزلة ثلث القرآن ، فإذا كررها ثلاث مرات فقد ختم القرآن كله ، وفي كل مرة تصير بإزاء ظهورات التوحيد في عالم من العوالم الثلاثة التي بني عليها الوجود المقيد كله عالم الجبروت وعالم الملكوت وعالم الملك .

والحاصل أن السورة أيها كانت تفصيل إجمال الحمد ، وإنما وجبت السورة في الصلاة بعد الحمد لوجوب ظهور التفصيل بعد

الإجمال وقران المفصل بالمجمل ، ألا ترى اقتران العرش بالكرسي والكرسي بالعرش ، إلا أن سورة التوحيد لاشتمالها على أشرف المراتب وأسنى المقامات التي هي التوحيد كانت أفضل ولا ينبغي للمصلي تركها وإن كانت السورة وظهورها في الخلق فافهم .

وإنما وجبت قراءة القرآن في الصلاة حال القيام لبيان أن العبد القائم بخدمة مولاه لا علم له إلا ما علمه الله ولا يعرف شيئا إلا ما عرفه ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ (١) ، ولبيان أن الله سبحانه هو المتجلي لخلقه ، فالخلق لسانه وعلى الله بيانه ، فحين يقرأ القرآن هو لسان الله ، وحين التكبير والركوع والسجود إثبات عبوديته ومقام خضوعه وذلته كما يأتي إنشاء الله تعالى .

الجهر والإخفات

أما الجهر والإخفات وعلتهما ، فاعلم أن الصلاة في النهار إخفاتية لأنها بإزاء عالم الأنوار فهناك مقام اندكاك الإنية ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾ (٢) فصلاة الظهر لأهل عالم الجبروت وعالم العقول ، والعقل مقهور تحت جلال العظمة ومضمحل عند سطوع أشعة أنوار الجلال والقدرة ، فشأنه

---

(١) البقرة ١٩٨ (٢) طه ١٠٨

الإخفات ، وصلاة العصر لأهل عـالم الأرواح وأصحـاب الرقـائق ، وهم وإن كان عندهم كثرة إلا أنها لقربها من عالم العقـول متلاشية فيجري عليها حكم أهل ذلك العالم فكانت إخفاتية .

وأما صـلاة المغرب فلأهـل عـالم النفـوس في الوجـه الأعلى لظـهور الكـثرة في النفـس وقربـها مـن الـروح القريـب مـن العقـل المقتضي الوحدة فظـهر هنـاك وقـت المغـرب الممـزوج نـوره بظلمـة الكثرة وحجاب الإنية فوجب الجـهر في بعـض الصـلاة ولا يجـهر في بعض ، قيل لأن الصلاة والقـراءة لبعـد أهـل ذلـك العـالم عـن المبـدأ وتمكن الظلمة فيهم فكانوا لا يسـمعون ولا يتلقـون إلا بجلـي البيـان وواضح العيان كما ذكرنا في الأذان .

وأما صلاة العشاء فلأهل عالم الطبيعة المبتلين بظلمـة الكسـر وظلمة الموت وظلمة جوهـر الهبـاء ظلمـات متراكمـة بعضـها على بعض فلا يتوجهون بذاتـهم وكينونتـهم إلى الله سـبحانه ولا يطلبـون قربه ورضاه إلا بمنبه صوته العظيم بالغ حجتـه واضـح محجتـه يظـهر النور في ذلك الليل الديجور فوجب الجهر البتة .

وأما صلاة الصبح فلأهل عالم الصوغ بعد الكسر في الطبيعـة ومقام ظهور الأنوار العقلية والأسرار الخفيـة في العـالم الجسـماني في بدن الإنسان ، فهو بين ظلمة الأجسـام ونـور ظـهور الأرواح ، ولما

كان نور الظهور في الزيادة ويتعقبه النور بإذهاب ظلمة الديجور وكان له حكم النهار ، ولما كان في مقام أول ظهور النور أول مقام اقتران الأرواح بالأجسام والأجساد ، وليست المراتب والقوى والمشاعر ناضجة النضج التام متمحضة في التوجه إلى الله سبحانه ليأتي الخفاء وجب الجهر ، فلا يصح حكم البرزخية ، ولذا سئل مولانا الباقر عليه السلام عن الساعة التي ليست من النهار ولا من الليل قال عليه السلام ((هي الساعة بين الطلوعين ، وهي من ساعات الجنة)) .

وفي علل ابن شاذان عن الرضا عليه السلام ((فإن قال لم جعل الجهر في بعض الصلاة ولا يجهر في بعض ؟ ، قيل لأن الصلوات التي يجهر فيها إنما هي صلوات في أوقات مظلمة فوجب أن يجهر فيها لأن يمر المار فيعلم أن ههنا جماعة فإذا أراد أن يصلي صلى لأنه إن لم ير جماعة تصلي سمع وعلم ذلك من جهة السماع ، والصلاتان اللتان لا يجهر فيهما فإنما هما صلاة تكون بالنهار في أوقات مضيئة فهي تعلم من جهة الرؤية فلا يحتاج فيها إلى السماع)) (١) .

وما ذكره هو عليه السلام هو معنى ما ذكرت لك حرفا

---

(١) علل الشرائع ٢٦٣

بحرف ، فصلاة الظهر عند مبدأ الوجود قال تعالى في حديث المعراج ((يا محمد صلى الله عليه وآله أدن من صاد وتوضأ لصلاة الظهر)) ، وصلاة العصر عند ذكر الماهية ونسبة ربطها بالوجود ، وصلاة المغرب عند اقتران الماهية بالوجود أو الظلمة ، وصلاة العشاء عند تمام الاقتران واستيلاء حكم الماهية والحدود وترتب أحكامها عليه في نسبة الشهوات والأفعال والميولات إليه ، وصلاة الصبح عند وجدان نفسه أنه عبد مربوب لله عز وجل ، وذلك بعد قتل سيد الشهداء سيد شباب أهل الجنة عليه السلام وروحي له الفداء فافهم راشدا واشرب صافيا .

الركوع والسجود

قال تعالى ((ثم طأطأ يديك واجعلها على ركبتيك فانظر إلى عرشي ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : فنظرت إلى عظمة ذهبت لها نفسي وغشي علي فألهمت أن قلت سبحان ربي العظيم وبحمده ، لعظيم ما رأيت ، فلما قلت ذلك تجلى الغشى عني حتى قلتها سبعا ألهم ذلك فرجعت إلي نفسي كما كانت ، فمن أجل ذلك صار في الركوع سبحان ربي العظيم وبحمده ، فقال : ارفع رأسك ، فرفعت رأسي فنظرت إلى شيء ذهب منه عقلي فاستقبلت الأرض بوجهي ويدي فألهمت أن قلت (سبحان ربي الأعلى وبحمده) لعلو

ما رأيت فقلتها سبعا فرجعت إلي نفسي كما قلت واحدة منها تجلى الغشى عني فقعدت فصار السجود فيه سبحان ربي الأعلى وبحمده وصارت القعدة بين السجدتين استراحة من الغشى فألهمني الله عز وجل وطالبتني نفسي أن أرفع رأسي فرفعت ونظرت إلى ذلك العلو فغشي علي فخررت لوجهي واستقبلت الأرض بوجهي ويدي وقلت سبحان ربي الأعلى وبحمده فقلتها سبعا ثم رفعت رأسي فقعدت قبل القيام لأثني النظر في العلو فمن أجل ذلك صارت سجدتين وركعة ومن أجل ذلك صار القعود قبل القيام قعدة خفيفة)) (١) .

أقول : بعد ما فرغ عليه السلام من الانتصاب والقيام وقراءة كلام الملك العلام والقيام بخدمته في أوامره ونواهيه أمره الله سبحانه بالخضوع التام والخشوع التمام وفقدان نفسه والرجوع إلى ربه والتذلل بين يديه ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فمال إلى الانحطاط وإفناء نفسه عند سطوع ظهور ربه ، فالركوع حالة متوسطة بين الفناء المطلق المناسب لحال السجود والشعور المطلق المناسب لحال القيام ، ولذا كان الركوع

---

(١) علل الشرائع ٣١٦

أشرف وأعلى من القيام كالسجود فيه ، لأن المناط في الصلاة هو إظهار الخضوع والخشوع وإبراز العبودية المحضة لمقام الألوهية ، فما تمحض في الخضوع كان أقرب إلى الله تعالى لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم ، فإذا جعلنا الصلاة شرطا لظاهر الوجود يكون التكبير مقام الأجسام مقام ظهور الكبرياء ، والقيام مقام النفوس الظاهرة بالكثرات والشئون وإظهار الخضوع والخشوع وسريان نور العظمة في جميع أطوار الكاف والنون ، والركوع مقام العقول وعالم الجبروت ورتبة الجلال واضمحلال الكثرات ورجوع الأمر إلى حق وخلق لا ثالث بينها ولا ثالث غيرهما وإلى عابد ومعبود وبطلان استقلال كلما سوى الله ، والسجود مقام الفؤاد وباب المراد والاضمحلال عن شهود نفسه ووجدان حقيقته وذاته وسره وهو أقرب الأحوال إلى الله تعالى .

وإذا جعلنا الصلاة مفتتحها مقام العقل لما ذكرنا من أن العاقل هو المصلي لا سواه فتكون تكبيرة الافتتاح إشارة إلى مقام العقل المرتفع ، والسجود إشارة إلى مقام الحقيقة والنور ومرتبة المشاهدة والسرور وذلك لا يكون إلا بفناء السريرة .

وإن جعلنا شرحا بباطن الوجود فتكون تكبيرة الإحرام إشارة إلى توحيد العبادة ، لأن المصلي بها يحرم على نفسه الالتفات

والنظر إلى غير جهة المعبود الواحد الحق ، لأن العبادة هي التوجه والانقطاع إلى جهة المعبود لا غير ، والقيام إشارة إلى توحيد الأفعال وإرجاع المبادئ كلها إلى مبدأ واحد فإن الحمد والسورة هما كلام الله التدويني وهو على طبق الكلام التكويني حرفا بحرف نظرا إلى نسبة الكلام إلى المتكلم في التدويني والصفات فاعتبر وقس عليها حال نسبة الكلام إلى المتكلم في التكويني ((لا يسمع فيها صوت إلا صوتك ، ولا يرى نور إلا نورك)) ، والركوع إشارة إلى توحيد الصفات بوجدان ذات واحدة جميع ما عداه صفاتها وأسماؤها ولا يرى الغير أبدا لأن الأثر يكون منشأ اشتقاق اسم المؤثر مطلقا ، فالناظر إلى الأثر ناظر إلى الاسم وهذه الأسماء هي أسماء الأفعال لا أسماء الذات وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله :

لو أقسم المرء بالرحمن خالقه   بأن كل الورى لا شيء ما حنثا
إن كان شيء فغير الله خالقه   الله أكبر من أن يخلق العبثا

والسجود إشارة إلى توحيد الذات وعدم مشاهدة الصفات كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ((كمال التوحيد نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل

موصوف أنه غير الصفة ، وشهادة الصفة والموصوف بالاقتران ، وشهادة الاقتران بالحدوث الممتنع من الأزل الممتنع من الحدث)) .

وفي مصباح الشريعة عن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في باب الركوع ((لا يركع عبد لله تعالى ركوعا على الحقيقة إلا زينه الله بنور بهائه وأظله في ظلال كبريائه ، وكساه كسوة صفائه ، والركوع أول والسجود ثان ، فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني ، وفي الركوع أدب وفي السجود قرب ، ومن لا يحسن للأدب لا يصلح للقرب ، فاركع ركوع خاضع لله عز وجل ومتذلل بقلبه ووجل تحت سلطانه خافض لله بجوراحه خفض خائف حزين على ما يفوته من فوائد الراكعين ، وحكي أن ربيع بن خثيم رضوان الله عليه كان يسهر بالليل إلى الفجر في ركوع واحد فإذا أصبح تزفر وقال أوه سبق المخلصون وأقطع بنا ، واستوف ركوعك باستواء ظهرك وانحط عن همتك في القيام بخدمته إلا بعونه ، وفر بالقلب من وسوسة الشيطان وخدائعه ومكائده فإن الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له ويهديهم إلى أصول التواضع والخضوع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرهم)) (١) .

---

(١) مصباح الشريعة ٩٠ — ٩١

فإذا ظهر نور العظمة في القلب خضع وخشع وإذا خضع وخشع بظاهره وباطنه وسره وعلانيته كان نظره إلى نور العظمة أكثر وأوفر وأعلى ولذا قال عليه السلام ((فنظرت حال الركوع إلى عظمة ربي)) بعدما أمره الله سبحانه بالنظر إلى العرش فالعرش هو تلك العظمة ، قال عليه السلام ((فذهبت لها نفسي وغشي علي)) وهذا الغشى عن مشاهدة أحوال الخلق وكينوناتهم وجهات تلقياتهم الفيض الأعظم عن الله سبحانه ، والنظر إلى الاسم الأعظم الذي تحترق معه الأسماء وتسقط عنده الصفات ولذا ألهم صلى الله عليه وآله أن قال ((سبحان ربي العظيم وبحمده) ، فإن التسبيح مقام التنزيه وفيه ذكر الغير فإن النفي فرع الإثبات ، وأما التسبيح في السجود فليس كما في الركوع وإنما هناك كما قال عليه السلام ((كشف سبحات الجلال من غير إشارة)) وبينهما فرق واضح ليس الآن موضع ذكره وبيانه لأدائه للتطويل الممل .

واسم العظيم هو أعظم الأسماء بعد العلي كما قال مولانا الرضا عليه السلام على ما رواه في معاني الأخبار ((فأول ما اختاره لنفسه العلي العظيم)) فالعلي العظيم اسمان مقرونان اختارهما الله سبحانه قبل خلق الخلق والأسماء والصفات إلا أن الأول أول والثاني ثان ، ولما كان الركوع ثان والسجود أوله جعل

الأعلى في السجود تنزيه من غير إشارة وهو مقام الأحدية وظهور الوجه الأعلى من الهوية .

وإنما قاله سبعا أي ذكر الركوع سبع مرات لظهور ذلك التسبيح في سبعة هياكل ويثنى الركوع في كل صلاة فيتم بذلك الأربعة عشر يد الله ووجه الله وأسماؤه الجواد والوهاب ، هذا في الوجه الباطن المراد في الحقيقة ، وأما الوجه الظاهري فلظهور نور التسبيح في سبع مراتب الشيء الحاصل من اجتماع شكلي المثلث والمربع فيه كما شرحناه في كثير من مباحثاتنا وأجوبتنا للمسائل ، وإنما لم تجب السبعة لضعف كينونة الخلق عن ملاحظة السبعة على التفصيل وسريان نور التسبيح فيها بل اكتفي بالمرة الواحدة للملاحظة الإجمالية فافهم وأتقن .

ولما كان الركوع هو الخضوع لأجل ما رأى المصلي في قيامه أنه قائم بنفسه فيركع بجميع أعضائه ويخضع بجميع جوارحه إزالة ذلك ، فجازاه الله أن يظهر له أن الله هو الذي قواه وأقام نشأته ، فقال ((ارفع رأسك)) لبيان أن الخضوع لله والانكسار له يعقبه الارتفاع كما أن القيام بالأمر يعقبه الخضوع والانكسار ، ولذا قال عليه السلام ((فرفعت رأسي فنظرت إلى شيء ذهب منه عقلي)) لبيان أن الخضوع والخشوع لله عز وجل يوجب الارتفاع إلى

الدرجات العالية والمقامات المتعالية ، ومشاهدة أنوار الجمال الموصلة إلى مقام الوصال الناشئة عن كل المحبة المقتضية لفناء المحب عن نفسه في مشاهدة المحبوب ، ولذا وقع على الأرض وقال صلى الله عليه وآله ((فاستقبلت الأرض بوجهي ويدي)) ، الأرض هي الموت وطبعها البرودة واليبوسة وخاصيتها العدم ، ولذا كان اسم الله المربي للأرض المميت ، وإنما استقبلها بوجهه ويده ، أما الوجه فلأنه محل معروفيته ومقام جريان الأحكام عليه ، واليد فمقام قدرته وتأثيراته وشئونات آثاره ، وجميع أحوال الشيء تدور على الأصلين وهما الوجه واليد . ومعنى استقباله بهما الأرض ميله صلى الله عليه وآله بهما إلى العدم والفناء والاضمحلال لأنه مقام ظهور الوصال ، وسطوع نور العالي الظاهر بالجلال والجمال وذلك مقام السجود ، فالسجود مقام المحبين ، والركوع مقام المتيقنين العابدين ، والقيام مقام العالمين ، والتكبير مقام الزاهدين السالكين ، وقد أشار الله سبحانه إلى السجود بعد الركوع أي بعد رفع الرأس منه بقوله عز وجل في الحديث القدسي حديث الأسرار ((كلما وضعت لهم حلما رفعت لهم علما ليس لمحبتي علم ولا غاية ولا نهاية)) (١) فإن كنت

---

(١) إرشاد القلوب ١٩٩

تفهم فافهم وإلا فاسلم تسلم .

قال مولانا الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة ((ما خسر والله قط من أتى بحقيقة السجود ولو كان في عمره مرة واحدة ، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيها بمخادع نفسه غافلا لاهيا عما أعد الله تعالى للساجدين من البشر العاجل وراحة الآجل ، ولا بعد عن الله تعالى أبدا من أحسن تقربه في السجود ، ولا قرب إليه أبدا من أساء أدبه وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال السجود ، فاسجد سجود متواضع لله ذليل ، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق ، وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد ، وكون ولم يكن ، ولقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب بالقلب والسر والروح فمن قرب منه بعد عن غيره ، ألا يرى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء والاحتجاب عن كل ما تراه العيون ، كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن ، فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته قال الله تعالى ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ (١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الأحزاب ٤

وآله ((قال الله تعالى : لا أطلع على قلب عبد فأعلم فيه حب الإخلاص لطاعته وجهي وابتغاء مرضاتي إلا توليت تقويمه وسياسته ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه اسمه مكتوب في ديوان الخاسرين)) (١) .

ولما كان السجود هو الخضوع والاضمحلال بكله ، وكليات المراتب إنما هي سبعة فوجب أن يضع الأعضاء السبعة على الأرض ، ولما كان بكل خضوع وفناء يظهر نور من أنوار التوحيد ، وكان التوحيد الأعلى ظهر في سبع هياكل ، وتكرر في عالمي الغيب والشهادة والظهور والمظهر إلى أن صار الوجه أربعة عشر وجب تكرار السجود ، وأما ذكر التسبيح فلما مر لما نظر إلى ربه الأعلى جعل نفسه أسفل أو بالعكس .

والسجود إشارة إلى مقام محمد صلى الله عليه وآله لكونه أخضع خلق الله عز وجل ولذا كان هو الملقب بالحبيب وينصرف إليه عند الإطلاق وذلك حين طوافه على جلال القدرة فكان هو الذكر الأعلى ، والركوع إشارة إلى مقام أمير المؤمنين عليه السلام حين طوافه على جلال العظمة فكان هو الذكر العظيم قال تعالى

---

(١) مصباح الشريعة ٩٣ — ٩٤

﴿ وهو العلي العظيم ﴾ (١) فصار العلي اسما لأمير المؤمنين حين طوافه بجلال العظمة فافهم ، والقيام إشارة إلى مقام الحسن عليه السلام لكونه تالي الركوع ، والتكبير إشارة إلى مقام الحسين عليه السلام إذ به ظهر التوحيد والكبرياء وحرمة النظر إلى ما سوى الله ، والنسبة الجامعة إشارة إلى مقام فاطمة عليها السلام .

أو قيل أن النية إشارة إلى مقام النبي صلى الله عليه وآله ، والتكبير إشارة إلى مقام فاطمة عليها السلام ، والقيام إشارة إلى مقام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لأنه القائم على كل نفس بما كسبت وهو لسان الله الناطق بالكلام التكويني والتدويني على جميع الأنام ، والركوع إشارة إلى مقام سيدنا الحسن عليه السلام ، والسجود إشارة إلى مقام مولانا الحسين عليه السلام ، ولكل وجه مناسبة لا يخفى على المتأمل .

قيل لما احترق الخلق في نظر المساجد من أجل الدعاوى التي كانت من أول الصلاة إلى حين السجود ، ومنه يرتفع الحجب والأستار ويحرق سبحات وجهه وهو عالم الأنوار ما أدركه من عالم الخلق والآثار ، فحينئذ يستغرق المصلي العارف في نور الله ويتقلب

---

(١) البقرة ٢٥٥

فيه حيث يشاء ، فيرفع رأسه من السجود إشارة إلى أن المحترق منه هو الدعوى ووصل إلى عالم الأنوار الذي ليس فيه دعوى أصلا ، فيستغفر من الدعوى ويتوب إلى ربه الأعلى برجوعه إلى عالم النور والضياء .

وأما الطمأنينة فالمراد بها الثبات ليتحقق على ما تجلى به في المقامات السابقة عليها والملابسة لها من الأنوار المختصة بكل مقام من المقامات ، فإذا شرع وأتى بقدر ما أطلق عليه الاسم فقد فاته علم كثير ، ومن ثبت واستقر بالاطمئنان يتمكن من أن ينال شأن من الشأن .

الركعة الثانية والتشهد

قال عليه السلام ((ثم قمت ، فقال يا محمد اقرأ (الحمد) فقرأتها مثلما قرأتها أولا ، ثم قال لي : اقرأ (إنا أنزلناه) فإنها نسبتك ونسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة) ثم ركعت فقلت في الركوع والسجود مثل ما قلت أولا ، وذهبت أن أقوم ، فقال : يا محمد اذكر ما أنعمت عليك وسم باسمي ، فألهمني الله أن قلت (بسم الله وبالله لا إله إلا الله والأسماء الحسنى كلها لله) ، فقال لي : يا محمد صل عليك وعلى أهل بيتك : فقلت : صلى الله عليّ وعلى

أهل بيتي وقد فعل)) (١) .

واعلم أن العالم عالمان عالم البدء وعالم العود وهما وإن كانا واحدا لأن البدء هو العود والعكس ، ويشير إليه قوله تعالى ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ (٢) على ما تقرر عندنا أن المشبه في القران عين المشبه به وما مصدرية فيكون الكلام بدؤكم عودكم ، إلا أن العود لما كان صعودا بعد النزول ووصولا بعد الذهول ، وهما متطابقان في الظهور والصفات والشئونات ولذا كانت الصلاة ركعتين فالأولى تشير إلى ظهور العظمة إلى مواضع الخضوع والخشوع في العالم الأول البدوي ، والثانية تشير إلى ظهورها في العالم العودي ، وكلاهما متطابقان متحدان ، ولذا كان عليه السلام لما أحياه الله تعالى من ظلمة العدم الإمكاني إلى عالم الوجود الكوني قام بخدمة المعبود ثم ركع منفيا عن نفسه الشهود مستغرقا في بحر الأسماء ومذللا نفسه عند مشاهدة التجلي الأعظم ، ثم رفع رأسه إثباتا لمقام الأسماء القاهرة جميع الأشياء واستغفر عن ذنب مشاهدة حالان فيها ذكر الأغيار وذلك مستلزم للأكدار فسجد ثانيا لتلافي ما فات

---

(١) علل الشرائع ٣١٦ (٢) الأعراف ٢٩

إدراك مقام المحبة التي وعدها الله سبحانه للتوابين حيث قال ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (١) فاستغرق في بحر توحيد الذات معرضا عن جميع الأسماء والصفات التي هي السبحات فدخل في لجة بحر الأحدية وطمطام يم الوحدانية وذلك عند نفخة الجذب التي هي نفخة الصعق فتجذب الروح الأمري والنور الفعلي الإلهي إلى مبدئها وبارئها ومنشئها ومكونها لا بالإشارة ولا كيف ولا باتصال ولا انفصال ، فهو دائم التلذذ باللقاء عن الناس وعن كل ما سواه ، فبقي السوى ميتا لا حراك له فلا حس ولا محسوس ، فتبطل الحركات وتذل الإنيات فلم يبق إلا وجه الله بارئ النسمات ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (٢) فهو الموت الأعظم لكل العالم ، ثم نفخ في الصور نفخة أخرى وهي نفخة الدفع وذلك عند توجه النور إلى عالم الغيور ورفع الرأس من السجدة الثانية إشارة إلى ذلك ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ (٣) ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله ((ثم قمت)) أي للقيامة الكبرى ((فقال تعالى : يا محمد اقرأ الحمد كما قرأتها أولا)) وذلك لحكم التطابق والتوافق في العالمين وهو قوله تعالى ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من

---

(١) البقرة ٢٢٢ (٢) القصص ٨٨ (٣) الزمر ٦٨

قبل وأتوا متشابها ﴾ (١) إلا أن العالم الثاني لما كان مقام الكمال الذي اكتسبه الكامل الأول المطلق في المبدأ كان يجري فيه سر قوله تعالى ((يا ابن آدم أنا حي لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حيا لا تموت ، يا ابن آدم أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون)) (٢) .

فأمره الله سبحانه أن يقرأ ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ (٣) لأنها نسبة محمد وآله صلى الله عليه وعليهم ، فقال صلى الله عليه وآله ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ أي أنزلنا القرآن العام الشاف الصامت والناطق متلبسا باسم الله أي الاسم الأعظم ، أي التجلي الأعظم الأعلى كما في دعاء ليلة المبعث المدلول عليه بلفظ الجلالة الجامع لعظيم التجليات والظهورات الخاصة والعامة في مقام التفصيل في رتبة المعارف هو هذا القرآن ، وفي سلسلة الحقائق إمام أهل الأكوان والأعيان ، فباقتضاء ذلك الاسم الجامع وطلب اسم الرحمن الظاهر بالولاية الكبرى والسلطنة العظمى والرئاسة العليا وإعطاء كل ذي حق حقه والسوق إلى كل مرزوق رزقه ، والرحيم المرتب لنعيم الجنة وحورها وقصورها

---

(١) البقرة ٢٥ (٢) إرشاد القلوب ٧٥ (٣) القدر ١

لأهلها من المؤمنين ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ أي أنزلنا عليا عليه السلام لأنه في العالم التفصيلي علي عليه السلام عند الإشباع وقد أشار إليه بقوله تعالى ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي عظيم ﴾ (١) هذا بلا إشباع ، وأما مع الإشباع ففي قوله تعالى ﴿ هو العلي العظيم ﴾ ، فإن عليا سلام الله عليه هو سماء عالم الولاية وفاطمة أرضها وسائر الأئمة عليهم السلام نباتها وأشجارها ورسول الله صلى الله عليه وآله عرشها وسقفها ، فلولا أن الشمس تنزل ماءها وأشعتها على وجه الأرض ما نبتت شيء ، وكذلك لولا أن عليا عليه السلام أنزله الله في فاطمة الصديقة عليها السلام ما ظهرت الأئمة في عالم الوجود التفصيلي ، وتزويجهما صلى الله عليهما آيته ودليله جوزهر القمر الحاصل من تقاطع الشمس الذي هو علي عليه السلام مع القمر الذي هو فاطمة عليها السلام ، ومن هذا التقاطع ظهرت العقدتان تدلان على الحسن والحسين عليهما السلام سيدي شباب أهل الجنة ، وليلة القدر هي فاطمة عليها السلام أما أنها ليلة القدر فلأنها الباردة الرطبة التي هي طبع الأنثى ولأن الزوجة مسكن الزوج كالليل قال تعالى ﴿ وجعلنا الليل لباسا

---

(١) الزخرف ٤

والنهار معاشا ﴾ (١) ، ولأن الزوجة لما كانت محل الحدود والهيئات وهي تستلزم الكثرة المستلزمة للظلمة الإضافية ، وأما القدر فلكونها ذات قدر عظيم عند الله عز وجل حتى أن الله فطمها وفطم محبيها ومحبي محبيها إلى سبعة من النار ، ولكونها محل التقدير أي تحديد الأئمة وتقريرهم في رحمها كما قال عز وجل ﴿ وفيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ (٢) وهي في الظاهر إحدى ليالي شهر رمضان المبارك تقدر فيها الآجال والأرزاق .

﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ (٣) ذكر هذه العبارة إعظاما لشأنها وتفخيما لمكانها وإثباتا لعظم قدرها وقرب منزلتها عند الله تعالى ، والخطاب من قبيل إياك أعني واسمعي يا جارة وإلا فرسول الله صلى الله عليه وآله هو أعلم بها وبمنزلتها من كل أحد من المخلوقين .

﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ (٤) كررت الليلة ثلاث مرات إشارة إلى ظهورها صلوات الله عليها في الأيام الثلاثة الدنيا والرجعة والقيامة ، وألف شهر هي مراتب الوجود وقد شرحناه في

---

(١) النبأ ١٠ — ١١ (٢) الدخان ٤ (٣) القدر ٢ (٤) القدر ٣

سائر رسائلنا وأجوبتنا ومباحثاتنا وذكره هنا يوجب التطويل ، وألف شهر ثمانون سنة تمام حكم بني أمية .

﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ (١) الملائكة هم الأئمة عليهم السلام لأن الملائكة هم العبيد كما يقال إن فلانا سيئ الملائكة وفلانا حسن الملائكة أي سيئ الصنع بعبيده ، وهم سلام الله عليهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، وإن الملائكة مشتقة من الألوكة بمعنى الرسالة ، وهم سلام الله عليهم هم وسائط الفيض بين الله عز وجل وبين عبيده ، والروح هو أمير المؤمنين عليه السلام قال عليه السلام ((أنا الروح من أمر ربي)) ، وهم الذين قد نزلوا في فاطمة عليها السلام من الغيب الأول نزول الآحاد في التسعة وذلك واضح ظاهر إنشاء الله تعالى .

﴿ بإذن ربهم من كل أمر سلام ﴾ (٢) أي من كل أمر من متعلقات الأمر الفعلي في قوله تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (٣) أو من قرانات الأمر المفعولي الذي هو على هيئة الأمر الفعلي بل هو عينه في قوله تعالى ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ (٤) ، هي أي هذه الليلة المباركة من زمان غيبة النبي صلى

---

(١) ، (٢) القدر ٤ (٣) يس ٨٢ (٤) النساء ٤٧

الله عيه وآله أي غروب شمس النبوة تمتد حتى مطلع الفجر ، فجر طلوع القائم عليه السلام أو الحسين عليه السلام .

فلما أتم السورة ظهر قوله تعالى ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ (١) فثبت لهم الاستقلال والتذوت فأراد صلى الله عليه وآله بيان عبوديتهم واضمحلالهم وعدم استقلالهم وأنهم ليسوا بالأشياء إلا بالله جل جلاله ، وهم الأذلاء بين يديه ، فركع انمحاقا لمشيئته وإعلاما لإرادته ليظهر قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ (٢) ، وقوله تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ (٣) ، ثم سبح الله تعالى وقدسه ونزهه لئلا يكون مستقلا ومتذوتا سواه إظهارا لقوله تعالى ﴿ ومن يقل منهم أني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ (٤).

ثم رفعه الله برفعته وجعله محلا لمشيئته ولسانا لإرادته وحاكما على بريته وهو قوله تعالى في الحديث القدسي حديث الأسرار ((كلما رفعت لهم علما وضعت لهم حلما)) فازداد خضوعا وانكسارا وتعبدا إلى أن اقترن بالتراب وعفر جبينه وخديه

---

(١) الأنبياء ٢٦ — ٢٧ (٢) الأنفال ١٧ (٣) الإنسان ٣٠ (٤) الأنبياء ٢٩

وناصيته لرب الأرباب ومالك الرقاب وهو سجوده صلى الله عليه وآله تحت العرش يوم القيامة ، فسبح اسم ربك الأعلى عن مقارنة الأشياء ، لاستغراقه في بحر الصفات والأسماء ، فرفعه الله سبحانه وجل اسمه الأعظم الأجل الأعلى المكنون المخزون الذي يحبه ويرضاه ، ثم وضع له حلما فازداد خضوعا وذلة وخر مغشيا عليه وسكن التراب وأمات نفسه من كل باب ، فرفعه الله سبحانه وناداه : يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع ، فرفع صلى الله عليه وآله رأسه امتثالا لأمر ربه فأقامه الله سبحانه مقامه في سائر عالمه في الأداء إذ كان لا تدركه الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار ، فليس بعد ذلك مقام للقيام ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله ((وذهبت أن أقوم)) إثباتا لقوله صلى الله عليه وآله ((خلق ساكن لا يدرك بالسكون)) (١) فلما أعطاه الله هذه النعمة الجليلة والمنقبة العظيمة والمرتبة الرفيعة ، بحيث لا يلحقها لاحق ولا يطمع في إدراكها طامع ، ذكره الله تعالى نعمته بأن جعله في مقام الصحو بعد السكر والبقاء بعد الفناء ، فأمره أن يسمي باسمه تعالى لأنه أول مقام من مقامات الفرق ، ويتشهد بالشهادتين لأنهما بعد ظهور الأسماء

---

(١) عيون أخبار الرضا ١ / ١٧٤

وهو علة وجوب التشهد وهو حالة بقاء العبد ببقاء الله ورؤية أن الأمر بيد الله والملك لله الواحد القهار ، قال الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة ((التشهد ثناء على الله فكن له عبدا في السر خاشعا خاضعا له في الفعل كما أنك عبد له بالقول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك ، فإنه خلقك عبدا وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك ، وأن تحقق عبوديتك له بربوبيته لك ، وتعلم أن نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيئته وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلا بإذنه وإرادته قال الله تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ ، فكن لله عبدا ذاكرا بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرك فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشيئة لأحد إلا بسابق إرادته ومشيئته ، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته وبالعبادة في أداء أوامره ، وقد أمرك بالصلاة على حبيبه النبي محمد صلى الله عليه وآله فأوصل صلاته بصلاته وطاعته بطاعته وشهادته بشهادته ، وانظر لا يفوتك معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلاته ، وأمره بالاستغفار لك والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب

، وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل)) (١) .

التسليم

قال عليه السلام ((ثم التفت فإذا أنا بصفوف من الملائكة والنبيين والمرسلين ، فقال لي : يا محمد سلم ، قلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : يا محمد ، إني أنا السلام والتحية ، والرحمة والبركات أنت وذريتك ، ثم أمرني ربي الجبار أن لا ألتفت يسارا وأول سورة سمعتها بعد ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ، فمن أجل ذلك كان السلام مرة واحدة تجاه القبلة ، ومن أجل ذلك صار التسبيح في الركوع والسجود شكرا ، وقوله سمع الله لمن حمده لأن النبي صلى الله عليه وآله قال : سمعت ضجة الملائكة فقلت سمع الله لمن حمده بالتسبيح والتهليل ، فمن أجل ذلك جعلت الركعتان الأولتان كلما حدث فيها حدث كان على صاحبها إعادتها وهي الفرض الأول ، وهي أول ما فرضت عند الزوال يعني صلاة الظهر)) (٢) .

ولما فرغ من التشهد بعد ذكر الأسماء وأكمل السفر الثالث

---

(١) مصباح الشريعة ٩٥ -٩٦ (٢) علل الشرائع ٣١٦

الذي هو السفر من الحق إلى الخلـق وملكـه شـفاعة الـرزق وأعطـاه الوسيلة وهي المنبر المعروف الـذي ألـف مرقـاة ومـن كـل مرقـاة إلى مرقاة عدو الفرس ألف سنة أو خمسمائة ألف سنة يصعـد رسـول الله صلى الله عليه وآله ويقعد أعلاه فيسلم الله سبحانه إليه مفاتيح الجنـة والنار ولواء الحمد ، فالتسليم يومئذ إلى كل ذرة من الذرات حقـها من النعيم والأليم في الجنة والنار عليه صلـى الله عليـه وآلـه فيدخـل الجنة من يشاء ويعطيه أي مرتبة يشاء ويدخل النار من يشـاء ، فإليـه سلم أمر الخلائق ولذا قال عز وجل خطابا لـه صلـى الله عليـه وآلـه السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاتـه ، أي تسـليم مـا أعـد الله للمتقين في عليين على تفاوت مراتبهم ودرجاتـهم ومقاماتـهم ، ومـا أعد الله للكافرين من الحميم والعذاب الأليم في سجين على تفـاوت مراتبهم ودركاتهم ومقاماتهم ، وتسليم كل ملك الأمر الموكل عليه ، وكل شجرة في الجنة وفي النار ما تقتضيه من الأثمار الطيبة والخبيثـة ، وغيرها من سائر الأحـوال كـل ذلـك عليـك لأنـك الـولي المطلـق والحاكم الحق ﴿ هذا عطاؤنا فـامنن أو أمسـك بغـير حسـاب ﴾ (١) ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتـهوا ﴾ (٢) فـهو ولي

---

(١) ص ٣٩ (٢) الحشر ٧

الإعطاء والمنع بأمر من الله عز وجل ، فلما شـرفه الله سبحانه بهذه الشرافة الكاملـة أراد صلـى الله عليـه وآلـه أن يشـرك معـه في هـذه المرتبة الكاملة والمنقبة العظيمة أهل بيته الطيبين الطاهرين مـن حيث أنهم أصحاب الولاية الظاهرة وعندهم الأحكـام الاقترانيـة الخاصـة فقال صلى الله عليه وآله (السلام علينا وعلى عباد الله الصـالحين) أي هذا التسليم الذي هو ولايـة الله سبحانه الظـاهرة في المخلوقـين علينا وهو نفسه المقدسة مقترنة بهم صلى الله عليه وعليـهم ، وعبـاد الله الصالحين هم الأئمة الطاهرين عليـهم السـلام ، لأن ولايـة النبي صلى الله عليه وآله إنما ظهرت فيهم وهم أصحاب الحشر والنشـر ، وإن إليهم إياب هذا الخلق كما أن عليهم حسابهم كما قـال مولانـا الباقر عليه السلام هو علي أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنا قد ذكرنا في الجزء الثاني من شرح الخطبة الطتنجيـة أن ضمـير المتكلـم وحـده موضوع لرسول الله صلـى الله عليـه وآلـه وهـو مؤلـف مـن حروفـه الخاصة به ، وضمير المتكلم معه غـيره موضـوع لعلـي عليـه السـلام وهو الاســم الخـاص بـه مؤلـف مـن الحـروف الخاصـة بـه ، والعبـاد الصالحون هم باقي الأئمة عليهم السلام ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله ((أعطيت لواء الحمـد وعلـي حاملـه ، والجنـة والنـار وعلي قسيمهما ، وأعطيت الحـوض وعلـي ساقيه)) ، فلمـا طلـب

رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك من الله عز وجل فأجاب سبحانه دعوته وأعطاه مضمون طلبته وشركهم في الأمر معه صلى الله عليه وآله ، فقال عز وجل بلسانه (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ، أي تسليم كل ذي حق حقه إياه عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ، لأنكم مهابط وحيي ومخازن علمي وموارد أمري ونهيي ومحال مشيئتي ومواضع إرادتي ، ورحمة الله وبركاته أي نشر الرحمة وإيصالها إلى كافة الموجودات من أهل الجنة والنار وإعطاء كل ذي حق حقه والسوق إلى كل مخلوق رزقه منوط وموقوف عليكم ، فحينئذ صعدوا إلى منبر الوسيلة ووقف كل أحد منهم صلى الله عليهم على المرقاة المناسبة لمقامه ومرتبته ، ووقف مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بمرقاة أنزل من مرقاة النبي صلى الله عليه وآله فأتاه رضوان خازن الجنان وسلم عليه وسلم عليه صلى الله عليه مفاتحها فأمره أن يسلمها لعلي عليه السلام ، وأتي بلواء الحمد له صلى الله عليه وآله فأمر عليا عليه السلام أن يحمله ثم أن الخلق أي أهل المحشر كلهم أجمعين من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين وسائر الخلق من الجن والإنس أجمعين وقوف عن يمين المنبر ويساره وصحائف أعمالهم بيمينهم أو بشمالهم وهم قعود كهيئة المتشهد ينظرون صحائفهم فيقوم علي عليه السلام الحامل للواء

الحمد وكل الخلق ينظرون صحائفهم وكل أحد يرى أنه عليه السلام يقرأ صحيفته لا غيره على اختلاف الصحائف والأعمال وتباينها وتضادها وهو قوله تعالى ﴿ وترى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (١) لأن الأعمال كل يوم تعرض على الإمام عليه السلام ، فالمتشهد حين قعوده يستشعر أنه في معرض الجاث جاث بين يدي ولي الحساب فيقول (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل على محمد وآل محمد) ، ثم يلتفت إلى التسليم ويطلب من صاحب الأمر والحكم النجاة والدخول إلى دار السلام وبه تمام الأمر .

ولما كانت الركعتان بيان حكم البدو والعود وهما الأصلان اللذان بهما قامت الكائنات وسكنت السواكن وتحركت المتحركات ، صارت الركعتان هما الأصلان تؤديا بكمال الشرائط والأركان فإذا وقع فيهما شك أو سهو فلا بد من إعادتهما ، ولذا كانت الركعتان فريضتان من الله عز وجل ، وفرضت الصلاة مثنى

---

(١) الجاثية ٢٨ - ٢٩

مثنى إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله زاد في كل من الظهر والعصر ركعتين لبيان قيام القائم عليه السلام والرجعة ، وأما في المغرب زاد ركعة واحدة لبيان اتحاد الأمرين في الحقيقة ولأن صلاة المغرب منسوبة إلى فاطمة عليها السلام كانتساب الظهر برسول الله صلى الله عليه وآله وانتساب العصر بأمير المؤمنين عليه السلام والعشاء بالحسن عليه السلام والصبح بالحسين عليه السلام ، وكان للذكر مثل حظ الأنثيين فزيد لها ركعة واحدة ، وما زاد في الصبح لأن صلاة الصبح تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار فتكتب أربعا فلو زاد لزاد على سائر الصلوات ولم يجز ذلك وهو قوله تعالى ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ (١) أي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار .

ثم اعلم أن ما فرض على رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة المعراج خمسون صلاة كما رواه في الفقيه عن الصادق عليه السلام في قوله عز وجل ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ (٢) قال ((مفروضا ، وقال عليه السلام : إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أسري به أمره ربه بخمسين صلاة ، فمر على

---

(١) الإسراء ٧٨ (٢) النساء ١٠٣

النبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتى انتهى إلى موسى بن عمران عليه السلام ، فقال : بأي شيء أمرك ربك ، فقال : بخمسين صلاة ، فقال : اسأل ربك التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فسأل ربه فحط عنه عشرا ، ثم مر بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتى مر بموسى بن عمران عليه السلام فقال : بأي شيء أمرك ربك ، فقال : بأربعين صلاة ، فقال : اسأل ربك التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فسأل ربه فحط عنه عشرا ، ثم مر بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتى مر بموسى بن عمران عليه السلام فقال : بأي شيء أمرك ربك ؟ فقال : بثلاثين صلاة ، فقال : اسأل ربك التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فسأل ربه عز وجل فحط عنه عشرا ، ثم مر بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتى مر بموسى بن عمران عليه السلام ، فقال : بأي شيء أمرك ربك فقال : بعشرين صلاة ، فقال : اسأل ربك التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فسأل ربه فحط عنه عشرا ، ثم مر بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتى مر بموسى بن عمران عليه السلام فقال : بأي شيء أمرك ربك ، فقال : بعشر صلوات ، فقال : اسأل ربك التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني جئت إلى بني إسرائيل بما افترض الله عز وجل عليهم فلم يأخذوا به ولم يقروا عليه ، فسأل النبي صلى الله

عليه وآله ربه عز وجل فخفف عنه فجعلها خمسا ، ثم مر بالنبيين نبي نبي لا يسألونه عن شيء حتى مر بموسى عليه السلام فقال له : بأي شيء أمرك ربك ، فقال : بخمس صلوات ، فقال : اسأل ربك التخفيف عن أمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فقال إني لأستحي أن أعود إلى ربي ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس صلوات ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله جزى الله موسى بن عمران عن أمتي خيرا ، وقال الصادق عليه السلام : جزى الله موسى بن عمران عنا خيرا)) (١) .

وروي عن زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام ، أنه قال ((سألت أبي سيد العابدين عليه السلام فقلت له : يا أبة أخبرني عن جدنا رسول الله صلى الله عليه وآله لما عرج به إلى السماء وأمره ربه عز وجل بخمسين صلاة كيف لم يسأله التخفيف عن أمته حتى قال له موسى بن عمران عليه السلام : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك ؟ فقال : يا بني إن رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقترح على ربه عز وجل فلا يراجعه في شيء يأمره به ، فلما سأله موسى عليه السلام ذلك وصار شفيعا لأمته لم يجز له أن يرد

(١) الفقيه ١ / ١٩٧ ح ٦٠٢

شفاعة أخيه موسى عليه السلام ، فرجع إلى ربه عز وجل فسأله التخفيف إلى أن ردها إلى خمس صلوات ، قال : فقلت له يا أبة فلم لم يرجع إلى ربه عز وجل ولم يسأله التخفيف من خمس صلوات وقد سأله موسى عليه السلام أن يرجع إلى ربه عز وجل ويسأله التخفيف ، فقال يا بني أراد عليه السلام أن يحصل لأمته التخفيف مع أجر خمسين صلاة لقول الله عز وجل ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ (١) ألا ترى أنه عليه السلام لما هبط إلى الأرض نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال : يا محمد إن ربك يقرؤك السلام ويقول : إنها خمس بخمسين ﴿ ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾ (٢) ، قال : فقلت له يا أبة أليس الله جل ذكره لا يوصف بمكان ؟ فقال : بلى ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، قلت : فما معنى قول موسى عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله : ارجع إلى ربك ؟ فقال : معناه معنى قول إبراهيم عليه السلام ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ (٣) ومعنى قول موسى عليه السلام ﴿ وعجلت إليك ربي لترضى ﴾ (٤) ومعنى قوله عز وجل ﴿ ففروا إلى الله ﴾ (٥) يعني

---

(١) الأنعام ١٦٠ (٢) ق ٢٩ (٣) الصافات ٩٩
(٤) طه ٨٤ (٥) الذاريات ٥٠

حجوا إلى بيت الله ، يا بني إن الكعبة بيت الله فمن حج بيت الله فقد قصد الله ، والمساجد بيوت الله فمن سعى إليها فقد سعى إلى الله وقصد إليه ، والمصلي ما دام في صلاته فهو واقف بين يدي الله عز وجل فإن لله تبارك وتعالى بقاعا في سماواته ، فمن عرج به إلى بقعة منها فقد عرج به إليه ألا تسمع الله عز وجل يقول﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ (١) ويقول الله عز وجل في قصة عيسى بن مريم عليه السلام ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ (٢) ويقول الله عز وجل ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ (٣))) (٤) .

وإنما خص موسى بن عمران للسؤال عن التخفيف دون سائر الأنبياء لأن أته أشد الأمم عنادا ولجاجة وإعراضا عن الحق إذا أتى لهم بشيء يثقل عليهم.

واعلم أن ما ذكر من أسرار الصلاة وعللها وما يتعلق بها كل ذلك بدليل الحكمة إلا في بعض الأحوال ، وقد روى الفضل بن شاذان عن مولانا الرضا عليه السلام علل الطهارة والصلاة وما يتعلق بها بدليل الموعظة الحسنة إلا ما قيل في بعض الأحوال ، وأنا

---

(١) المعارج ٤ (٢) النساء ١٥٨ (٣) فاطر ١٠

(٤) الفقيه ١ / ١٩٩ ح ٦٠٣

أحب أن أذكر هذا الحديث بطوله ليكون كتابنا هذا جامعا للمقامات عن الأئمة البررة السادات عليهم آلاف الصلاة والتحيات ليعلم كل أناس مشربهم وينال كل أحد مطلبه ، فلنشرع في ذكر الحديث عن موضع الحاجة .

قال عليه السلام ((وإن قيل فلم أمروا بالصلاة ؟ قيل لأن في الصلاة الإقرار بالربوبية وهو صلاح عام لأن فيه خلع الأنداد والقيام بين يدي الجبار بالذل والاستكانة والخضوع والاعتراف والطلب في الإقالة من سالف الذنوب ووضع الجبهة على الأرض كل يوم ليكن ذاكرا لله غير ناس له يكون خاشعا وجلا متذللا طالبا راغبا مع الطلب للدين والدنيا بالزيادة مع ما فيه من الانزجار عن الفساد جدا وصار ذلك عليه في كل يوم وليلة لئلا ينسى العبد مدبره وخالقة فيبطر ويطغى وليكون في ذكر خالقه والقيام بين يدي ربه زاجرا له عن المعاصي ، وحاجزا ومانعا عن أنواع الفساد .

فإن قال قائل : فلم أمر بالوضوء وبدأ به ؟ قيل لأنه يكون العبد طاهرا إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه مطيعا له فيما أمره نقيا من الأدناس والنجاسة مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار .

فإن قال قائل : فلم وجب ذلك على الوجه واليدين ومسح الرأس والرجلين ؟ قيل لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار قائما ينكشف من جوارحه ويظهر ما وجب فيه الوضوء ، وذلك أنه بوجهه يستقبل ويسجد ويخضع ، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويبتهل ، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده ، وبرجليه يقوم ويقعد .

فإن قيل فلم وجب الغسل على الوجه واليدين والمسح على الرأس والرجلين ولم يجعل غسلا كله ولا مسحا كله ؟ قيل لعلل شتى .

منها : أن العبادة إنما هي الركوع والسجود وإنما يكون الركوع والسجود بالوجه واليدين لا بالرأس والرجلين .

ومنها : أن الخلق لا يطيقون في كل وقت غسل الرأس والرجلين ، ويشتد ذلك عليهم في البرد والسفر والمرض والليل والنهار ، وغسل الوجه واليدين أخف من غسل الرأس والرجلين ، وإنما وضعت الفرائض على قدر أقل الناس طاقة من أهل الصحة ثم عم فيها القوي والضعيف ، ومنها : أن الرأس والرجلين ليس هما في كل وقت باديين وظاهرين كالوجه واليدين لموضع العمامة والخفين وغير ذلك .

فإن قال قائل : فلم وجب الوضوء مما خرج من الطرفين خاصة ومن النوم دون سائر الأشياء ؟ قيل : لأن الطرفين هما طريق النجاسة وليس للإنسان طريق تصيبه النجاسة من نفسه إلا منهما فأمروا بالطهارة عندما تصيبهم تلك النجاسة من أنفسهم ، وأما النوم : فإن النائم إذا غلب عليه النوم يفتح كل شيء منه واسترخى فكان أغلب الأشياء كله فيما يخرج منه ، فوجب عليه الوضوء بهذه العلة .

فإن قال قائل : فلم لم يؤمروا بالغسل فمن هذه النجاسة كما أمروا بالغسل من الجنابة ؟ قيل : لأن هذا شيء دائم غير ممكن للخلق الاغتسال منه كلما يصيب ذلك و ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ (١) ، والجنابة ليست هي أمرا دائما إنما هي شهوة يصيبها إذا أراد ويكنه تعجيلها وتأخيرها للأيام الثلاثة والأقل والأكثر وليس ذلك هكذا .

فإن قيل : فلم أمروا بالغسل من الجنابة ولم يؤمروا بالغسل من الخلاء وهو أنجس من الجنابة وأقذر ؟ قيل : من أجل أن الجنابة من نفس الإنسان وهو شيء يخرج من جميع جسده والخلاء ليس هو

---

(١) البقرة ٢٨٦

من نفس الإنسان إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب .

فإن قال قائل : فلم صار الاستنجاء بالماء فرضا ؟ قيل : لأنه لا يجوز للعبد أن يقوم بين يدي الجبار وشيء من ثيابه وجسده نجس .

فإن قال قائل : فأخبرني عن الأذان لم أمروا ؟ قيل لعلل كثيرة .

منها : أن يكون تذكيرا للساهي وتنبيها للغافل وتعريفا لمن جهل الوقت واشتغل عنه ، وداعيا إلى عبادة الخالق مرغبا فيها مقرا له بالتوحيد مجاهرا بالإيمان معلنا بالإسلام مؤذنا لمن يتساهى وإنما يقال مؤذن لأنه المؤذن بالصلاة .

فإن قيل : فلم بدأ بالتكبير قبل التسبيح والتهليل والتحميد ؟ قيل : لأنه أراد أن يبدأ بذكره واسمه لأن اسم الله في التكبير في أول الحرف وفي التسبيح والتحميد والتهليل اسم الله في آخر الحرف ، فبدأ بالحرف الذي اسم الله في أوله لا في آخره .

فإن قيل : فلم جعل مثنى مثنى ؟ قيل لأن يكون مكررا في آذان المستمعين مؤكدا عليهم إن سهى أحد عن الأول لم يسه عن الثاني ، ولأن الصلاة ركعتان ركعتان فكذلك جعل الأذان مثنى مثنى .

فإن قال قائل : فلم جعل التكبير في أول الأذان أربعا ؟ قيل : لأن أول الأذان إنما يبدأ غفلة وليس قبله كلام ينبه المستمع له فجعل الأولين تنبيها للمستمعين لما بعده في الأذان .

فإن قال قائل : فلم جعل بعد التكبيرين الشهادتين ؟ قيل لأن إكمال الإيمان هو التوحيد والإقرار لله بالوحدانية والثاني الإقرار للرسول بالرسالة لأن طاعتهما ومعرفتهما مقرونتان ولأن أصل الإيمان إنما هو الشهادة فجعلت الشهادتين شهادتين كما جعل سائر الحقوق شهادتين فإذا أقر لله بالوحدانية وأقر للرسول بالرسالة فقد أقر بجملة الإيمان ، لأن أصل الإيمان إنما هو الإقرار بالله ورسوله .

فإن قال قائل : فلم جعل بعد الشهادتين الدعاء إلى الصلاة ؟ قيل : لأن الأذان إنما وضع لموضع الصلاة وإنما هو نداء إلى الصلاة في وسط الأذان ، فقدم قبلها أربعا التكبيرتين والشهادتين وأخر بعدها أربعا يدعو إلى الفلاح حثا على البر والصلاة ثم دعا إلى خير العمل مرغبا فيها وفي عملها وفي أدائها ، ثم نادى بالتكبير والتهليل ليتم بعدها أربعا كما أتم قبلها أربعا وليختم كلامه بذكر الله وتحميده كما فتحه بذكره وتحميده .

فإن قال قائل : فلم جعل آخرها التهليل ولم يجعل آخرها التكبير كما جعل في أولها التكبير ؟ قيل : لأن التهليل اسم الله في آخر الحرف منه فأحب الله أن يختم الكلام باسمه كما فتحه باسمه .

فإن قيل : فلم لم يجعل بدل التهليل التسبيح والتحميد واسم الله في آخر الحرف من هذين الحرفين ؟ قيل : لأن التهليل إقرار له بالتوحيد وخلع الأنداد من دون الله وهو أول الإيمان وأعظم من التسبيح والتحميد .

فإن قال قائل : فلم بدأ في الاستفتاح والركوع والسجود والقيام والقعود بالتكبير ؟ قيل : للعلة التي ذكرناها في الأذان .

فإن قال : فلم جعل الدعاء في الركعة الأولى قبل القراءة ولم جعل في الركعة الثانية القنوت بعد القراءة ؟ قيل : لأنه أحب أن يفتح قيامه لربه وعبادته بالتحميد والتقديس والرغبة والرهبة ويختمه بمثل ذلك وليكون في القيام عند القنوت بعض الطول فأحرى أن يدرك المدرك الركوع فلا يفوته الركعتان في الجماعة .

فإن قال : فلم أمروا بالقراءة في الصلاة ؟ قيل : لأن لا يكون القرآن مهجورا مضيعا ، بل يكون محفوظا مدروسا فلا يضمحل ولا يجهل .

فإن قال : فلم بدأ بالحمد في كل قراءة دون سائر السور ؟ قيل لأنه ليس شيء من القرآن والكلام جمع فيه من جوامع الخير والحكمة ما جمع في سورة الحمد ، إلى قوله عليه السلام : فقد اجتمع فيه من جوامع الخير والحكمة من أمر الآخرة والدنيا ما لا يجمعه شيء من الأشياء .

أقول : وقد ذكرناه من قبل فراجع فلنرجع إلى الحديث .

فإن قال : فلم جعل التسبيح والركوع والسجود ؟ قيل لعلل .

منها : أن يكون العبد مع خضوعه وخشوعه وتعبده وتورعه واستكانته وتذلله وتواضعه وتقربه إلى ربه مقدسا له ممجدا مسبحا معظما شاكرا لخالقه ورازقه ، وليستعمل التسبيح والتحميد كما استعمل التكبير والتهليل وليشغل قلبه وذهنه بذكر الله ولم يذهب به الفكر والأماني غير الله .

فإن قال : فلم جعل أصل الصلاة ركعتين ولم زيد على بعضها ركعة وعلى بعضها ركعتان ولم يزد على بعضها شيء ؟ قيل : لأن أصل الصلاة إنما هي ركعة واحدة لأن أصل العدد واحد فإذا نقصت من واحد فليست هي صلاة فعلم الله عز وجل أن العباد لا يؤدون تلك الركعة الواحدة التي لا صلاة أقل منها بكمالها

وتمامها والإقبال عليها فقرن إليها ركعة أخرى ليتم بالثانية ما نقص من الأولى ففرض الله أصل الصلاة ركعتين ، ثم علم رسول الله صلى الله عليه وآله أن العباد لا يؤدون هاتين الركعتين بتمام ما أمروا به وبكمالها فضم إلى الظهر والعصر والعشاء الآخرة ركعتين ركعتين ليكون فيها تمام الركعتين الأوليين ، ثم علم أن صلاة المغرب يكون شغل الناس في وقتها أكثر للانصراف إلى الإفطار والأكل والوضوء والتهيئة للمبيت فزاد فيها ركعة واحدة لتكون أخف عليهم ولأن تصير ركعات الصلاة في اليوم والليلة فردا ثم ترك الغداة على حالها لأن الاشتغال في وقتها أكثر والمبادرة إلى الحوائج فيها أعم ولأن القلوب فيها أخلى من الفكر لقلة معاملات الناس بالليل وقلة الأخذ والإعطاء فالإنسان فيها أقبل على صلاته منه في غيرها من الصلوات لأن الفكر أقل لعدم العمل من الليل .

فإن قال : فلم جعل في الاستفتاح سبع تكبيرات ؟ قيل : لأن الفرض منها واحد وسائرها سنة ، وإنما جعل ذلك لأن التكبير في الصلاة الأولى التي هي الأصل كله سبع تكبيرات ، تكبيرة استفتاح وتكبيرة الركوع وتكبيرتي السجود وتكبيرة أيضا في الركوع وتكبيرتين للسجود ، فإذا كبر الإنسان في أول صلاته سبع تكبيرات فقد علم أجزاء التكبير كله فإن سهى في شيء منها أو تركها لم

يدخل عليه نقص في صلاته ، كما قال أبو جعفر وأبو عبدالله عليهما السلام : من كبر أول صلاته سبع تكبيرات أجزئه وتجزي تكبيرة واحدة ثم إن لم يكبر في شيء من صلاته أجزئه عند ذلك ، وإنما عنى بذلك إذا تركها ساهيا أو ناسيا .

فإن قال : فلم جعل ركعة وسجدتين ؟ قيل : لأن الركوع من فعل القيام والسجود من فعل القعود ، وصلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ، فضوعف السجود ليستوي بالركوع فلا يكون بينهما تفاوت لأن الصلاة إنما هي ركوع وسجود .

فإن قال قائل : فلم جعل التشهد بعد الركعتين ؟ لأنه كما قدم قبل الركوع والسجود من الأذان والدعاء والقراءة فكذلك أخر بعدها التشهد والتحميد والدعاء .

فإن قال : فلم جعل التسليم تحليل الصلاة ولم يجعل بدلها تكبيرا أو تسبيحا أو ضربا آخر ؟ قيل : لأنه لما كان في الدخول في الصلاة تحريم الكلام للمخلوقين والتوجه إلى الخالق كان تحليلها كلام المخلوقين والانتقال عنها وإنما بدأ المخلوقين في الكلام أولا بالتسليم .

فإن قال : فلم جعل القراءة في الركعتين الأوليين والتسبيح في الآخريين ؟ قيل للفرق بين ما فرضه الله تعالى من عنده وما فرضه من عند رسوله .

فإن قال : فلم جعلت الجماعة ؟ قيل : لأن لا يكون الإخلاص والتوحيد والإسلام والعبادة لا ظاهرا مكشوفا مشهودا لأن في إظهاره حجة على أهل الشرق والغرب لله عز وجل وحده وليكون المنافق والمستخف مؤديا لما أقر به بظاهر الإسلام والمراقبة ، ولأن تكون شهادات الناس بالإسلام من بعضهم لبعض جائزة ممكنة مع ما فيه من المساعدة على البر والتقوى والزجر عن كثير من معاصي الله عز وجل .

فإن قال : فلم جعل الجهر في بعض الصلوات ولا يجهر في بعض ؟ قيل : لأن الصلوات التي يجهر فيها إنما هي صلوات تصلى في أوقات مظلمة فوجب أن يجهر فيها لأن يمر المار فيعلم أن ها هنا جماعة فإن أراد أن يصلي صلى لأنه إن لم ير جماعة تصلي سمع وعلم ذلك من جهة السماع ، والصلاتان اللتان لا يجهر فيهما فإنما هما صلاة تكون بالنهار وفي أوقات مضيئة فهي تعلم من جهة الرؤية فلا يحتاج فيها إلى السماع .

فإن قال : فلم جعلت الصلوات في هذه الأوقات ولم تقدم ولم تؤخر ؟ قيل : لأن الأوقات المشهورة المعلومة التي تعم أهل الأرض فيعرفها الجاهل والعالم أربعة ، غروب الشمس مشهور معروف فوجب عندها المغرب ، وسقوط الشفق مشهور فوجب عنده العشاء الآخرة ، وطلوع الفجر مشهور فوجب عنده الغداة ، وزوال الشمس وإيفاء الفيء مشهور معلوم فوجب عنده الظهر ، ولم يكن للعصر وقت معلوم مشهور مثل هذه الأوقات الأربعة فجعل وقتها الفراغ من الصلاة التي قبلها إلى أن يصير الظل من كل شيء أربعة أضعافه .

وعلة أخرى : أن الله عز وجل أحب أن يبدأ الناس في كل عمل أولا بطاعة وعبادة فأمرهم أول النهار أن يبدءوا بعبادته ثم ينتشروا فيما أحبوا من مؤنة دنياهم فأوجب صلاة الفجر عليهم ، فإذا كان نصف النهار وتركوا ما كانوا فيه من الشغل وهو وقت يضع الناس فيه ثيابهم ويستريحون ويشتغلون بطعامهم وقيلولتهم فأمرهم أن يبدءوا بذكره وعبادته فأوجب عليهم الظهر ، ثم يتفرغوا لما أحبوا من ذلك فإذا قضوا ظهرهم وأرادوا الانتشار في العمل لآخر النهار بدءوا أيضا بعبادته ثم صاروا إلى ما أحبوا من ذلك فأوجب عليهم العصر ، ثم ينتشرون فيما شاءوا من مؤنة

دنياهم فإذا جاء الليل وضعوا زينتهم وعادوا إلى أوطانهم بدءوا أولا لعبادة ربهم ثم يتفرغون لما أحبوا من ذلك فأوجب عليهم المغرب ، فإذا جاء وقت النوم وفرغوا مما كانوا به مشتغلين أحب أن يبدءوا أولا بعبادته وطاعته ثم يصيرون إلى ما شاءوا أن يصيروا إليه من ذلك فيكونوا قد بدءوا في كل عمل بطاعته وعبادته فأوجب عليهم العتمة ، فإذا فعلوا ذلك لم ينسوه ولم يغفلوا عنه ولم تقس قلوبهم ولم تقل رغبتهم .

فإن قال : فلم إذاً لم يكن للعصر وقت مشهور مثل تلك الأوقات أوجبها بين الظهر والمغرب ولم يوجبها بين العتمة والغداة ، أو بين الغداة والظهر ؟ قيل : لأنه ليس وقت على الناس أخف ولا أيسر ولا أحرى أن يعم فيه الضعيف والقوي بهذه الصلاة من هذا الوقت ، وذلك أن الناس عامتهم يشتغلون في أول النهار بالتجارات والمعاملات والذهاب في الحوائج وإقامة الأسواق ، فأراد أن لا يشغلهم عن طلب معاشهم ومصلحة دنياهم ، وليس يقدر الخلق كلهم على قيام الليل ولا يشتغلون به ولا ينتبهون لوقته لو كان واجبا ولا يمكنهم ذلك فخفف الله عنهم ولم يجعلها في أشد الأوقات عليهم ولكن جعلها في أخف الأوقات عليهم كما قال الله تعالى

﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (١) .

فإن قال : فلم يرفع اليدين في التكبير ؟ قيل : لأن رفع اليدين ضرب من الابتهال والتبتل والتضرع فأحب الله عز وجل أن يكون في وقت ذكره متبتلا متضرعا مبتهلا ولأن في وقت رفع اليدين إحضار النية وإقبال القلب على ما قال وقصد لأن الفرض من الذكر إنما هو الاستفتاح وكل سنة فإنها تؤدى على جهة الفرض فلما إن كان في الاستفتاح الذي هو الفرض رفع اليدين أحب أن يؤدوا السنة على جهة ما يؤدى الفرض .

فإن قال : فلم جعل صلاة السنة أربعة وثلاثين ركعا ؟ قيل : لأن الفريضة سبع عشرة ركعة فجعل السنة مثلي الفريضة كمالا للفريضة .

فإن قال : فلم جعل صلاة السنة في أوقات مختلفة ولم تجعل في وقت واحد ؟ قيل : لأن أفضل الأوقات ثلاثة عند زوال الشمس وبعد الغروب وبالأسحار فأوجب أن يصلى له في هذه الأوقات الثلاثة لأنه إذا فرقت السنة في أوقات شتى كان أداؤها أيسر وأخف

---

(١) البقرة ١٨٥

من أن تجمع كلها في وقت .

فإن قال : فلم صارت صلاة الجمعة إذا كانت مع الإمام ركعتين وإذا كانت بغير إمام ركعتين وركعتين ؟ قيل : لعلل شتى .

منها : أن الناس يتخطون إلى الجمعة من بعد ، فأحب الله عز وجل أن يخفف عنهم لموضع التعب الذي صاروا إليه .

ومنها : أن الإمام يحبسهم للخطبة وهم منتظرون للصلاة ، ومن انتظر الصلاة فهو في الصلاة في حكم التمام .

ومنها : أن الصلاة مع الإمام أتم وأكمل لعلمه وفقهه وفضله وعدله .

ومنها : أن الجمعة عيد وصلاة العيد ركعتين ولم تقصر لمكان الخطبتين .

فإن قال : فلم جعلت الخطبة : قيل : لأن الجمعة مشهد عام فأراد أن يكون للإمام سبب إلى موعظتهم وترغيبهم في الطاعة وترهيبهم من المعصية وفعلهم وتوقيفهم على ما أرادوا من مصلحة دينهم ودنياهم ويخبرهم بما ورد عليهم من الآفات ومن الأحوال التي لهم فيها المضرة والمنفعة ، ولا يكون الصائر في الصلاة منفصلا وليس بفاعل غيره ممن يؤم الناس في غير يوم الجمعة .

فإن قال : فلم جعلت خطبتان ؟ قيل : لأن تكون واحدة للثناء والتمجيد والتقديس لله عز وجل ، والأخرى للحوائج والإعذار والإنذار والدعاء ولما يريد أن يعلمهم من أمره ونهيه ما فيه الصلاح والفساد .

فإن قيل : فلم جعلت الخطبة في يوم الجمعة في أول الصلاة وجعلت في العيدين بعد الصلاة ؟ قيل : لأن الجمعة أمر دائم وتكون في الشهر مرارا وفي السنة كثيرا وإذا كثر ذلك على الناس ملوا وتركوا ولم يقيموا عليه وتفرقوا عنه فجعلت قبل الصلاة ليحتبسوا على الصلاة ولا يتفرقوا ولا يذهبوا ، وأما العيدين فهو في السنة مرتين وهو أعظم من الجمعة والزحام فيه أكثر والناس فيه أرغب فإن تفرق بعض الناس بقي عامتهم وليس هو بكثير فيملوا ويستخفوا به .

فإن قال : فلم وجبت الجمعة على من يكون على فرسخين لا أكثر من ذلك ؟ قيل : لأن ما يقصر فيه الصلاة بريدان ذاهبا أو بريد ذاهبا وجائيا ، والبريد أربعة فراسخ ، فوجبت الجمعة على من هو على نصف البريد الذي يجب فيه التقصير وذلك أنه يجيء فرسخين ويذهب فرسخين فذلك أربعة فراسخ وهو نصف طريق المسافر .

فإن قال : فلم زيد في صلاة السنة يوم الجمعة أربع ركعات ؟ قيل تعظيما لذلك اليوم وتفرقة بينه وبين سائر الأيام .

فإن قيل : فلم قصرت الصلاة في السفر؟ قيل : لأن الصلاة المفروضة أولا إنما هي عشر ركعات والسبع إنما زيدت فيما بعد ، فخفف الله عز وجل تلك الزيادة لموضع سفره وتعبه ونصبه واشتغاله بأمر نفسه وظعنه وإقامته ، لئلا يشتغل عما لا بد له من معيشته رحمة من الله وتعطفا عليه ، إلا صلاة المغرب فإنها لم تقصر لأنها صلاة مقصورة في الأصل .

فإن قال : فلم وجب التقصير في فراسخ لا أقل من ذلك ولا أكثر ؟ قيل : لأن ثمانية فراسخ مسيرة يوم للعامة والقوافل والأثقال ، فوجب التقصير في مسيرة يوم .

فإن قال : فلم وجب التقصير في مسيرة يوم ؟ قيل : لأنه لو لم يجب في مسيرة يوم لما وجب في مسيرة ألف سنة ، وذلك أن كل يوم يكون بعد هذا اليوم فإنما هو نظير هذا اليوم ، فلو لم يجب في هذا اليوم لما وجب في نظيره إذا كان نظيره مثله ولا فرق بينهما .

فإن قال : قد يختلف المسير ، وذلك أن سير البقر إنما هو أربعة فراسخ وسير الفرس عشرين فرسخا ، فلم جعلت أنت مسيرة يوم ثمانية فراسخ ؟ قيل : لأن ثمانية فراسخ هو سير الجمال والقوافل

وهو الغالب على المسير وهو أعظم السير الذي يسيره الجمالون والمكارون .

فإن قال : فلم ترك في السفر تطوع النهار ولم يترك تطوع الليل ؟ قيل : كل صلاة لا تقصر فيها فلا تقصر في تطوعها ، وذلك أن المغرب لا يقصر فيها فلا يقصر فيما بعدها من التطوع ، وكذلك الغداة لا يقصر فيها ولا فيما قبلها من التطوع .

فإن قال : فما بال العتمة مقصورة وليس تترك ركعتاها ؟ قيل : إن تلك الركعتين ليستا هي من الخمسين وإنما هي زيادة في الخمسين تطوعا ليتم بها بدل ركعة من الفريضة ركعتين من التطوع .

فإن قيل : فلم وجب على المسافر والمريض أن يصليا صلاة الليل في أول الليل ؟ قيل : لاشتغاله وضعفه ليحرز صلاته ، فيستريح المريض في وقت راحته ، ويشتغل المسافر باشتغاله وارتحاله وسفره .

فإن قيل : فلم أمروا بالصلاة على الميت ؟ قيل : ليشفعوا له ويدعوا له بالمغفرة لأنه لم يكن في وقت من الأوقات أحوج إلى الشفاعة فيه والطلبة والدعاء والاستغفار من تلك الساعة .

فإن قال : فلم جعلت خمس تكبيرات دون أن تصير أربعا أو ستا ؟ قيل : إنما الخمس أخذت من الخمس الصلوات في اليوم والليلة ، وذلك أنه ليس في الصلاة تكبيرة مفروضة إلا تكبيرة الافتتاح ، فجمعت التكبيرات المفروضات في اليوم والليلة فجعلت صلاة على الميت .

فإن قال : فلم لم يكن فيها ركوع ولا سجود ؟ قيل : لأنه لم يكن يريد بهذه الصلاة التذلل والخضوع ، إنما أريد بها الشفاعة لهذا العبد الذي قد تخلى عما خلف واحتاج إلى ما قدم .

فإن قيل : فلم أمر بغسل الميت ؟ قيل : لأنه إذا مات كان الغالب عليه النجاسة والآفة والأذى ، فأحب أن يكون طاهرا إذا باشر أهل الطهارة الملائكة الذين يلونه ويماسونه فيما بينهم نظيفا موجها به إلى الله عز وجل .

وقد روي عن بعض الأئمة عليهم السلام أنه قال : ليس من ميت يموت إلا خرجت منه الجنابة فلذلك وجب الغسل .

فإن قيل : فلم أمر أن يكفن الميت ؟ قيل : لأن يلقى ربه طاهر الجسد ، ولئلا تبدو عورته لمن يحمله أو يدفنه ، ولئلا يظهر الناس على بعض حاله وقبح منظره ، ولئلا يقسو القلب من كثرة النظر إلى مثل ذلك العاهة والفساد ، ولأن يكون أطيب لأنفس

الأحياء ، ولئلا يبغضه حميم فيلقي ذكـره ومودتـه ، ولا يحفظـه فيمـا خلف وأوصاه وأمره به وأحب .

فإن قيل : فلم أمر بدفنه ؟ قيل : لئلا يظهر الناس على فسـاد جسده وقبح منظره وتغير ريحـه ، ولا يتـأذى بـه الأحيـاء بريحـه وبمـا يدخل عليه من الآفة والدنس والفساد وليكون مستورا عن الأولياء والأعداء فلا يشمت عدو ولا يحزن صديق .

فإن قيل : فلم أمر من يغسله بالغسل ؟ قيل : لعلة الطهارة مما أصابه من نضح الميت لأن الميت إذا خرج منه الروح بقـي منـه أكـثر آفته ، ولئلا يلـهج النـاس بـه وبمماسته إذ قـد غلبـت علـة النجاسـة والآفة .

فإن قيل : فلم لا يجب على من مس شـيئا مـن الأمـوات مـن غير الإنسان كالطير والبهائم والسباع وغـير ذلـك ؟ قيـل لأن هـذه الأشياء كلها ملبسة ريشا وصوفا وشعرا ووبـرا ، وهـذا كلـه زكـي ولا يموت ، وإنما يماس منه الشيء الذي هو زكـي مـن الحـي والميـت الذي قد ألبسه وعلاه .

فإن قيل : فلم جوزتم الصلاة على الميت بغير وضوء ؟ قيـل : لأنه ليس فيها ركوع ولا سجود ، وإنما هي دعاء ومساءلة وقد يجوز

أن تدعو الله عز وجل وتسأله على أي حال كنت ، وإنما يجب الوضوء في الصلاة التي فيها ركوع وسجود .

فإن قيل : فلم جوزتم الصلاة عليه قبل المغرب وبعد الفجر ؟ قيل : لأن هذه الصلاة إنما تجب في وقت الحضور والعلة وليست هي مؤقتة كسائر الصلوات ، وإنما هي صلاة تجب في وقت حدوث الحدث ليس للإنسان فيه اختيار ، وإنما هو حق يؤدى وجائز أن تؤدى الحقوق في أي وقت كان ، إذا لم يكن الحق مؤقتا .

فإن قيل : فلم جعلت للكسوف صلاة ؟ قيل : لأنه آية من آيات الله لا يدرى لرحمة ظهرت أم لعذاب ؟ فأحب النبي صلى الله عليه وآله أن يفزع أمته لخالقها وراحمها عند ذلك ليصرف عنهم شرها ويقيهم مكروهها كما صرف عن قوم يونس حين تضرعوا إلى الله عز وجل .

فإن قيل : فلم جعلت عشر ركعات ؟ قيل : إن الصلاة التي نزل فرضها من السماء أولا في اليوم والليلة فإنما هي عشر ركعات ، فجمعت تلك الركعات ها هنا ، وإنما جعل فيها السجود لأنه لا يكون صلاة فيها ركوع إلا وفيها سجود ، ولأن يختموا صلاتهم أيضا بالسجود والخضوع والخشوع ، وإنما جعلت أربع سجدات لأن كل صلاة نقص سجودها من أربع سجدات لا تكون صلاة ،

لأن أقل الغرض من السجود في الصلاة لا يكون إلا على أربع سجدات .

فإن قيل : فلم لم يجعل بدل الركوع سجودا ؟ قيل : لأن الصلاة قائما أفضل منها قاعدا ولا القائم يرى الكسوف والانجلاء والساجد لا يرى .

فإن قيل : فلم غيرت عن أصل الصلاة التي قد افترضها الله عز وجل ؟ قيل : لأنها صلاة لعلة تغير أمر من الأمور وهو الكسوف فلما تغيرت العلة تغير المعلول .

فإن قيل : فلم جعل يوم الفطر عيد ؟ قيل : لأن يكون للمسلمين مجمعا يجتمعون فيه ويبرزون لله تعالى فيحمدونه على ما من عليهم فيكون يوم عيد ويوم اجتماع ويوم فطر ويوم زكاة ويوم رغبة ويوم تضرع ، ولأنه أول يوم من السنة يحل فيه الأكل والشرب لأن أول شهور السنة عند أهل الحق شهر رمضان فأحب الله تعالى أن يكون لهم في ذلك اليوم مجمع يحمدونه فيه ويقدسونه .

فإن قيل : فلم جعل التكبير فيها أكثر منه في غيرها من الصلاة ؟ قيل : لأن التكبير إنما هو تعظيم لله وتحميد على ما هدى وعافى كما قال الله عز وجل ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم

تشكرون ﴾ (١) .

فإن قيل : فلم جعل اثنتا عشرة تكبيرة فيها ؟ قيل : لأن يكون في الركعتين اثنتا عشرة تكبيرة ، فلذلك جعل فيها اثنتا عشرة تكبيرة .

فإن قيل : فلم جعل في الأولى سبع وخمس في الثانية ولم يسو بينهما ؟ قيل : لأن السنة في صلاة الفريضة أن يستفتح بسبع تكبيرات فلذلك بدأ ها هنا بسبع تكبيرات وجعل في الثانية خمس تكبيرات ، لأن التحريم من التكبير في اليوم والليلة خمس تكبيرات ، وليكون التكبير في الركعتين جميعا وترا وترا)) (٢) .

وقد ذكرناه بطوله لما فيه من الأسرار وإن كانت مغطاة بغطاء الظواهر والقشور فلو أردنا كشفها وبيان المراد منها لطال علينا الكلام وإن كان لا يخلو من المنافع الجليلة والمطالب العظيمة ، إلا أني من جهة عدم إقبال القلب وتوزع الخواطر وضعف الدماغ والبنية لا يمكنني إظهار ما في البال إلا ما ذكرته وفيه كفاية لأولي الدراية

---

(١) البقرة ١٨٥ (٢) علل الشرائع ٢٥٦ – ٢٧٠

أسرار الزكاة

وأما الزكاة وأسرارها بمختصر فاعلم أن الله سبحانه لما كلف محمدا صلى الله عليه وآله الصلاة في العالم الأول فأقاموها وقاموا بكمال الخضوع والخشوع والذلة بين يدي الجبار حتى سلم إليهم مفاتيح الجنة والنار ، وأعطاهم لواء الحمد وملكهم الدنيا والآخرة وفوض إليهم أمر كل شيء ، وأقامهم مقامه في الأداء والإعطاء حين قال في آخر الصلاة (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ، جعل العالم ملكهم ومالهم ، وجعل في أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم ، ولذا فرض عليهم الزكاة بعد الصلاة ، فأموالهم هي ما قسم الله لهم من فضله وخيره ، فمن أموالهم مشيتهم بمشيئته ، ومن أموالهم ما أمكنهم بقدرته ، ومن أموالهم ما أوجدهم بفضله ورحمته ، ومن أموالهم ما ألهمهم من معرفته ، ومن أموالهم ما علمهم من أسرار خليقته ، ومن أموالهم ما أشهدهم من بديع صنعته ، ومن أموالهم ما أقدرهم عليه من مقتضيات ، فمن أموالهم عالم الفؤاد وباب المراد ومقام الاتحاد ، وأعلاه عين التوحيد وأسفله بحر الصاد وهو المداد للإمداد والقوام للاستعداد ، وهو مقام المحبة في ظاهره المشتق منها الحب الظاهر بالحنطة عند النزول إلى مقام التفصيل والاختلاف

ومقام سكر المعرفة في باطن المشتق منها الزبيب والعنب المستخرج منها المسكر فهو حرام ونجس في الدنيا لمكان الخلط والمزج مع الهوى وأصول أهل الدنيا ، وهو الشراب الطهور في الآخرة إذا خلص من مزج الأغيار المستلزم للأكدار ، والجلوس على سرير الأنس مع المحبوب عند قطع النظر عن المحبة التي هي حجاب بين المحب والمحبوب كما قال الصادق عليه السلام ((إن المحبة حجاب بين المحب والمحبوب)) .

ففي هذا العالم الذي هو من أموالهم مقامان ، مقام المعرفة وهو منبت العنب ، ومقام المحبة وهو مقام مزرع الحب والحنطة ، ففي المقام الأول توحيد وتنزيه وتجريد ، وفي المقام الثاني اسم وصفة ورسم وشهود .

ومن أموالهم عالم الجبروت وحجاب اللاهوت وعالم التراب محل الخضوع والخشوع والتذلل لمالك الرقاب ورب الأرباب وفيه منبت الشعير ومزرعة أكل الزهاد والعباد وقوت خالص العباد ، وأصله بارد ويابس يستمد من فلك زحل ، وماء الشعير بارد ورطب يستمد منه فلك القمر في الجوزهر .

ومن أموالهم عالم الرقائق ومصدر تمايز الذوات والحقائق وهو عالم الأرواح ومقام ورق الآس ومنبت شجرة طوبى وسدرة

المنتهى ومأوى المؤمنين وهي النخل أول شجرة نزلت من الجنة وخلقت من فاضل طينة آدم الأول في الوجود المقيد ونخالته .

ومن أمواههم عالم النفوس والأشباح وعالم الكثرة ومقام الولاية الظاهرة في الأطوار الكونية وهي نعمة الله على الأبرار ونقمته على الفجار وصاحب الولاية أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين ، ومثاله في العالم السفلي الإبل الظاهر بالشكل المهيب والطور العجيب والوضع الغريب المشتمل على بديع الصنعة ومقام في الهيبة ، بحيث من يراه يهابه ولذا يؤتى بجهنم يوم القيامة على هيئة بعير هائج ، وهو الظاهر أيضا بالذل والخشوع بحيث يقعده أضعف الناس بل أضعف الخلق ، وينيخه ويحمل عليه ويستخدمه ، وهو أيضا الظاهر بالخدمة والمنافع الجليلة العظيمة بحيث ينتفع الخلق من لحمه ومن حلبه ومن نسله ومن وبره ومن ظهره ، حيث يحمل الأحمال الثقيلة إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وهو أيضا الظاهر بالصبر على الجوع والأذى والعطش وأكل الخشن والشوك بما لا يمكن لأحد من أفراد الحيوانات ، وهو قوله تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ (١) ، وهو في الباطن إشارة إلى

---

(١) الغاشية ١٧

أمير المؤمنين عليه السلام ، وفي التأويل إلى النفس الكلية ، ومآلهما إلى واحد .

ومن أموالهم عوامل الذات والصفات والأعمال والحارث لأرض القابليات الزارع فيها الزرع والنبات في الوجوديات والتكوينيات والتشريعيات ، الظاهر في المقامات السفلية والعوالم النزولية بالبقر .

ومن أموالهم أصول المنافع وأركانها في العوالم المذللة المنجرة لبني آدم في الباطن والظاهر يتقوم بأصولها وبواطنها ويتسربل ويتردى ويتأزر بقشورها وفروعها وهو قوله تعالى ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا لكم ومتاعا إلى حين﴾ (١) ، والغنم مظهر تلك الأصول ومصدر تلك الفروع .

ومن أموالهم أحكام النبوة الأصلية الأولية الظاهرة في مقام الإجمال والواقعة مقام الوحدة والبساطة ، السابحة في بحر الجلال والجمال ، ويدخل فيها البشرى والقول الحسن والتأييد والتسديد ، والذهب مظهر ذلك الأصل ، ووصفت تلك الحقيقة بالرسم .

ومن أموالهم أحكام الإمامة الأولية والثانوية الظاهرة في مقام

---

(١) النحل ٨٠

التفصيل المعطية لكل ذي حق حقه والسائقة إلى كل مخلوق رزقه ، ويدخلها علم الكشف وعلم الإحاطة وذكاء المؤمن والفراسة ، والكرسي ظهور تلك الرتبة ووصفها ، وهو الظاهر في القمر الظاهر في الفضة .

وهذه هي أصول الأموال الوجودية والتكوينية والتشريعية وكلماتها ، فإذا بلغت حد النصاب وهو الأربعون ، وهو إتمام ميقات وإتمام تخمير طينة آدم بيده سبحانه يخرج منه واحدا ، فإن فاضل الشيء وأثره واحد بالنسبة إلى الأصل والمؤثر ، فأنت إذا تتبعت وجدت القدر المخرج من الزكاة ربع العشر في الأغلب ، إلا في الفلزات فإن فيها العشر أو نصفه ، وإن اختلفت مقادير النصاب بحكم ومصالح يخفى أكثرها علينا ويطول الكلام بذكر بعض ما عرفنا منها لأدائه إلى ذكر مقدمات وبسط كلمات ولا يسعني الآن ذلك .

فالذهب حده عشرون دينارا يخرج منها نصف وهو ربع العشر ، والفضة حد نصابها مائتي درهم يخرج منها خمسة دراهم وهو ربع العشر ، الغنم أول نصابها أربعون يخرج منها شاة وهو ربع العشر ، والبقر كمال استقرار النصاب فيها أيضا الأربعون إلا أن أول

نصابها ثلاثون فيكون فيه ثلث العشر ، لأن البقر دليل مقام القابليات وهي تتم في ثلاثين وتكمل في أربعين ، والله سبحانه أعلم .

والإبل في كل خمسة شاة والظاهر أن كل خمسة منها يعادل أربعين شاة ، فيكون فيها أيضا ربع العشر .

وأما الغلات فلما كانت الحاجة إليها أكثر ونضجها أقل فهي أكثر فروع فيها العشر القبضات التي هي أصول الأربعين ، ولا يشق ذلك على المكلفين .

والحاصل أنهم عليهم السلام بعد ما ملكهم الله سبحانه هذه الأموال بعد إكمالهم الصلاة زكوا أموالهم ، فمن زكاة أموالهم صبغوا من الصورة في الإنشاء ، ومن زكاة أموالهم ما ترجموا القابليات من المقبولات ، ومن زكاة أموالهم ما أعدوا من التكوينيات ، ومن زكاة أموالهم ما كلفوا من التشريعات ، ومن زكاة أموالهم ما أوردوا وأصدروا . ومن زكاة أموالهم ما قبلوا ورفعوا وما ردوا وأبطلوا وما منعوا وأحدثوا وما أحيوا وما أماتوا وما رزقوا وما حرموا وما أصحوا وما أمرضوا بإذن الله سبحانه ، وكذلك جميع ما يتعلق بالنظام فإنهم يؤدون إلى كل محتاج إليه من أموالهم مما وجب عليهم فيها أو استحب أو أبيح .

والمستحقون كلياتهم ثمانية أصناف وهم العلماء والعاملون بطاعة الله والمنتصبون لمصالح المؤمنين وأصحاب البرازخ واللطخ الذين جعلوا إناء للمؤمنين ليأنسوا بلغتهم ويستقروا بصورتهم وخصيص شيعتهم المستشهدون في سبيلهم وفقهاء شيعتهم من أهل القضاء والفتوى والمجنون المتكلمون على حبهم وأهل الورع والزهد المستعدون للرحيل عن دار الغرور ، وما نقص عليهم من جهة الاستحقاق أنفقوا عليهم من جهة الفضل لأنهم عليهم السلام قد التزموا بتتميم ما نقص على رعيتهم .

قال بعض العلماء : أما الزكاة فهي أن يكون على السالك ومنه لأن فيه أصناف العوالم ، فأهل السمع العلماء وأهل البصر الحكماء وأهل الشم السالكون وأهل الذوق المكاشفون وأهل اللمس الخاصة في علم الغيب ، والحس المشترك أهل العلوم العلوية والسفلية ، والخيال أهل الاستعداد ، والذاكرة أهل النبوة ، والحافظة أهل الولاية ، والمفكرة أهل الاستغراق في الحقائق وبحار فنون الملك ، والمصورة أهل المطالب على اختلاف تقرباتها ، والعقل أهل الرئاسة والتدبير والسياسة للخلق ، فعلى السالك إخراج الزكاة من ريعه لأهل الاستحقاق عنده ويأخذ ما عندهم من المعاملة التي استحق بها الزكاة منهم عليه ، فزكاته من العين شغلها

بالاعتبار وعليها تحقق الاعتبار من غير هو ، ومن السمع إعداده للوعاء وعليها الإصغاء للحكم الربانية والمعارف الإلهية ، ومن الشم تصفيته من غير الملائمات وعليه أن يملأ جوفه بما حمل عليه من اللطائف الربانية ، ومن الذوق لفظ التأني وغلبة التحفظ والمراعاة لهما ، ومن اللمس الانبعاث من ألطف الحركات لأشرف المطلوبات وعليه سرعة الانفعال ، ومن الحس المشترك إعداد توارد الحواس وعليه صحة الملاقاة ، ومن الخيال تجريد صقله وحضوره وعليه قبول ما يرد عليه من الحس المشترك يقظة ونوما ، والحافظة اتساعها للقبول وحس الترصيف وعليها النصرة في سائر المسالك بسرعة الاستحضار ، ومن الذاكرة دوام الذكر ولطف التذكر وعليها أن لا يخل اللسان في البيان من المذكرة حسن الصورة واستنزال صور الجمال الإلهي في حلل البهاء الروحاني وعليها الاستغراق بالعلوم من تيار الفكر وإحضاره إلى ساحل الذكر ، ومن النفس أحكام النقل بما وجب من العقل وعليها القبول للأوامر الواردة من فوقها لتندرج إلى العقل ، ومن العقل رضاه وعليه الامتثال في الإقبال على الله والإدبار عما سواه .

وإذا تدبرت عرفت من هذا المقال أن حقوق المال قد اندرجت تحت هذا الحال ، في مصباح الشريعة قال مولانا الصادق

عليه السلام ((على كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله تعالى بل على كل منبت شعر من شعرك ، بل على كل لحظة من لحظاتك زكاة ، فزكاة العين النظرة بالعبرة والغض عن الشهوات وما يضاهيها ، وزكاة الأذن استماع العلم والحكمة والقرآن وفوائد الدين من الموعظة والنصيحة وما فيه نجاتك وبالإعراض عما هو ضده من الكذب والغيبة وأشباههما ، وزكاة اللسان النصح للمسلمين والتيقظ للغافلين وكثرة التسبيح والذكر وغيرها ، وزكاة اليد البذل والعطاء والسخاء بما أنعم الله عليك به وتحريكها بكتابة العلم ومنافع ينتفع بها المسلمون في طاعة الله والقبض عن الشر ، وزكاة الرجل السعي في حقوق الله تعالى من زيارة الصالحين ومجالس الذكر وإصلاح الناس وصلة الأرحام والجهاد وما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك ، هذا ما تحمل القلوب فهمه والنفوس استعماله وما لا يشرف عليه إلا عباده المخلصون المقربون أكثر من أن تحصى وهم أربابه وهو شعارهم دون غيرهم)) (١) صدق ولي الله وابن رسوله صلى الله عليه وآله وعلى جده وجدته وآبائه وأبنائه .

---

(١) مصباح الشريعة ٥٣ – ٥٤

وفي العلل عن محمد بن سنان عن أبي الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله ((إن علة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء ، لأن الله تعالى كلف أهل الصحة القيام بشأن أهل الزمانة من البلوى كما قال عز وجل ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ﴾ (١) في أموالكم إخراج الزكاة وفي أنفسكم توطين النفس على الصبر مع رما في ذلك من أداء شكر نعم الله عز وجل والطمع في الزيادة ، مع ما فيه من الزيادة والرأفة والرحمة لأهل الضعف والعطف على أهل المسكنة والحث لهم على المساواة وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدين وهي عظة لأهل الدين الغنى وعبرة لهم ليستدلوا على فقر الآخرة بهم وما لهم من الحث في ذلك على الشكر لله تبارك وتعالى لما خولهم وأعطاهم والدعاء والتضرع والخوف أن يصيروا مثلهم في أمور كثيرة في أداء الزكاة والصدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف)) (٢) .

وفيه أيضا عن قثم عن أبي عبدالله عليه السلام قال ((قلت له : جعلت فداك أخبرني عن الزكاة كيف صارت من كل ألف خمس وعشرين درهما لم تكن أقل منها أو أكثر ما وجهها ، قال عليه

---

(١) آل عمران ١٨٦ (٢) علل الشرائع ٣٦٩

السلام : إن الله تعالى خلق الخلق كلهم فعلم صغيرهم وكبيرهم وعلم غنيهم وفقيرهم فجعل من كل ألف إنسان خمسة وعشرين مسكينا فلو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم لأنه خالقهم وهو أعلم بهم)) (١) .

أسرار الخمس

وأما الخمس وأسراره بمختصر الكلام فاعلم أن الخمس سهم جعله الله سبحانه لنفسه ولخاصته في الأموال التي بيد الناس وليس ذلك السهم من أموال الناس وذلك أحسن وأصفى ما في المال حتى أن الله سبحانه خص نفسه المقدسة به تشريفا وتعظيما له وحتى لا يتوهم أنه مثل الزكاة فإنها أوساخ ما في أيدي الناس ، وحاشا لربنا الكريم أن يجعل لخاصة أوليائه تلك الأوساخ ولذا حرم عليهم الزكاة ، فالزكاة شيء يملكه الناس والخمس لا يملكونه ولذا قيل له الخمس ، وما قيل للزكاة العشر أو ربع العشر أو نصف العشر أو ثلثا العشر فالخمس ذات هيئة أصلية والزكاة صفة لطخية عرضية ويجب على العبد التزكي والتطهير عنها ولذا ربما يراد من الزكاة في الباطن البراءة من الأعداء كما يراد من الصلاة ولاية

---

(١) علل الشرائع ٣٦٩

الأحباء فهما جناحان يطير بهما المؤمن إلى فضاء القدس ومحال الأنس ، وأما الخمس فهو صفوة الشيء وخالصته لأن الله سبحانه خص به نفسه ولا يكون ذلك إلا الأشرف والأصفى والأحسن من كل شيء لأن ماله سبحانه أطيب من كل ما لغيره .

والأمر في ذلك على جهة الإجمال أن محمدا صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام لما صلوا الصلاة التي كلفهم بها الله سبحانه وتعالى إياها في العالم الأول التي هي نتيجة إقبالهم وإدبارهم الذي هو عين إقبالهم الذي هو عين إدبارهم خلق الله سبحانه الخلق بهم بإتمام صلاتهم في الأوقات الخمسة فكمل بها العالم وهي وإن كانت كثيرة لا تحصى ولا تتناهى إلا أن كلياتها التي تترتب عليها الأحكام والآثار وتظهر فيها المشاعر والمدارك خمسة ، عالم الفؤاد وباب المراد وعالم العقل وعالم النفس وعالم المثال وعالم الجسم ، وفي هذه العوالم الخمسة تظهر المشاعر والمدارك المتمايزة الخاصة بمدركاتها وآثارها ، وكل ما سواها مما تظهر المشاعر فيها ترجع إليها ، وأما عالم الطبيعة وعالم المادة فهنا عالم الموت والكسر لا تتميز فيها المشاعر والمدارك والآثار ، وأما عالم الأرواح فله حكم البرزخية المحضة بحيث لا تكاد تتميز مداركه وآثاره فهو ملحق بالعقل في الوجه الأعلى والنفس في الوجه الأسفل ، وأما عالم المثال وإن كان

لـه حكـم البرزخيـة إلا أن آثـاره ظـاهرة وأحكامـه متمـايزة لغلظتـه وترتب الحكم عليه .

وبالجملة فـأصول العـوالم الكونيـة الوجوديـة المتأصلـة هـذه الخمسة لا غير ، والأربعة مـن هـذه العـوالم تختـص بـالخلق في معرفـة أحوال الخليقة وأوضاعها وحدودها وقراناتها وأحكامـها وأطوارهـا وعلوياتها وسفلياتها ومجرداتها ومادياتها وبسائطها ومركباتـها ومـا أشبهها من سائر أحوالها وأوضاعها ، وأما عالم الفؤاد فقـد جعلـه الله في العبيد ليتوجهوا إليه سبحانه ويصفوه بما وصف نفسه لهم فيه فـهو عـين الله سـبحانه في خلقـه أعـارهم إياهـا لـيروه بـها كمـا قـال الشاعر :

أعارتـه طرفـا رآهـا بـه   فكان البصير بها طرفـها

قال عليه السلام ((اعرفوا الله بالله)) (١) فهناك ومـا هنـاك يختص بالله سبحانه وبما ينسب إليه تعالى من أسمائـه وصفاتـه وأفعالـه والوسائط التي بينه وبين عبيده ، وبالجملـة ذلـك العـالم لله ولخاصتـه ليس لأحد فيه نصيب ، ذلك لأن عـالم الفـؤاد لـه وجـهان أحدهمـا

---

(١) التوحيد ٢٨٥

الأعلى وفيه ثلاث مراتب مرتبة التوحيد ومقام التجريد ومظهر الأحدية ومقام لا اسم ولا رسم ولا عبارة ولا إشارة ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ((كشف سبحات الجلال من غير إشارة)) ، وقال الصادق عليه السلام في العبد ((العين علمه بالله ، والباء بونه عمن سواه ، والدال دنوه من الله بلا كيف ولا حجاب)) (١) ، وهذا السدس من الخمس لله تعالى خاص به لا يذكر معه غيره .

الثانية مرتبة الاسم الأعظم الجامع الكلي المحيط المهيمن على كل الأسماء والصفات والإضافات وهو مقام الهوية والاسم الأعظم الأجل الأعلى هو وهذا هو السدس الثاني من الخمس لرسول الله صلى الله عليه وآله لأنه مفتاح ذلك الاسم ومفتاح ذلك الطلسم وهو قوله عليه السلام في الخطبة ((أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه إذ كان لا تدركه الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار)) (٢) وذلك مقام النبوة المطلقة لا من حيث هي هي أو من حيث هي هي لكن لا ما تعرفه العوام بل الخواص .

الثالثة مرتبة الأسماء والصفات والإضافات والقرانات أي مقام الربوبية إذ مربوب ، وهذا السدس الثالث من الخمس لذوي

---

(١) مصباح الشريعة ٧ (٢) الإقبال ٤٦١

القربى وهم علـي وأولاده وزوجتـه الصديقـة عليـهم آلاف التحيـة والثناء والسلام قال مولانـا الصـادق ((نحـن الأسمـاء الحسـنى الـتي أمركـم الله أن تدعـوه بـها)) ، وهـذه الثلاثـة للوجـه الأعلـى مـن الفؤاد .

وأما الثاني الذي هو الوجه الأسفل ففيه ثلاث مراتب أيضا ، الأولى ظهور الفعل أي هيئة ظهوره وهي التي في المفعول للاسـتدلال علـى الفعـل وبـها تقـع تـأكيدا للفعـل في قولـك ضربـت ضربـا أي ضربت ضربت وهذا السدس الرابع من الخمس لليتامى فـإن الفعـل هو اليتيم الذي لا كفو له ولا نظير ولا أب ولا أم له غير نفسـه قـال الصـادق عليـه السـلام ((خلـق الله المشـيئة بنفسـها)) (١) فـهذا السدس لها أي لمعرفة ظهورها في الوصف الخطابي الشفاهي .

والثانية ظهور الأثر أي المفعول المطلق الـذي هـو المصـدر في نفسه من غير ملاحظة شيء سوى نفسه مما تقدم عليـه أو تـأخر عنـه وهذا السدس الخامس للمسـكين الفقـير مـن السـادة المتولديـن مـن الأسماء المتولدة من الاسم الأعظم الكلي وهو فقير بل محض الفقر إلى مبدئه إذ لا يجد لنفسه تحقق ولا تذوت في آن من الآنات وحـال مـن

---

(١) التوحيد ١٤٧

الحالات ولا وجود إلا بذلك السهم من الخمس .

والثالثة ظهور صلاح الأثر المتعلق بالمتعلقات لأن يظهر المفعول المطلق في المفعول به قبل تحقق المفعول به وهو قبل أن يكون بعد وقوع كن وهو الواو المستتر في كن الظاهر في يكون وهو السدس الآخر وهو سهم ابن السبيل من تلك الذرية أي المتولدة من الأسماء ، وهو قبل صلوح التعلق كان نورا ذائبا في عين الاستضائة ولما سافر للإقبال والإدبار إلى مقام التعلق انجمد بالإضافة فافتقر ، فإذا بلغ إلى مسكنه موطنه يزول هذا الانجماد ويأتي الذوبان ، وهذه هي الأسهم الستة التي هي للخمس في قوله ﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ (١) هي لله تعالى وخاصته ، والظاهر أنه في الصلاة هي صلاة الظهر وهي الصلاة الوسطى على أكثر الروايات لأن وقتها وسط الوجود وقطبه فمن فلك هذه المراتب فيجب عليه أداء الخمس أي يجعل ذلك المشعر لله تعالى ولأوليائه أي ينظر مرة إلى التوحيد المحض والأخرى إلى الاسم الأعظم الكلي والأخرى إلى الأسماء والصفات والرابعة إلى صدور الفعل من الحق سبحانه وإلى

---

(١) الأنفال ٤١

مشيئته وإرادته وأن الأشياء لا تقوم إلا بها والخامسة أي محل المشيئة ومتعلق الفعل ، والسادسة إلى تعلق ذلك المحل يكون حالا ، فمن عمل بما قلنا فقد أدى خمس المال وإلا فقد خرج عن حد الإيمان ، لأنه سبحانه شرط الإيمان في الآية الشريفة بإخراج الخمس على الحدود المعينة ، فإن كنت تفهم فافهم وإلا فاسلم تسلم .

أسرار الصيام

وأما الصيام وأسراره فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال ((أصل الإسلام الصلاة وفرعه الزكاة وذروته الصيام وسنامه الجهاد)) .

وعنه صلى الله عليه وآله ((زكاة الأبدان الصيام)) (١) ، وقال صلى الله عليه وآله ((الصيام يسود وجه الشيطان)) .

وجاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم : لأي شيء افترض الله صوما على أمتك ثلاثين يوما وافترض على سائر الأمم أكثر من ذلك ، فقال صلى الله عليه وآله ((إن آدم لما أن أكل من الشجرة بقي في جوفه مقدار ثلاثين يوما فافترض على ذريته ثلاثين يوما الجوع والعطش ، وما يأكلونه بالليل فهو تفضل من الله على خلقه وكذلك كان لآدم عليه السلام ثلاثين يوما كما على أمتي ثم تلا هذه الآية ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (٢))) (٣) .

وفيما كتب مولانا الرضا عليه السلام لمحمد بن سنان ((علة

---

(١) مكارم الأخلاق ١٣٨ (٢) البقرة ١٨٣ (٣) الاختصاص ٣٨

الصوم لعرفان مس الجوع والعطش ليكون العبد ذليلا مستكينا مأجورا محتسبا صابرا فيكون ذلك دليل على شدائد الآخرة ، مع ما فيه من الانكسار له عن الشهوات واعظا لـه في العاجل دليلا على الآجل ليعلم شدة مبلغ ذلك من أهل الفقر والمسكنة في الدنيا والآخرة)) (١).

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام ((قال النبي صلى الله عليه وآله : الصوم جنة من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة ، فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات ، وقطع الهمة عن خطوات الشيطان والشياطين ، وأنزل نفسك منزلة المرضى لا تشتهي طعاما ولا شرابا وتوقع في كل لحظة شفاك من مرض الذنوب ، وطهر باطنك من كل كذب وكدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله تعالى)) (٢) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله ((قال الله تعالى : الصوم لي وأنا أجزي به)) (٣) .

فالصوم يميت موارد النفس وشهوة الطبع وفيه صفاء القلب وطهارة الجوارح وعمارة الظاهر والباطن والشكر على النعم

---

(١) علل الشرائع ٣٧٨ (٢) ، (٣) مصباح الشريعة ١٣٥

والإحسان إلى الفقراء وزيادة التضرع والخشوع والبكاء وجعل الالتجاء إلى الله وسبب انكسار الهمة وتخفيف الحساب وتضعيف الحسنات وفيه من الفوائد ما لا يحصى وكفى بما ذكرنا لمن عقل ووفق .

قال شيخنا أطال الله بقاه وجعلني من كل مكروه فداه أن الله كتب على المكلفين الصيام ليجوعوا فتخف أجسادهم وليعطشوا فتنشف أجسادهم ، فإذا نشفت وخفت ذهب عنها الكسل المانع من العبادة وكثرة النوم التي تدع الرجل فقيرا يوم القيامة لقلة حسناته ، لأنه يمنعه عن التهجد في الليل ويقلل الرزق ، فيكثر همه بتحصيل المعاش ، فإذا صام وجاع قويت روحه لأن الجوع أدام الروح ، وذهبت الأمراض من بدنه لأن أكثر الأمراض من الشبع فلذا كانت المعدة بيت الداء وقلة الفهم وعلة كثير من الأمراض ، فإذا صام وجاع وعطش زاد فهمه وحفظه وذهبت الرياح وسائر الأمراض من جسده ، وذهب عنه الكسل في العبادة وخف جسده لفعل الطاعات وانكسرت نفسه عن الشهوات والخصال الذميمة كالحسد والغضب والشهوة والتكبر والبغي والعدوان وطول الأمل ونسيان الموت والآخرة ، بل يكون دائما ذاكرا للموت والحساب والجنة والنار والدار الآخرة متجافيا عن دار الغرور وما فيها مما ليس

لله والدار الآخرة ، وكل ذلك وأمثاله نتيجة العطش والجوع ومن أجل ما أشرنا إليه لوحوا عليهم السلام لمن يفهم الإشارة من طي الكلام فقالوا عليهم السلام ما معناه أن الشياطين تقيد وتغل في شهر رمضان ، وليس ذلك إلا عن المؤمنين الذين يجوعون ويعطشون تقربا إلى الله سبحانه بصيامهم ، وأما غير هؤلاء فلا تقيد عنهم ﴿ إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾ (١) أي تزعجهم إزعاجا ، انتهى كلامه أطال الله بقاءه وأعلى مقامه ورفع أعلامه .

ويؤيد ما ذكره سلمه الله ما ورد عن أحدهم عليهم السلام ((إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش)) (٢) ، وقول النبي صلى الله عليه وآله ((للصائم فرحتان ، حين يفطر وحين يلقى ربه عز وجل ، والذي نفس محمد صلى الله عليه وآله بيده لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك)) (٣) وذلك لعدم وجود الشيطان الموجب للنتن والكدورة .

اعلم أن الصلاة لما كانت هي الخضوع والخشوع والتذلل والإقبال إلى الله سبحانه بالذات والكينونة ، ترتب عليها إمساك

---

(١) مريم ٨٣ (٢) أعلام الدين ١٢١ (٣) مكارم الأخلاق ١٣٨

النفس عن كل ما يرجع إلى النفس من الدواعـي والشـهوات وإلا لم يتحقق الإقبال التام ، فهذا الإمساك هو أعظم فـروع الصـلاة ، ولما كان هذا التنزه والاجتناب والإعراض عـن المفطـرات مما تتلـذذ بـه النفس في مقام المبدأ أي مقام المفعول المطلق والمصدر إذ ذلك لم يشبه شيئا من القيودات والحدودات التي في المفعول بـه وإن كـان صالحـا لذلك ، ولما كانت شمس الإفاضة إنما قطعت دائرة عالم الوجـود بعـد سيرها في اثني عشر مرتبة ، وهي الفؤاد والعقل والنفس الظـاهرة في عشرة حواس ظاهرية وباطنية ، وكان العالم الأسفل دليلا على العـالم الأعلى قسمت الأفلاك على اثني عشر قسمة كل قسمة تحكي مرتبة من المراتب ، وصـار مقـدار قطـع الشـمس في كـل مرتبـة مـن هـذه المراتب المصطلح عليها بالبروج شهرا تاما فتمت السنة في اثني عشر شهرا دليلا على إتمام السنة الكاملة الأولية الإلهية على تلك الشهور التي هي الحقائق كما قال عز وجل﴿ إن عـدة الشـهور عنـد الله اثنـا عشـر شـهرا في كتـاب الله يـوم خلـق السـموات والأرض ﴾ (١) في الباطن والتأويل ، أو هي الأفلاك التسعة والمواليد الثلاثة ، فالشـهور الزمانيـة حكايـات لتلـك الـذوات الإلهيـة فتكـون أصـل الشـهور

---

(١) التوبة ٣٦

ثلاثة وهي بإزاء الفؤاد والعقل والنفس وباقي المراتب ظهورات هذه الثلاثة الظاهرة في النفس وشئوناتها وأطوارها ، والأشهر التسعة بمنزلة المقدمات وهذه الثلاثة بمنزلة النتائج ، وتلك بمنزلة الأفلاك التي هي أسباب ومقدمات لتكوين المواليد ونشوئها ، فتكون تلك الثلاثة أشرف الأشهر وأفضلها وأحسنها وليس في الشهور أشرف ولا أفضل من الأشهر الثلاثة التي هي شهر رمضان وشعبان وشهر رجب المعظم المرجب ، فيكون شهر رمضان شهر المبدأ ودليل الفؤاد لكونه أشرف الثلاثة وأحسنها وأفضلها وأعلاها فوجب الصوم والإمساك فيه لأنه مقام المبدأ الغير المقترن بالحدود والتعينات المقتضية للشهوات والإرادات واللذات ، ولذا ورد أن رمضان اسم الله فلا تقولوا رمضان بل قولوا شهر رمضان ، فإذا كان هو شهر الله كان في التوجه إلى الله كف وإمساك عن السوى وإلا لم يحصل التوجه إلى الله ، وفي هذا الشهر تظهر عظمة الله سبحانه وسلطانه وقدرته فكان وقوف الخلائق في البدء في عالم الذر إنما هو في هذا الشهر وعودهم إليه تعالى يوم القيامة إنما يكون في هذا الشهر ففيه قوله تعالى ﴿ الملك يومئذ لله ﴾ (١) مع أن في كل الأزمان

---

(١) الحج ٥٦

يكون الملك له سبحانه ، ولكن الأزمنة الباقية لما كانت مقام القشور والأعراض وظهور الكدورات ما ظهرت عظمة الله سبحانه وقهاريته واستهلاك الأشياء واضمحلالها لعامة الناس وإنما يظهر ذلك يوم القيامة ، ومعنى نسبة شهر رمضان إلى الله تعالى ظهور سلطانه في ذلك الشهر والظهور التام إنما يكون في ذلك اليوم في الدار الآخرة فيكون ذلك شهر رمضان قطعا ، ولذا اشتق من الرمضاء لاشتداد الحرارة في ذلك اليوم وضم بعضهم ببعض وعرقهم كما هو المعروف ، وفي ذلك اليوم يمسك الإمساك التام عن المفطرات والشهوات الراجعة إلى النفس والبدن ، وهذا الشهر في الدنيا مثال ذلك وحكاية إن لم نقل عينه ، فيجب تذكر الآخرة والعمل لله تعالى والتوجه إلى جناب قدسه .

ولما كان عالم الذر ويوم القيامة في يوم واحد وفي ذلك اليوم قدرت الآجال والأرزاق والفقر والغنى والعز والذل والموت والحياة وأمثال ذلك ، وهو في الثلث الأخير من ذلك اليوم لأنهم وجدوا وصلحوا فكلفوا فقدرت لهم المقادير على حسب قبولهم وإذعانهم وإنكارهم وإعراضهم ، وفي يوم القيامة أيضا تقدر لهم منازلهم ويعطى كل ذي حق حقه أيضا في الثلث الأخير لأنهم يحشرون فيعرضون على ولي الله للحساب فيحاسبون فيدخلون منازلهم في

الجنة بمراتبها والنار بمراتبها أعاذنا الله من النار بفضله وأدخلنا جنته برحمته ، فمن هذه الجهة كانت ليلة القدر في الثلث الأخير من شهر رمضان ، وإنما كانت في الليل لأنها مقام الكثرة ونفي الوحدة وهي ليلة حقيقية ، وأما يوم القيامة ويوم عالم الذر فإنما هو لعظم إشراق نور الجبار ذو العظمة والقدس بحيث محق الظلمات .

وأما شهر شعبان فهو شهر محمد صلى الله عليه وآله كما دلت عليه الروايات ، أي تظهر فيه آثار ظهوراته وعلامات إشراقات نوره ، وذلك الظهور والامتنان والعظمة والاستيلاء والهيمنة إنما هو في الرجعة ، أي رجعة محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيبين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ، فإنك في ذلك الوقت تعرف سلطان محمد صلى الله عليه وآله وإجراء حكمه واستيلاءه ونفاذ أمره في كل ذرة من الذرات الوجودية في جميع العوالم التكوينية والتشريعية والذاتية والعرضية والحقيقية والمجازية ، وذلك المقام مقام ظهور العقل الكلي وهو وإن كان مقام صوم لتنزه ذلك العالم أيضا عن الحدود والصور الشخصية المقتضية للشهوات والدواعي إلا أن فيه صلوح التعلق القريب بالمتعلق ولذا استحب صومه مؤكدا كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ((ما فاتني صوم

شعبان منذ سمعت منادي رسول الله صلى الله عليه وآله)) (١) .

وأما شهر رجب فهو شهر القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله ، وقد فسر شهر رجب بهم عليهم السلام ، ووجه الاختصاص به مع اشتراك كلهم سلام الله عليهم في ذلك لقيامه بالأمر وإظهاره للحق ظاهرا مكشوفا ، فيكون القيام واستيلاء أمره عليه السلام ، أي ظهور النفس الكلية الظاهرة بالأمر والتدبير والتصرف إنما هو في شهر رجب .

فتكون الشهور كلها تنتهي إلى هذه الشهور في قوله تعالى ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ (٢) أي يوم قيام القائم عليه السلام ويوم الرجعة ويوم القيامة ، فأي يوم القمري فإنه شهر من يوم العرش ويوم الشمس سنة ويوم زحل ثلاثون سنة ويوم الكرسي أربعة وعشرون ألف سنة ويوم العرش أربعة وعشرون ساعة فافهم .

فالأشهر تنتهي إلى هذه الشهور وشهر رجب الذي هو مظهر قيام القائم عليه السلام ينتهي إلى شعبان أي الرجعة وهو ينتهي إلى شهر رمضان فهو نهاية النهاية وغاية الغاية وهو عندهم شرب أهل الجنة قبل دخولهم فيها من شراب الكافور إلى العيد ، وأول دخولهم

---

(١) مصباح المتهجد ٨٢٥ (٢) إبراهيم ٥

الجنة ومكثهم في مقام الكثيب الأحمر ومقام الرفرف الأخضر ومقام أرض الزعفران ومقام الأعراف إلى وصولهم مقام الرضوان تنقضي اثنا عشر ساعة لتوقفهم في كل مكان ثلاث ساعات إلى مرتبة الرضوان ، فعند وصولهم إليه أول يوم العيد ، وذلك يوم لا ليلة له ونور لا ظلمة فيه وإيقاظ لا حلم فيه ، وإنما هو نور موجود وظل ممدود .

فانتهت الشهور إلى شهر رمضان وهو إلى ليلة العيد وهي إلى يوم العيد ، وذلك اليوم هو المدار وهو النقطة للدوائر الوجودية كلها والمقامات بأسرارها وهو غاية الغايات ونهاية النهايات ، فافهم ولا تكثر المقال فإن العلم نقطة كثرها الجهال .

وأما صوم ثلاثين يوما فلأن المبدأ مظهره الثلاثون ألا ترى أن الألف ما يمسكها إلا اللام كما في حرف التعريف وحرف النفي ، والثلاثون هي مقام القابليات وظهور المبدأ فيها عبارة عن الإعراض والإمساك عن مقتضاها وشهواتها وذلك الإعراض التام والإمساك العام هو عبارة عن الصيام ، ولذا ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوما ، لأن كدورة الإعراض بترك الأولى في كل أطوار القابليات ، فوجب الإمساك ومقابلة أرض القابليات بإشراق شمس العناية الأزلية الإلهية

لتحرق حرارة المبدأ تلك الكثافات وتطهرها عن كل الرذائل والدناءات ، ولأجل ذلك استحب الغسل في أول يوم من شهر رمضان في الماء الجاري وأن يصب على رأسه ثلاثين كفا من الماء لئلا تؤثر فيه حرارة الصوم وحرارة ظهور المبدأ ، ويستحب الوقاع في أول ليلة منه لإخراج الحرارة وتسكينها لئلا تهيج الصفراء وتحرق السوداء وتتولد منها الأمراض المهلكة فافهم .

ولنذكر في هذا المقام تتمة الحديث المروي عن الرضا عليه السلام الذي رواه الفضل بن شاذان وقد ذكرنا ما يتعلق بالصلاة في مبحثها ونذكر هنا ما يتعلق بالصيام ، قال بن شاذان عنه عليه السلام ((فإن قيل : فلم أمروا بالصوم ؟ قيل : لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش ويستدلوا على فقر الآخرة ، وليكون الصائم خاشعا ذليلا مستكينا مأجورا محتسبا عارفا صابرا على ما أصابه من الجوع والعطش فيستوجب الثواب ، مع ما فيه من الإمساك عن الشهوات ، وليكون ذلك واعظا لهم في العاجل ورايضا لهم على أداء ما كلفهم ودليلا لهم في الأجر ، وليعرفوا شدة مبلغ ذلك على أهل الفقر والمسكنة في الدنيا فيؤدوا إليهم ما فرض الله لهم في أموالهم .

فإن قيل : فلم جعل الصوم في شهر رمضان خاصة دون سائر الشهور ؟ قيل : لأن شهر رمضان هو الشهر الذي أنزل الله فيه

القرآن ، وفيه فرق الله بين أهل الحق والباطل كما قال الله تعالى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ (١) وفيه نبئ محمد صلى الله عليه وآله ، وفيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، وفيها يفرق كل أمر حكيم وهو رأس السنة ، ويقدر فيها ما يكون في السنة من خير أو شر أو مضرة أو منفعة أو رزق أو أجل ولذلك سميت ليلة القدر .

فإن قيل : فلم أمروا بصوم شهر رمضان لا أقل من ذلك ولا أكثر ؟ قيل : لأنه قوة العباد الذي يعم فيه القوي والضعيف ، وإنما أوجب الله الفرائض على أغلب الأشياء وأعم القوي ثم رخص لأهل الضعف ، وإنما أوجب الله ورغب أهل القوة في الفضل ولو كانوا يصلحون على أقل من ذلك لنقصهم ولو احتاجوا إلى أكثر من ذلك لزادهم .

فإن قيل : فلم إذا حاضت المرأة لا تصوم ولا تصلي ؟ قيل : لأنها في حد نجاسة فأحب أن لا تتعبد إلا طاهرة ، ولأنه لا صوم لمن لا صلاة له .

فإن قيل : فلم صارت تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة ؟

---

(١) البقرة ١٨٥

قيل : لعلل شتى فمنها : أن الصيام لا يمنعها من خدمة نفسها وخدمة زوجها وإصلاح بيتها والقيام بأمورها والاشتغال بمرمة معيشتها والصلاة تمنعها من ذلك كله ، لأن الصلاة تكون في اليوم والليلة مرارا فلا تقوى على ذلك والصوم ليس كذلك .

ومنها : أن الصلاة فيها عناء وتعب واشتغال الأركان وليس في الصوم شيء من ذلك إنما هو ترك الطعام والشراب وليس فيه اشتغال الأركان .

ومنها : أنه ليس من وقت يجيء إلا ويجب عليها فيه صلاة جديدة في يومها وليلتها وليس الصوم كذلك ، لأنه ليس كلما حدث عليها يوم وجب عليها الصوم وكلما حدث وقت الصلاة وجبت عليها الصلاة .

فإن قيل : فلم إذا مرض الرجل أو سافر في شهر رمضان فلم يخرج من سفره أو لم يفق من مرضه حتى يدخل عليها شهر رمضان آخر وجب عليه الفداء للأول وسقط القضاء ، وإذا أفاق بينهما أو أقام ولم يقضه وجب عليه القضاء والفداء ؟ قيل : لأن ذلك الصوم إنما وجب عليه في تلك السنة في هذا الشهر ، فأما الذي لم يفق فإنه لما مر عليه السنة كلها وقد غلب الله عليه فلم يجعل له السبيل إلى أدائها سقط عنه ، وكذلك كلما غلب الله عليه مثل المغمى عليه

الذي يغمى عليه في يوم وليلة فلا يجب عليه قضاء الصلوات كما قال الصادق عليه السلام : كلما غلب الله على العبد فهو أعذر له لأنه دخل الشهر وهو مريض فلم يجب عليه الصوم في شهره ولا سنته للمرض الذي كان فيه ، ووجب عليه الفداء لأنه بمنزلة من وجب عليه الصوم فلم يستطع أداؤه فوجب عليه الفداء ، كما قال الله عز وجل ﴿ فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ﴾ (١) وكما قال ﴿ ففدية من صيام أو صدقة ﴾ (٢) فأقام الصدقة مقام الصيام إذا عسر عليه .

فإن قيل : فإن لم يستطع إذ ذاك فهو الآن يستطيع ؟ قيل : لأنه لما دخل عليه شهر رمضان آخر وجب عليه الفداء للماضي ، لأنه كان بمنزلة من وجب عليه صوم في كفارة فلم يستطعه فوجب عليه الفداء ، وإذا وجب عليه الفداء سقط الصوم والصوم ساقط والفداء لازم ، فإن أفاق فيما بينهما ولم يصمه وجب عليه الفداء لتضييعه والصوم لاستطاعته .

فإن قيل : فلم جعل صوم السنة؟ قيل : ليكمل به صوم الفرض .

(١) المجادلة ٤ (٢) البقرة ١٩٦

فإن قيل : فلم جعل في كل شهر ثلاثة أيام في كل عشرة يوما ؟ قيل : لأن الله تعالى يقول ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ (١) فإن صام في كل عشرة يوما واحدا فكأنما صام الدهر كله كما قال سلمان الفارسي رحمة الله عليه : صوم ثلاثة أيام في الشهر صوم الدهر كله فمن وجد شيئا غير الدهر فليصمه .

فإن قيل : فلم جعل أول خميس في العشر الأول وآخر خميس في العشر الأخر وأربعاء في العشر الأوسط ؟ قيل : أما الخميس فإنه قال الصادق عليه السلام : يعرض كل خميس أعمال العباد على الله عز وجل فأحب أن يعرض عمل العبد على الله وهو صائم .

فإن قيل : فلم جعل آخر خميس : قيل : لأنه إذا عرض عمل العبد ثلاثة أيام والعبد صائم كان أشرف وأفضل من أن يعرض عمل يومين وهو صائم ، وإنما جعل الأربعاء في العشر الأوسط لأن الصادق عليه السلام أخبر بأن الله تعالى خلق النار في ذلك اليوم وفيه أهلك أهل القرون الأولى وهو يوم نحس مستمر فأحب أن يدفع العبد عن نفسه نحس ذلك اليوم بصومه .

فإن قيل : فلم وجب في الكفارة على من لم يجد تحرير رقبة

---

(١) الأنعام ١٦٠

الصيام دون الحج والصلاة وغيرهما من الأنواع ؟ قيل : لأن الصلاة والحج وسائر الفرائض مانعة للإنسان من التقلب في أمر دنياه ومصلحة معيشته مع تلك العلل التي ذكرناها في الحائض التي تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة .

فإن قيل : فلم وجب عليه الصوم في شهرين متتابعين دون أن يجب عليه شهر واحد أو ثلاثة أشهر ؟ قيل : لأن الفرض الذي فرضه الله تعالى على الخلق هو شهر واحد فضوعف هذا الشهر في الكفارة توكيدا وتغليظا عليه .

فإن قيل : فلم جعلت متتابعين ؟ قيل : لئلا يهون عليه الأداء فيستخف به لأنه إذا قضى متفرقا هان عليه القضاء واستخف بالإيمان)) (١) .

---

(١) علل الشرائع ٢٧١ — ٢٧٣

أسرار الحج

وأما الحج وأسراره فأذكر فيه ما ورد عن الأئمة الأطهار في هذا الباب ونعرض عن استخراج ما فيها من الكنوز والأنوار لعدم إقبال القلب وسعة القلب وتحمل الناس .

روى الصدوق رضوان الله عليه في الفقيه عن النبي صلى الله عليه وآله سميت الكعبة كعبة لأنها وسط الدنيا .

وروي إنما سميت كعبة لأنها مربعة ، وصارت مربعة لأنها بحذاء البيت المعمور وهو مربع ، وصار البيت المعمور مربعا لأنه بحذاء العرش وهو مربع ، وصار العرش مربعا لأن الكلمات التي بني عليها الإسلام أربع وهي : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وسمي بيت الله الحرام لأنه حرم على المشركين أن يدخلوه ، وسمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق .

وروي أنه سمي العتيق لأنه بيت عتيق من الناس ولم يملكه أحد ، ووضع البيت في وسط الأرض لأنه الموضع الذي من تحته دحيت الأرض ، وليكون الغرض لأهل المشرق والمغرب في ذلك سواء ، وإنما يقبل الحجر ويستلم ليؤدي إلى الله عز وجل العهد الذي أخذ عليهم في الميثاق ، وإنما وضع الله عز وجل الحجر في الركن الذي هو فيه ولم يضعه في غيره لأنه تبارك وتعالى حين أخذ الميثاق أخذه في

ذلك المكان ، وجرت السنة بالتكبير واستقبال الركن الذي فيه الحجر من الصفا لأنه لما نظر آدم عليه السلام من الصفا وقد وضع الحجر في الركن كبر الله عز وجل وهلله ومجده ، وإنما جعل الميثاق في الحجر لأن الله تعالى لما أخذ الميثاق له بالربوبية ولمحمد صلى الله عليه وآله بالنبوة ولعلي صلوات الله عليه بالوصية اصطكت فرائص الملائكة فأول من أسرع إلى الإقرار بذلك الحجر ، فلذلك اختاره الله عز وجل وألقمه الميثاق وهو يجيء يوم القيامة وله لسان ناطق وعين ناظرة يشهد لكل من وافاه إلى ذلك المكان وحفظ الميثاق ، وإنما أخرج الحجر من الجنة ليذكر آدم عليه السلام ما نسي من العهد والميثاق ، وصار الحرم مقدار ما هو لم يكن أقل ولا أكثر لأن الله تبارك وتعالى أهبط على آدم عليه السلام ياقوتة حمراء فوضعها في موضع البيت فكان يطوف بها آدم عليه السلام وكان ضوؤها يبلغ موضع الأعلام فعلمت الأعلام على ضوئها فجعله الله عز وجل حرما ، وإنما يستلم الحجر لأن مواثيق الخلائق فيه وكان أشد بياضا من اللبن فاسود من خطايا بني آدم ، ولولا ما مسه من أرجاس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا برء ، وسمي الحطيم حطيما لأن الناس يحطم بعضهم بعضا هنالك ، وصار الناس يستلمون الحجر والركن اليماني ولا يستلمون الركنين الآخرين لأن الحجر الأسود والركن

اليماني عن يمين العرش ، وإنما أمر الله عز وجل أن يستلم ما عن يمين عرشه ، وإنما صار مقام إبراهيم عليه السلام عن يساره لأن لإبراهيم عليه السلام مقاما في القيامة ولمحمد صلى الله عليه وآله مقاما فمقام محمد صلى الله عليه وآله عن يمين عرش ربنا عز وجل ومقام إبراهيم عليه السلام عن شمال عرشه ، فمقام إبراهيم عليه السلام في مقامه يوم القيامة وعرش ربنا تبارك وتعالى مقبل غير مدبر ، وصار الركن الشامي متحركا في الشتاء والصيف والليل والنهار لأن الريح مسجونة تحته ، وإنما صار البيت مرتفعا يصعد إليه بالدرج لأنه لما هدم الحجاج الكعبة فرق الناس ترابها فلما أرادوا أن يبنوها خرجت عليهم حية فمنعت الناس البناء ، فأتي الحجاج فأخبر فسأل علي بن الحسين عليه السلام عن ذلك فقال له : مر الناس أن لا يبقي أحد منهم أخذ منه شيئا إلا رده فلما ارتفعت حيطانه أمر بالتراب فألقي في جوفه فلذلك صار البيت مرتفعا يصعد إليه بالدرج ، وصار الناس يطوفون حول الحجر ولا يطوفون فيه لأن أم إسماعيل دفنت في الحجر ففيه قبرها فطيف كذلك كيلا يوطأ قبرها .

وروي أن فيه قبور الأنبياء عليهم السلام وما في الحجر شيء من البيت ولا قلامة ظفر ، وسميت بكة لأن الناس يبك بعضهم بعضا فيها بالأيدي .

وروي أنها سميت بكة لبكاء الناس حولها وفيها ، وبكة هو موضع البيت والقرية مكة ، وإنما يستحب الهدي إلى الكعبة لأنه يصير إلى الحجبة دون المساكين ، والكعبة لا تأكل ولا تشرب وما جعل هديا لها فهو لزوارها .

وروي أنه ينادى على الحجر ألا من انقطعت به النفقة فليحضر فيدفع إليه ، وإنما هدمت قريش الكعبة لأن السيل كان يأتيهم من أعلى مكة فيدخلها فانصدعت .

وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ (١) قال : لم يكن ينبغي أن يوضع على دور مكة أبواب لأن للحاج أن ينزلوا معهم في دورهم في ساحة الدار حتى يقضوا مناسكهم ، فإن أول من جعل لدور مكة أبوابا معاوية .

ويكره المقام بمكة لأن رسول الله صلى الله عليه وآله أخرج عنها ، والمقيم بها يقسو قلبه حتى يأتي فيها ما يأتي في غيرها ، ولم يعذب ماء زمزم لأنها بغت على المياه فأجرى الله لها عينا من صبر ، وإنما صار ماء زمزم يعذب في وقت دون وقت لأنه يجري إليها عين من تحت الحجر فإذا غلبت ماء العين عذب ماء زمزم ، وإنما سمي

---

(١) الحج ٢٥

الصفا صفا لأن المصطفى آدم عليه السلام هبط عليه فقطع للجبل اسم من اسم آدم عليه السلام لقول الله عز وجل ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا ﴾ (١) وهبطت حواء على المروة فسميت المروة لأن المرأة هبطت عليه فقطع للجبل اسم من اسم المرأة ، وحرم المسجد لعلة الكعبة وحرم الحرم لعلة المسجد ووجب الإحرام لعلة الحرم ، وإن الله تبارك وتعالى جعل الكعبة قبلة لأهل المسجد وجعل المسجد قبلة لأهل الحرم وجعل الحرم قبلة لأهل الدنيا ، وإنما جعلت التلبية لأن الله عز وجل لما قال لإبراهيم عليه السلام ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا ﴾ (٢) فنادى فأجيب من كل فج يلبون .

وفي رواية أبي الحسن الأسدي رضي الله عنه عن سهل ابن زياد عن جعفر بن عثمان الدارمي عن سليمان بن جعفر قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن التلبية وعلتها فقال : إن الناس إذا أحرموا ناداهم الله عز وجل فقال ((عبادي وإمائي لأحرمنكم على النار كما أحرمتم لي)) ، فقولهم : لبيك اللهم لبيك إجابة لله عز وجل على ندائه لهم ، وإنما جعل السعي بين الصفا والمروة لأن الشيطان تراءى لإبراهيم عليه السلام في الوادي فسعى وهو منازل

---

(١) آل عمران ٣٣ (٢) الحج ٢٧

الشيطان ، وإنما صار المسعى أحب البقاع إلى الله عز وجل لأنه يـدك فيه كل جبار ، وإنما سمي يوم التروية لأنه لم يكن بعرفات ماء وكـانوا يستقون من مكة من الماء ريهم وكان يقـول بعضـهم لبعـض ترويتـم ترويتم فسمي يوم التروية لذلك ، وسميت عرفـة عرفـة لأن جـبرئيل عليـه السـلام قـال لإبراهيـم عليـه السـلام هنـاك : اعـترف بذنبـك واعرف مناسكك فلذلك سميـت عرفـة ، وسمـي المشـعر مزدلفـة لأن جبرئيل عليه السلام قال لإبراهيم عليه السلام بعرفات : يا إبراهيـم ازدلف إلى المشعر الحرام فسميت المزدلفة لذلـك ، وسميـت المزدلفـة جمعا لأنه يجمع فيها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، وسميت منى منى لأن جبرئيل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام فقال له : تمن يا إبراهيم وكانت تسمى منى فسماها الناس منى .

وروي أنها سميت منى لأن إبراهيم عليه السلام تمنى هناك أن يجعل الله مكان ابنه كبشا يأمره بذبحه فدية له .

وسمي الخيف خيفا لأنه مرتفع عن الوادي وكلما ارتفـع عـن الوادي سمي خيفا ، وإنما صير الموقـف بالمشـعر ولم يصـير بـالحرم لأن الكعبة بيت الله والحرم حجابه والمشـعر بابـه فلمـا قصـده الزائـرون وقفهم بالباب يتضرعون حتى أذن لهم بالدخول ثم وقفهم بالحجاب الثاني وهـو مزدلفـة فلمـا نظـر إلى طـول تضرعـهم أمرهـم بتقريـب

قربانهم فلما قربوا قربانهم وقضوا تفثهم وتطهروا من الذنوب التي كانت لهم حجابا دونه أمرهم بالزيارة على طهارة ، وإنما كره الصيام في أيام التشريق لأن القوم زوار الله عز وجل وهم في ضيافته ولا ينبغي لضيف أن يصوم عند من زاره وأضافه .

وروي أنها أيام أكل وشرب وبعال .

ومثل التعلق بأستار الكعبة مثل الرجل يكون بينه وبين الرجل جناية فيتعلق بثوبه ويستخذي (يعني يتضع له وينقاد) له رجاء أن يهب له جرمه ، وإنما صار الحاج لا يكتب عليه ذنب أربعة أشهر من يوم يحلق رأسه لأن الله عز وجل أباح للمشركين الأشهر الحرم أربعة أشهر إذ يقول ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ (١) فمن ثم وهب لمن يحج من المؤمنين البيت مسك الذنوب أربعة أشهر ، وإنما يكره الاحتباء (ويعني جمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، وفي رواية الاحتذاء وهو الانتعال) في المسجد الحرام تعظيما للكعبة ، وإنما سمي الحج الأكبر لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون والمشركون ولم يحج المشركون بعد تلك السنة ، وإنما صار التكبير بمنى في دبر خمس عشرة صلاة وبالأمصار في دبر عشر

---

(١) التوبة ٢

صلوات لأنه إذا نفر الناس في النفر الأول أمسك أهل الأمصار عن التكبير وكبر أهل منى ما داموا بمنى إلى النفر الأخير ، وإنما صار في الناس من يحج حجة ومنهم من يحج أكثر وفيهم من لا يحج لأن إبراهيم عليه السلام لما نادى هلم إلى الحج أسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة فلبى الناس في أصلاب الرجال وأرحام النساء لبيك داعي الله لبيك داعي الله فمن لبى عشرا حج عشرا ومن لبى خمسا حج خمسا ومن لبى أكثر من ذلك فبعدد ذلك ، ومن لبى واحدا حج واحدا ومن لم يلب لم يحج ، وسمي الأبطح أبطحا لأن آدم عليه السلام أمر أن ينبطح في بطحاء جمع فانبطح حتى انفجر الصبح ، وإنما أمر آدم عليه السلام بالاعتراف ليكون سنة في ولده ، وأذن رسول الله صلى الله عليه وآله للعباس أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقاية الحاج .

وإنما أحرم رسول الله صلى الله عليه وآله من الشجرة لأنه لما أسري به إلى السماء فكان بالموضع الذي بحذاء الشجرة نودي : يا محمد ، قال : لبيك ، قال : ألم أجدك يتيما فآويت ووجدتك ضالا فهديت ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك ، فلذلك أحرم من الشجرة دون المواضع كلها ، وأما تقليد البدن فليعرف أنها بدنة ويعرفها صاحبها بنعله الذي يقلدها به

، والإشعار إنما أمر به ليحرم ظهرها على صاحبها من حيث أشعرها ولا يستطيع الشيطان أن يتسنمها ، وإنما أمر برمي الجمار لأن إبليس اللعين كان يتراءى لإبراهيم عليه السلام في موضع الجمار فيرجمه إبراهيم عليه السلام فجرت السنة بذلك .

وروي أن أول من رمى الجمار آدم عليه السلام ثم إبراهيم عليه السلام .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينكم من اللحم فأطعموهم .

والعلة التي من أجلها تجزي البقرة عن خمسة نفر لأن الذين أمرهم السامري بعبادة العجل كانوا خمسة أنفس وهم الذين ذبحوا البقرة التي أمر الله تبارك وتعالى بذبحها وهم أدينونة وأخوه ميذونة وابن أخيه وابنته وامرأته ، وإنما يجزي الجذع من الضأن في الأضحية ولا يجزي الجذع من المعز ، لأن الجذع من الضأن يلقح والجذع من المعز لا يلقح (حتى يستكمل سنة) وإنما يجوز للرجل أن يدفع الأضحية إلى من يسلخها بجلدها لأن الله عز وجل قال ﴿ فكلوا منها وأطعموا ﴾ (١) والجلد لا يؤكل ولا يطعم ولا يجوز ذلك في الهدي .

---

(١) الحج ٢٨

ولم يبت أمير المؤمنين عليه السلام بمكة بعد أن هاجر منها حتى قبض لأنه كان يكره أن يبيت بأرض قد هاجر منها رسول الله صلى الله عليه وآله)) (١) .

واعلم أن لي في أسرار الحج وأفعاله ومقاماته كلمات عجيبة غريبة مأخوذة من كلمات أهل بيت النبوة عليهم السلام قد ذكرت بعضها في أثناء المباحثات وطويت أكثرها عن أصحاب الجهالات ، ولو أردت ذكر جملة منها في هذه الوريقات لطال الكلام لأدائه إلى تمهيد مقامات وبسط مقالات وفيما ذكرت كفاية لمن نظر واستبصر والله الهادي إلى سواء السبيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على النبي محمد وآله الطاهرين .

---

(١) الفقيه ٢ / ١٢٤ - ١٣٠

المحتويات